

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

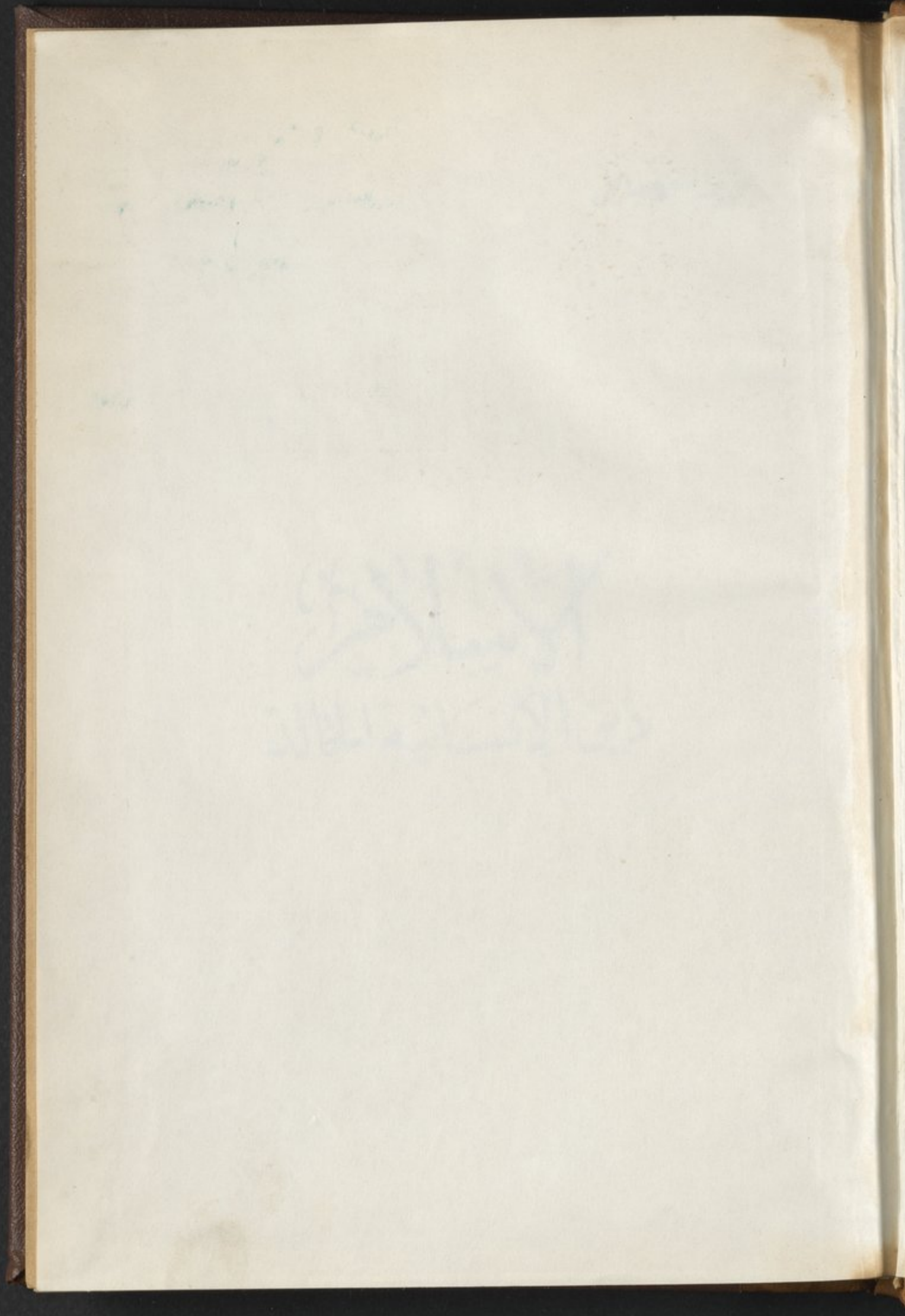


3 8534 01222 9070



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة





FROM THE
LIBRARY OF

THE
AMERICAN UNIVERSITY

IN
Cairo

SITY

الجا

محمد عبد المنعم فاضل

BP
165
K5
1955

الأسلاف
دين الإنسانية الخالد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

القاهرة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م

تصدير

هذا النور الإلهي العظيم ، الذي انبثق من السماء ، وأضاءت شعلته الأرض ، وحمل رسالته محمد بن عبد الله ، ونشرها في الخافقين خلفاؤه وأصحابه ؛ هذا النور هو شريعة الإسلام المطهرة ، ودين الإنسانية الخالد ، وعقيدة الأحرار والأبرار من كل جنس ولون .

وما أجل الإسلام شريعة رفيعة الأركان ، وعقيدة ككتابها المنزل هو القرآن ، وديننا إنسانيا عاما ، دان به المشرق والمغرب ، وسعدت به الحياة أحقابا طوالا .

والإسلام ليس دين رهبنة وكهانة وطلاسم ومعميات ، ورسوم وأغاز . ولكنه قبل وبعد كل شيء دين الحياة والحضارة والنهضة ، دين شعاره العمل ، ودعوته الجهاد من أجل تقدم الإنسانية ، وارتقاء الحضارة ، وأصوله الحق والحرية والعدل والإخاء والمساواة والسلام ، وجميع شعائره تهدف إلى خير الحياة والإنسان والمجتمعات والشعوب ، وفي كل عمل من أعماله ، وواجب من فروضه ، تذكير بالله ، وإيقاظ للضمير ، وتمجيد للمشي العلي ، والمبادئ السكرية ، والأخلاق الفاضلة ، والآداب الممذبة .

دين يوحد بين الناس ، ويجمع بين الشعوب ، وينظر إلى البشرية كافة نظرتة إلى أمة واحدة ، وجماعة متحدة ، دين يسع كل رأى ، وتحترم أصوله كل فكرة ، ويوفر لكل إنسان كرامته وحرية ، وحقوقة الطبيعية في الحياة .

كان ولا يزال ثورة عامة على الجور والرجعية والفساد والجور والاضطهاد والاستعباد ، وشهابا ثاقبا يرمى به أعداء التقدم والرقى والإنسانية ، وخصوم الإيمان والسلام ، وأعوان الشر والظلم والظلام .

نزلت رسالته المقدسة على أشرف إنسان في الوجود ، وفي أرض الصحراء .
العربية البعيدة عن الحضارة والعمران والمعرفة ، ودعى إليه - أول ما دعى إليه - قوم
كانوا يعيشون في ظلمات الجاهلية الأولى وأوثانها وأباطيلها ، وبعد قليل ، حينما
امتلات نفوس المسلمين بآدابه وشريعته وأصوله وأحكامه ، إذا البركان ينفجر ،
والثورة تشتعل . وهذا العربي القح الذي كان يعيش في عزلة تامة عن الحياة ، يحمل
في عنقه الرسالة ، وفي قلبه حرارة الإيمان ، وفي روحه ثورة الحرية ، ثم يندفع ليخلص
الشعوب من جور الحكام ، وليحرر العبيد من رق أبدى لا مسوغ له ،
وليعمل كرامة المرأة في الحياة ، ويعتبرها إنسانا ذا روح له إرادته وكرامته
ورأيه في المجتمع ، ويرتفع بالفقير إلى مصاف الغنى ، وبالعامل إلى مستوى
صاحب العمل ، وبالفلاح والخدام وأمثالهما إلى نطاق من الكرامة الإنسانية
وحق الحياة .

ثم إذا هذا العربي الذي انطلق من الصحراء ، يؤئل للحضارة والمعرفة الصروح
السامقة ، ويبني المدنية أركانها قوية ، يدعمها الفكر والعقل والروح والبدن ، وإذا
هو الذي تستعز به الشعوب المغلوبة على أمرها ، لينقذها من الجور والظلام ، وإذا
هو منشيء الجامعات ، ومحرر العقول ، وواضع أصول المدنية ، والداعى إلى
الإنسانية الرفيعة في كل شيء ، ثم يصير سيد الدنيا ، وحاكم الأرض ، ومدمر عروش
الطغاة من الملوك والقيصرة .

الإسلام وما أعز الإسلام في الأرض ، وأعذب لفظه في الأفواه ، وأجل
معناه في القلوب ، هو هو المعجزة الخالدة ، وغاتم الرسالات إلى الأرض ، وهو
الذي نتحدث عنه في هذا الكتاب ، حديثا يجمع بين الدراسة والتحليل ، نشرح
أصوله ، وننبه إلى مبادئه ، ونفصل الكلام في دعواته التجديدية الكبرى ، للبناء
والإصلاح والإحياء والنهضة .

وها هو هذا الكتاب ، الإسلام دين الإنسانية الخالد ، وبالله التوفيق ، وهو
نعم المولى ونعم النصير ...

تصدير

قضايا الحرية والاصلاح وتوزيع العدالة الاجتماعية بين الناس هي الشغل الشاغل اليوم للشباب في مصر والعالم العربي ، لاتصالها الوثيق بحياة الشرق وآماله ومشكلاته ، وبالتفكير العالمي الراهن . والحديث عنها جميل محبوب ، لأنه ينبع من النزعات الانسانية المتأصلة في قلوبنا وأرواحنا ، ولأنه مقدمة للاصلاح الذي لا يمكن أن ينهض مجتمع لا يؤمن به ، وديننا الكريم الذي نسعى بدوافعه الروحية العميقة في نفوسنا هو أحفل الشرائع بمبادئ الاصلاح والخير والحرية والعدالة والتعاون بين الناس .

وبين مواكب الشباب الساعية لخير الحياة ومجدها ؛ نرى البعض قد انحرف عن الجماعة ، وترك التفكير في أهداف الدين ومراميه وأصوله ، وآمن بمبادئ أخرى تخالف ديننا وتقاليدها الموروثة .

والذين يؤمنون منا بهذه المذاهب الغريبة عنا ينسون أنها مذاهب مادية استعمارية ، وأن الدول التي تدعو اليها تقصر خيرها على نفسها وتوزع شرورها بين الناس .

أما الاسلام فقد سبق المذاهب عامة إلى تقرير كل ما هو حق وعدل وخير وجميل ، وإلى تطبيقه تطبيقاً عاماً على الناس كافة ، دون نظر إلى أجناسهم وعناصرهم وأديانهم ، لقد سبق فلاسفة الاجتماع المحدثين إلى وضع أصوله ، وسبق بكونه إلى المذهب العلمي ، وديكارت إلى تقديم الشك أمام كل بحث وترك التقليد والإيمان بما يؤدي إليه الدليل ، ووضع أصول السياسة والتشريع والأخلاق والبحث والتفكير ؛ ولم يجعل المعرفة الانسانية حداً ، وكفل حقوق المرأة والعامل والزارع والخدم ، وأقام مبادئه على سمو الغاية فحسب ، دون النظر إلى التفسيرات الاقتصادية المادية التي هي أساس الحياة الراهنة .

ولقد سبق الاسلام الحضارة الغربية إلى توطيد دعائم العدالة والمساواة بين

الناس ، وإلى النظم الديمقراطية الشورية ، وتقرير مسؤولية الحاكم ، وإلغاء الفوارق والامتيازات بين الطبقات والعناصر والألوان . وسبق إلى محو الأمية وبجانية التعليم والعلاج ، وتقرير مبدأ الضمان الاجتماعي للعاجزين عن الكسب : مسلمين وغير مسلمين ، وإلى محاربة الجشع الاقتصادي والاحتكار والربا والاستغلال . ولقد فكر بعض المسلمين على عهد الرسول صلوات الله عليه في تأجير أراضيهم الواسعة التي لا يزرعونها للفقراء فنهزم قائلًا : من كانت له أرض فليرزقها أو يمنحها أخاه ولا يؤجرها لإياه ، وحجر عمر على الأشراف أن يهاجروا إلى البلاد المفتوحة لاحتلال أراضيها حتى لا يضيقوا على الناس قائلًا : دأفان قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حتى فلا .

إن حقوق الإنسان لم تعلنها الثورة الفرنسية ولا هيئة الأمم المتحدة ، وإنما أعلنها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان . وما بالكم بدين حتى حق الإنسان في الأمن والحياة وفي الكرامة الإنسانية وفي تكوين الأسرة وفي السعي في الحياة والمعيشة المطمئنة ، وفي مساواته بغيره مساواة كاملة شاملة أساسها العدل والأخاء ، وجعل الفرد للمجتمع والمجتمع في خدمة الفرد ، ووضع أصول التقدم الأدبي والروحي والاجتماعي ، وأيقظ الروح الإنساني العام ، ودعا إلى أخوة الإنسانية كافة ، وحمى الفقير وجعله أخاً للغني ، وأوجب له من الحقوق ما لم توجه له شتى المذاهب الحديثة التي يرنو الشباب ببصره اليوم إليها ، ولم يطلق للغني الحرية يفعل ما يشاء ، بل طالبه بشتى الالتزامات المفروضة عليه يقدمها طواعية واختياراً تلبية لنداء ضميره ودينه ، وحذره أشد التحذير من الضن بالمال وعدم إنفاقه في المصالح العامة ، والذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم ، يحمى عليها في نار جهنم فتسكوى بها جبابهم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تسكنون ، والحرية والسلام ورعاية حقوق الإنسان ، ثلاثها هي عماد النهضة ، ووسيلة التقدم ، وصمام الأمان في الجماعات والشعوب . فالحرية هي الغذاء الروحي ، والتراث الإنساني ، للإنسان في الأرض ،

وبدونها تصبح الحياة جهنما لا يطاق ، وشرا لا يحتمل ، وبلاء لا تتحملة مقدرات
الأمم .

والسلام هو وليد المحبة والتعاون والإخاء والعدالة والحق والآثار والخير .
وهو خلاصة فلسفة الأديان ودعوات قادة الفكر البشري ودعاة الإصلاح . وبدونه
يهدم الإنسان بيده ما يبنيه أخوه الإنسان ، ولا تتقدم الحياة خطوة واحدة إلى الأمام
، ويعود ابن حضارة القرن العشرين إلى حياة الغابات ، ووحشية الجاهلية الأولى .
ورعاية حقوق الإنسان هي الوسيلة الفعالة لاحترام الكرامة الإنسانية .
ومحاربة المبادئ الهدامة ، ولقد أقرت الأمم المتحدة حقوق الإنسان منذ أعوام ،
بعد أن حددها وعرفها كبار الفلاسفة والمشرعين ، ووضعت في ميثاق دولي اعتمدته
الدول الكبيرة والصغيرة على السواء .

والسلام الذي يبكى عليه معسكرا الشرق والغرب ، ويدعون إلى توطيد دعائمه ،
لم يهدده شيء أخطر من الاستعمار ؛ الاستعمار الجاثم فوق صدور الملايين من البشر
يذيقهم العذاب والآلام والشقاء ، ويهددهم بالتشريد والفناء .

الاستعمار هو الذي يحطم السلام ويهدد مستقبل العالم والشعوب : وهو أينما
كان وحينما وجد العدو للدود الإنسانية . والحروب الكبيرة في تاريخ العالم إنما
قامت بسبب الاستعمار ، وتنافس الدول الكبرى على استعمار الشعوب الضعيفة .

إننا نمقت الاستعمار ، ونزدري أساليبه في مقاومة التقدم وفي القضاء على
مقومات الناس والشعوب . والاستعمار تحاربه كل قوى الخير في الحياة لأنه شر
محض ، وتحاربه كذلك الأديان السماوية ؛ ويقف منه الإسلام موقف العداء الشديد
؛ فهو لا يقر تحكيم أمة في أمة . ولا استغلال شعب لشعب بالبغي والعدوان والظلم .
وعصر الاستعمار يجب أن ينتهي ، فلقد قاسى العالم من الاستعمار الآلام ، وعليه
الآن أن يهب للدفاع عن حرية وحياته .. ونحن ننذر الشعوب المستعمرة بالحرب
التي لا هوادة فيها ، إذا لم تغير من عقليتها العتيقة البالية . فالاستعمار هو عدونا
وعدو السلام والانسانية .

إننا سنبدل دماءنا وأرواحنا في سبيل الحرية ، ومع ذلك فنحن نشدد أن
يتمتع كل إنسان بحقه الكامل في الحياة ، في الغذاء والكساء والتعليم والعلاج
والتأمين الاجتماعي والخدمات العامة ، وغيرها من الحقوق التي يكفلها الإسلام
والنهضة الحديثة .

إننا ندعو إلى الحرية والاصلاح ، ونؤمن بهما ، لأنهما السبيل إلى النهضة
والتقدم والحياة السعيدة ، ولأن ديننا الخالد جاء للدعوة إليهما . ونريد أن
تشيع روح الحق والعدل والحكمة والتعاون والإخاء والمساواة والديمقراطية في
جوانب بلاد العرب والعزة ، حتى يشعر كل مواطن بأن حكومته منه وإليه وله ، وأنها
إنما قامت لخدمته وتهيئة أسباب التقدم له ، وأنه مطالب أن يعمل من أجل المجموعة
الإنسانية العامة ، ومن أجل وطنه وبلاده ، ومن أجل أهله وقومه وعشيرته .

إن في ديننا كل أسباب العزة والقوة والاصلاح . وكل طرق الخير والمعرفة ،
وفي معرفته ودراسته تهذيب لعقولنا ونفوسنا وأفكارنا ، وكبح لجراح الشهوات ،
ودفع للعمل من أجل الجماعة والمجتمع .

ونحن فيما سجلناه ودوناه في هذا الكتاب ، إنما نشدد أن يفهم الناس حقائق
هذا الدين وأصوله ومبادئه وأهدافه ، إذ هو دين الإنسانية المثلى . وإن يعملوا
من جديد على إحياء مجدهم الغابر ، وتراثهم الخالد ، وعلى خلق يقظة قومية عامة في
شقي أرجاء العالم العربي والإسلامي . . وما ذلك على الله بعزيز ؟

مقدمة

العزة لله..!

العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، العزة لله لأنه العزيز أبدا ، بقدرته القاهرة ، وإرادته المسيطرة ، وحكمته المهيمنة على كل شيء ، وعلمه النافذ إلى أعماق الكون ، سبحانه تفرد بالبقاء والوحدانية ، لا شريك له ، ولا عبودية إلا له وحده ، عز في السماء والارض ، وهو الحق ذو القوة المتين

والعزة لرسوله ، في حياته وبعد حياته ، عند الله والملائكة والناس أجمعين ، بما بلغ من رسالة ، ونشر من دين ، وأدى من أمانة تؤود الجبال الراسيات ، ويشرق جمالها وجلالها على الارض والسموات ؛ والعزة له بمواقفه الخالدة ، وبطولته المثلى ، وتضحياته التي حولت مجرى التاريخ ، وغيرت اتجاه الانسانية ؛ وبدلت الظلام نورا ، والحرب سلاما ، والفزع أمنا ، واليأس رجاء وأملا في الحياة ؛ فما أعزه وأروعه يوم وقف يقول لعمه : « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .. والعزة له يوم حارب قريشا والمشركين فانتصر في بدر وخيبر وحنين وقمع مكة ، وغيرها من المواقع التي سار ذكرها على وجه الزمان ومرور الأجيال

ثم العزة للمؤمنين ، المؤمنين الصادقين ، الذي وصفهم الله عز وجل في كتابه الحكيم فقال : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » ، والذين كانوا هم المثل الأعلى للإنسانية المهذبة الكريمة ، المطبوعة على الإيمان والحرية والعدل والبر

والرحمة والنبيل والرجولة والبطولة؛ العزة لهؤلاء المؤمنين، يوم وقفوا مع الرسول
الاعظم، يناخون عن دينه ودعوته، ويؤيدون مواكب الحق والتوحيد والنور،
ويمهدون للإنسانية طريق النجاة والفوز والنصر المبين، والعزة لهم يوم خاضوا
المعارك في قلب الجزيرة وفي الشام ومصر وفارس والعراق وفي كل مكان أشرق فيه
نور الإسلام، وخفقت فوقه رايته المظفرة، فانتصروا على جحافل الوثنية والشرك
والظفيان والاستبداد، وحزروا الطبقات والمجتمعات والشعوب من العبودية،
ونشروا كلمة الله في الأرض، وركزوا راية الإسلام فوق كل ربوة ومعقل ومدينة
وقرية وقطر، والعزة لهم في كل حين خرجت فيه مواكبهم المظفرة غازية فاتحة
لا يردنها جبل ولا سهل ولا بحر، ولا يقف أمامها جيش ولا حصن، مواكب النصر
والعلم والحرية والنور، من حملة المشاعل. ودعاة الحقيقة، ورعاة الذمم، والموفين
بالعهد، والباينين لصروح الثقافة والحضارة والمدنية، فسلام عليهم في الأولين،
وسلام عليهم في الآخرين

والعزة للمؤمنين ما عملوا بكتاب الله، وتمسكوا بشريعة رسوله المطهرة،
واستقاموا على الحقيقة، ونهجوا مناهج الرشد، ونبذوا الخلاف والشقاق، وتعاونوا
على البر والتقوى، وطهروا نفوسهم من الشرك، وقلوبهم من الرياء، وأرواحهم
من الضعف، ومشوا إلى الغايات الكريمة، والمثل الرفيعة في الحياة، وأخلصوا لله،
وأدوا فروضهم كاملة، فصلوا وصاموا وزكوا وحجوا واعتمروا، يريدون بذلك
وجه الله، وينشدون مثوبته ورضاه

البَابُ الْأَوَّلُ

بين الإسلام والشيوعية

لا يمكن لمباحث منصف أن يوازن بين مبادئ الإسلام والشيوعية ، بين
شريعة إلهية ونظم وضعية ، بين إصلاح خالص وثورة متطرفة ، بين دين روحه
السلام والأخاء والحرية والتعاون الانساني لخير البشرية والحضارة ، ومذهب
يؤمن بالطغيان وصراع الطبقات والاحاد والمادية ، ويشير الاضطراب في الحياة ،
ويعزل معتنقيه عن الشعوب المحبة للحرية والسلم والديمقراطية .

ومع ذلك فسنحاول البحث والموازنة ، وشرح موقف الاسلام من هذه
المبادئ الوافدة ، وبيان رأيه في جميع المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، ونفصل
منهجه في الإصلاح ، وما يدعو اليه من اشتراكية عادلة ، وديمقراطية حقة ، ومساواة
لاحيف فيها ، وإيمان بحقوق الانسان وحماية لها .

ولاشك أن مبادئ الشيوعية معروفة ، ومصادرها كثيرة متعددة ، وأن
محاربة النشاط الشيوعي في العالم الحر لا يعني الجهل بهذه المبادئ أو التزوير عليها ..
ومن البدهي أننا هنا حين نتحدث عن الاسلام ننظر الى مبادئه نفسها ، بصرف النظر
عن مدى تطبيقها اليوم في العالم الاسلامي .

وعلى هدى هذا المنهج نسير الآن في البحث والموازنة .

الحضارة بين المادية والروحية

- ١ -

للشيوعية رأيها في أسس الحياة والوجود والحضارة ، الذي يتجمع في فلسفة مادية عجيبة ، لا تؤمن بالمثل ولا الروحيات والمعنويات .
فهي ترى أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية خارج نطاق الفكر ، مستقلة عنه ، والمادة أولا ، ثم يتسلوها العقل .. ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع والوجود المادى له ، لها السيادة على الحياة الروحية ، التي هي عندهم انعكاس الوجود .
ويعلق زعيم من زعماء الشيوعية على ذلك بقوله : إن على حزب طبقة العمال ألا يقيم أعماله على مبادئ العقل البشرى المجردة ، ولكن يقيمها على الأحوال المقررة للحياة المادية للمجتمع باعتبارها القوى الفاصلة للارتقاء الاجتماعى (١) ، ويقول انجز : إن العالم المادى الذى ندركه بحواسنا والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة ، وليست المادة من إنتاج العقل بل إن العقل ما هو إلا اسمى لإنتاج للمادة (٢) .

وهي تذهب إلى أن العالم بطبيعته مادى وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة في تحرك ، وارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة إلى الروح الشاملة (٣) ، « فهي تؤمن بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بها دارون ، ومن ثم تصر على إنكار وجود الله (٤) . ويرى كارل ماركس أن امتداد هذا إلى دراسة الحياة الاجتماعية وتطبيقها على المجتمع يؤتىنا نتائج على جانب عظيم من الأهمية لأنه يفسر تطور المجتمع ، ويرجع

(١) الدستور السوفيتى لفؤاد محمد شبل

(٢) ٣٣ نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبعة ١٩٤٨

(٣) ٣٠ الدستور السوفيتى (٤) ٥٣ الشيوعية فى الميزان

حوادثه إلى أسباب مادية بحيث لا يترك شيئاً منها للبصادفة أو للارادة الإلهية أو للأسباب العليا الخارجة عن الطبيعة (١) .

ومن ثم ترجع الشيوعية كل شيء حتى الدين والأخلاق والفكر والفلسفة والثقافة والقانون والسياسة إلى انعكاسات الأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية ، وتمتد جذورها إلى الظروف المادية للحياة (٢) . . . وتاريخ ارتقاء المجتمع هو عندهم قبل كل شيء تاريخ ارتقاء الانتاج (٣) ، وتتم بتفسير الأحداث التاريخية تفسيراً مادياً (٤) ينسكركم الدين (٥)

والفلسفة الشيوعية إلحادية بطبيعتها ، معادية لكل ما يمت بصلة إلى الدين ، وكان ماركس زعيمها الروحي وشيخ الماديين لا يؤمن بالمثل ولا يدين إلا بالمحسوسات ، ويقول : لا إله والحياة مادة (٦) ، ويقول : رسالة الطبقة العاملة هي القضاء على الدين وعلى الداعين إليه (٧) ، ويقول (هويز) إن الأشياء المادية وحدها هي المحسوسة لنا ، وأنا لا أستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله ، إن وجودي الخاص بي هو وحده الأمر المؤكد أما ماعداه فخيال لا أصدقه ، (٦) ، ويقول إنجلز : (٧) لا محل مطلقاً لوجود خالق ، ، ويقول زعيم لهم : الحزب الشيوعي لا يمكن أن يكون محايداً تجاه الدين ، إن الحزب يقف إلى جانب العلم والدين ينافيه (٨) ، ، ويصرون على أن « الدين هو مخدر الشعوب (٢) » .

وللمذهب المادي دعاة في القديم والحديث ، ويناقضه المذهب المثالي والإرادي والحيوي ، ومن أنصاره هيغل وديكارت وشوبنهاور ونيتشة وبرجسون وسوام . وينقده كثير من الباحثين

وهو على أي حال ينسكركم العواطف البشرية والمثل العليا والقيم الأخلاقية

(١) ٣٦ و ٣٧ نقد النظرية الماركسية (٢) ٦٧ إنجلز

(٣) ٧٩ المذاهب السياسية المعاصرة لعلي أدوم ، ١٧٧ إنجلز

(٤) ٣٢ الدستور السوفييتي (٥) ٥٢ الشيوعية في الميزان

(٦) ٥٢ المرجع (٧) ٥٣ المرجع

(٨) راجع ١٤٢ الدستور

والجوانب الانسانية والمعنويات الكريمة من فنون وآداب وديانات وسواها ،
بما هو دعامة الحضارة ، والذين يعترفون بها من الشيوعيين يمسخونها ويردونهم إلى
عوامل مادية .

— ٢ —

ان هذا المذهب المادى الذى ينتهى إلى إنكار الله ومحاربة الدين يناقض أسس
الاسلام ومبادئه أبعد مناقضة . وينكره الإسلام ويحاربه .. والذين يؤمنون بمثل
هذه المبادئ الهدامة هم فى رأى الاسلام مرتدون يحاربون ويقاتلون حتى يفيئوا
إلى دين الله ، لانهم يعملون على مسخ الفطرة الإنسانية ومحاربة فكرة التقدم والحضارة ،
ويهدمون الأسس التى بنتها البشرية على مر الاجيال منارا رفيعا للفكر والمدنية .
وفلسفة الفكر الحديث يصرون على الاعتراف بالله والايان بالدين ، يقول
شوبنهاور : إن فكرة الاله الذى ليس له نهاية ، وقدسية الروح ، والعلاقة بين الله
وعبادته ، كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية . وهى تلك
الافكار التى لا يمكن لى ولا للحياة بغيرها البقاء ، ويقول ريتان : من الممكن أن
يضمحل كل شئ . نحببه الاثنتين ، فسبقى أبد الأبدى حجة ناطقة على بطلان المذهب
المادى . وكان تولستوى المبشر الروحى بالشيوعية مؤمنا بالدين ، وكان يقول : إن
الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة ؛ ويقول : اننى لا أعيش اذا فقدت العقيدة
فى وجود الله ، ولو أنى كنت أعلق بأهل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمن
بعيد . عش باحثا عن الله واذن قلن تعيش بدونه . واذن يقوى اعتقادك فى الكمال
الخالق وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة .. ان البشر لا يزالون فى فجر عصر العلم وكلما ازداد
ضياء العلم سطوعا جلا لنا شيئا فشيئا صفة خالق مبدع . وان التواضع والايان القائم على
العلم يدنوا بنا رويدا رويدا الى معرفة الله (١) . ويؤكد علماء الذرة والفلك والحياة
والرياضة وجود الله لان لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود
ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لا حد له (٢) .

(١) راجع المختار عدد فبراير ١٩٤٧ من مقالة لرئيس أكاديمية العلوم فى
نيويورك عن كتاب الانسان ليس وحيدا (٢) راجع المصرى عدد ٢٣/٨/١٩٥١

والاسلام يدعو الى الدين والايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والثقة
بالمثل العليا والاعتزاز بالفضائل الانسانية وبالقيم الروحية .. وأساس الحياة
عنده هي الروح والمادة تبع لها والروح هي التي ناجت الله في الازل وعاهدته على
الايمان بالدين كما يقرره القرآن الكريم (١) . ثم خلقت المادة ، وحلت الروح في الجسم
وبدأت الحياة تنمو ، وبعد هذه الحياة الدنيا يفنى الجسم ، وتنطلق الارواح ،
وتبقى مخلدة ، حتى يأذن الله بالبعث وإحياء الأجسام من جديد .. فالاسلام لا ينكر
المادة إطلاقاً وإنما يثبتها ويجعلها مسخرة لخدمة الروح .

وكل هذه الافكار الاسلامية تهدم الأساس الأول الذي بنيت عليه الشيوعية .
وجميع الحضارات القديمة والحديثة على السواء لم تقم على أسس مادية محضة ،
إنما كان للعوامل الروحية أثرها البعيد في قيامها ونموها ، والاسلام يدعو إلى بناء
الحياة على الروح : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من
الدنيا » (٢) .. ويدعو إلى التحرر من أسر المادة والعيش في رحاب التأمل والحرية
والملاءمة الأعلى للروح ، ليتم وجود الانسان وكأله وحريته في الحياة .. وذلك كله
هو الأساس الأول للحضارة في رأى الإسلام .

(١) راجع آية ١٧٢ الأعراف (٢) راجع آية ٧٧ القصص

الحرية الدينية

في ظل الاسلام والشيوعية

- ١ -

والحرية الدينية هي أعظم حق من حقوق الانسان ، وقد أيدها المذاهب
الفكرية الحديثة ، ونص عليها ميثاق الامم المتحدة .
والاسلام يدافع عن الحرية الدينية إلى أبعد مدى ، وينتصر لها ، ويأذن للمؤمنين
الذين يضطهدون في دينهم بالدفاع عنه بالسيوف ، وهو لا يبيح لأتباعه أن يتحكموا
في الحريات الدينية . ويأمرهم أن يحترموا الأديان : « لا إكراه في الدين (١) » ،
« لكل أمة جعلنا منسكاً لهم ناسكوه » (٢) وأن يبروا أهلها ويقتطوا إليهم : « لا ينهاكم
الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله
يحب المقسطين (٣) » ، ووصايا رسول الله وخلفائه في احترام الحريات الدينية مشهورة .
ولكن الشيوعية الحديثة تنسك لهذه الحريات تنسكراً شديداً .. وأعمال دعايتها
وزعمائها في بلادهم شاهد صدق على ما نقول .. ففي روسيا نجد أن الثورة الشيوعية
فيها قد بدأت بحملة قاسية على رجال الدين ، فقتل عدد كبير منهم ، وحرّم عليهم
الظهور في المجتمعات العامة ، وأغلقت بيوت العبادة ، وصودرت أوقافها ،
وحرّم الشيوعيون تدريس الدين ، وألغوا القسم به وألغوا الجمعيات للدعاية اللادينية ،
وأصدروا مجلة أسبوعية اسمها « بلادين » ، وفي عام ١٩٢٥ عقد مؤتمر بموسكو
لوضع الخطط الخاصة بالقضاء على النزعة الدينية وبث روح الاتحاد في المدارس
والجيش ، وأخذ « اتحاد الاتحاد » في النشاط حتى بلغ عدد فروعها في ١٩٣٥ سبعين
ألفاً تضم الملايين .. وفي عام ١٩٢٩ صدر قانون يحظر الدعاية الدينية ويعتبرها عملاً

(١) من آية ٢٥٦ البقرة (٢) ٦٧ الحج (٣) ٨ الممتحنة

(١) ١٣٩ الدستور السوفيتي

غير مشروع ، وبذلك عطلت مادة الدستور التي تنص على أن الدعاية الدينية مكفولة كالدعاية اللادينية . . وفي مايو ١٩٣٢ صدر قانون يهدف إلى القضاء على الهيئات الدينية خلال خمسة أعوام جاء فيه : في أول مايو ١٩٣٧ لن يبقى في كافة البلاد أى مكان للعبادة ويجب القضاء على فكرة الآله بحسبانها من بقايا القرون الوسطى (١) ، ونصت قوانين عام ١٩٣٩ على حظر الاجتماعات الدينية الخاصة وعدم السماح للهيئات الدينية بالاحتفاظ بأى نوع من الكتب إلا ما يلزم في المراسيم الدينية ، وحظر بناء أمكنة جديدة لممارسة الشعائر الدينية . . . وإذا كانت روسيا قد أطلقت الحريات الدينية خلال الحرب ، فإنما كان ذلك ذرا للرماد ودفعاً للشعب إلى تحمل مرارة الكيفاح وكسبا لعطف شعوب العالم لتساعد روسيا في محنتها ، ولا يعنى هذا إيمان الشيوعيين بالدين ، فالطبقة الحاكمة هناك لن تقبل في صفوفها أنسانا يؤمن بدين من الأديان (١) ، ومنزلة الدين في روسيا خلال الحرب وبعدها لا تصل إلى عشر ما كانت عليه قبل الثورة الشيوعية (٢) ، والتعليم فيها ينشر الأحاد ، والجماعات كلها تنفر من الدين ، وتأثير رجال الدين على الشباب قليل . وهم يخضعون لتوجيهات الدولة خضوعاً مطلقاً

- ٢ -

وللشيوعية موقف خاص من الاسلام يمثل قول مولوتوف : لن تنتشر الشيوعية في الشرق إلا إذا أبعادنا أهله عن تلك الحجارة التي يعبدونها في الحجاز وفلسطين ولقد عادى زعمائها فكرة الجامعة الاسلامية لقوميات المسلمين هناك ، ولم يأت عام ١٩٣٣ حتى أرغمتهم الحكومة على اتخاذ الحروف اللاتينية بدل العربية ، وبذلك قطعت صلة هذه القوميات بالعالم الاسلامي ، وفي عام ١٩٣٧ أمرتهم باتخاذ الحروف الروسية ، مع أن روسيا أباحت للأرمن والجورجيين — وهم أقل من المسلمين في بلادها — الاحتفاظ

(١) المرجع

(٢) راجع كتاب روسيا السوفيتية ومؤلفه دالان

بحروفهم الهجائية الخاصة ، ولم ترغهم على اتخاذ الحروف اللاتينية أو الروسية (١)
وبهذا أصبح المورد الثقافي للمسلمين هو اللغة الروسية وآدابها وثقافتها عوضاً عن
اللغة العربية والثقافة الإسلامية .

وهناك قيد آخر على الحرية الثقافية للمسلمين ، إذ لا تجيز الشيوعية أن تكون
لأية قومية أو أقلية عنصرية في بلادها - ومن بينهم المسلمون - علاقة روحية أو
ثقافية بقومية أخرى تماثلها في العقيدة أو الثقافة خارج نطاق بلادها (٢) . وبهذا
حيل بينهم وبين الاتصال روحياً وثقافياً بالعالم الإسلامي الحر ، وحرّم عليهم الحج
إلى بيت الله .

وقد اضطهدت الشيوعية المسلمين في تركستان وبخارى وسمرقند وطشقند وفرغانة
وخوارزم ، ونفت الكثير منهم إلى مجاهل سيبيريا .

وظهر شعورها حيال المسلمين في تأييدها المطلق للصهيونية ، وفي خذلانها للقضايا
العربية في هيئة الأمم .

إن الحرية الدينية في ظلال الشيوعية لا وجود لها . وهذا هو ما ياباه الإسلام
وتنكره مبادئه السمحة .

(١) ١٨٩ الدستور السوفيتي

(٢) ١٩٠ المرجع .

السلام

الاجتماعى بين الاسلام والشيوعية

- ١ -

وفكرة السلام الاجتماعى مبسطة فى القرآن الكريم بسطاً واسعاً ، وقد دعا اليها الإسلام ورسوله ، وتناول أطرافاً منها التشريع الإسلامى وحرص على تطبيقها الخلفاء والولاة المسلمون ، ويمثل بعض مظاهرها قول الرسول : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، والقول المأثور : عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به . وليست فكرة السلام الاجتماعى أمراً مندوباً يدعو اليه الإسلام . ولكنها فرض واجب وعمل حتم ، وهى جزء من العقيدة الإسلامية ، وأساسها أن المجتمع مهما كبر أسرة واحدة ، وأن على كل إنسان فيه أن يؤدى الواجب عليه للآخرين بنفس الشعور الذى يشعر به نحو أسرته ، وأن يعمل على نشر الأمن والسلام والمحبة والتعاون بين الناس ، وأن يشعر روحه تلك المعاني ويعتقد أنه لا يتم إيمانه بدونها ، وأن عليه أن يضحى من أجل غيره ، ويؤمن بالآثار ، ويبذل المال والروح فى سبيل أخيه الإنسان ، ولذلك حرم الإسلام الرذائل الاجتماعية ، ونهى عن الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه ، وأوجب الزكاة ، وحث على الصدقة والإحسان وتفريج كربة المهموم ومساعدة المحتاج . . وأوجب العدل بين الناس ، وحارب الأهواء والشهوات والمحسوبية ، وحتم التكافل الاجتماعى بين الناس ، وجعل أساس العلاقة بين الإنسان والإنسان وبين الجماعة والجماعة هو السلام ، وأوعد المخالفين أشد الوعيد .

أما الشيوعية فتؤمن بمبدأ اجتماعى عجيب . هو صراع الطبقات (١) ، .. يقول

(١) ٧٧ الدستور السوفيتى

وماركس إنجلز : إن تاريخ كافة الجماعات الحاضرة هو تاريخ الصراع بين الطبقات . .
ويقول ماركس زعيم الشيوعية الروحي : لن تستطيع الطبقة العاملة التحرك ولا
النهوض بنفسها ما لم تنسف جميع طبقات المجتمع المتركمة فوقها ، ويقول : إن صراع
الطبقات يقود بالضرورة إلى ديكتاتورية الطبقة العاملة ... ويدعو ماركس إلى الثورة
والانقلاب الشامل كضرورة للإصلاح .. ويؤثر عن لينين : من غير نظرية ثورية
لن تكون حركة ثورية .. ويقول ستالين من رسالته في المادية الجدلية : تحرير الطبقة
العاملة لا يمكن تحقيقه إلا بالثورة فقط .

هذه النظرية نقدها علماء الاجتماع نقدا عادلا (١) ، وهي ولا شك تبذر بذور
الحقد والبغض والكراهية بين الناس ، وتعمل على نشر الثورات والحروب ، وتقضي
على التعاون والسلام في المجتمع .. مما ظهر أثره في الثورة الشيوعية في روسيا واضحا
ملبوساً .

وهي نظرية لا يقرها عقل أو دين ، ويحاربها الاسلام حربا شعواء ، لأنها تفسد
الآمن والسلام ، وتقضي على الإخاء الإنساني ، وتجعل بعض الناس أعداء لبعض ،
وتولد البغضاء والشقاق في المجتمع .

وفي عصور الجاهلية الأولى لم تدع جماعة أو أمة إلى « صراع الطبقات » ..
ويسير الإصلاح العام في الدول المتحضرة بالوسائل السلمية دون سواها ، ولقد
أوجب الاسلام أن يعيش الفقراء والأغنياء بجوار بعض أخوة متحابين متعاونين
في الحياة ، وكذلك سائر الطبقات . « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد
الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحنى والسهر » .

السلام العالمي

في الاسلام والشيوعية

السلام العالمي دعوة إلى التعاون بين الأمم والشعوب ، وحل مشكلاتها بالوسائل السلمية ، وتحريم الحروب التي تقوم للاستعمار والاستغلال ، بل تحريمها لغرض نشر الدين أيضا : « لئلا يكل أمة جعلنا منسكهم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك (١) » ، والاسلام ينظمه وروحه وأهدافه يعمل على نشر هذا السلام ويدعو إليه ، ويجعله هدفا من أهداف الإنسان ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها (٢) » : وبؤيد هذا المبدأ بأن الناس يجمعهم أصل واحد ، وأن التعارف والتآلف والتعاون يجب أن يسودهم ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا (٣) » . ولذلك ألغى الاسلام العصبية وفوارق الألوان والأجناس داعيا إلى الوحدة الإنسانية ، وإلى أن يعيش الناس كما بدأوا أمة واحدة : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا (٤) » ، « وما تفرقا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم (٥) » ، ولم يشرع الاسلام الحرب إلا للدفاع عن النفس أو العقيدة .

أما الشيوعية فتؤمن بالحرب وتدعو إليها ، وتقضي على السلم العالمي : بإنشائها وتشجيعها للشيوعية الدولية (الكومنترن) التي تحدد أهدافها في نشر الشيوعية في العالم وتحويل العمال فيه إلى شيوعيين ، وإثارة الاضطرابات والفتنة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الدول تمهيدا لثورة الطبقة العاملة وسيادة الشيوعية ، وإذا كانت هذه الشيوعية الدولية قد ألغيت عام ١٩٤٣ تقريبا للديمقراطيات ، فقد حل محلها

(١) ٦٧ الحج (٢) ٦١ الأنفال (٣) ١٢ الحجرات (٤) ١٩ يونس

(٥) ١٤ الشورى

مكتب الاستعلام الشيوعي « الكومينفورم » ، « ديموسكو » وإن تظاهرت بحل
الدولية الشيوعية لا تزال توجه الحركات الشيوعية في جميع أنحاء العالم (١) ، ولا
يترك ستالين في كتابه « مشا كل الليفينية » ، أثرا للشك في اعتقاده الذي لا يتزعزع
في أن من حق روسيا بل من واجبها المقدس أن تستخدم القوة في إشعال نار الثورة
في البلاد الأجنبية إذا ما لاحت الفرصة لاشعالها ، وجاء في مقدمة الكتاب : إن
دراسة تاريخ الحرب لتقوى الاعتقاد في النصر النهائي للهدف الجليل الذي عمل له
لينين وستالين وهو انتصار الشيوعية في العالم كله (٢)

وهذه الافكار كلها تهدم صرح السلام العالمي ، وتناقض ما يؤمن به الاسلام
ويدعو اليه ، والاسلام يحرم أن توجد علاقات دولية قائمة على غير المحبة والتعاون
الانساني ، ويحارب بذر الشقاق بين الأمم ، ويعادى اللصوصية المستترة ، والجناسوسية
المنخفية ، والتمرد على النظام العام في الجماعات والشعوب .

فأين هذا السمو في الفلسفات القديمة والحديثة على السواء ؟ لقد كان أرسطو
وأفلاطون يقرران أن العلاقة بين الدول هي علاقة العداء والمنافسة ، ويقرر أرسطو
أن غير اليونانيين أعداء خارجون على القانون ، وإخضاعهم واجب سياسي ، فأين
هذا من سماحة الاسلام وجلال مبادئه وأهدافه ؟

(١) ٦٤٢ أثرت الحرية الكرافتشنسكو

(٢) ٦٤٨ المرجع

السّر في قيام الإسلام

إن السّر في قيام الشيوعية وظهورها هو هذا الخداع الغريب الماكر المذموم
تترامى فيه للفقراء والمحرومين والطبقات المظلومة في مظهر المنقذ المختار لنشر الغنى
والسعادة بين الناس ، وما تؤمن به الشيوعية من صراع الطبقات ، وعملها في بيئة
كانت المرتع الخصب لها ، والظروف الدولية التي كانت تحيط بالعالم عقب الحرب
الكبرى ، وطغيان زعماء الشيوعية طغياناً لم يعرف له نظير ، مما ظهر في المجازر البشرية
القاسية وعدد الضحايا الهائل لها في روسيا ، وسجون الاعتقال ، والتشريد والنفي
إلى مجاهل سيبيريا ، والبطش بخصوصها في الرأى ، والتنكيل بمعارضيهما في الفكرة ،
والقضاء على الطبقات المعارضة لها في بلادها ، وأخيراً هذه الشيوعية الدولية التي
يؤيدها الذهب والدعاية والنفوذ

وهذه كلها وسائل لا يؤمن بها دين ، ولا يقبلها ضمير ، ولا يوافق عليها عقل ،
وما أضل عقول الجماهير الجاهلة التي تفهم أن الشيوعية تدعو بنفسها لنفسها لأنها
حلم الساعة .

أما الإسلام فعلى العكس من ذلك ، وأمره في قيامه وفي ذبوعه في العالم على
العكس من ذلك .

لم يكن الإسلام ثورة ولم يدع اليها ولم يكن خطه على حرب العصابات وصراع
الطبقات ، ولم يخدع محمد المحرومين ، ولم يدع إلى مبادئ تافهة يعجز عن تنفيذها
، ولم يؤيده ذهب ولا فضة ولا نفوذ أو سلطان ولا جاسوسية أو لصوصية . إنما
كان الإسلام رسالة إلهية للإصلاح ، وهى رسالة الحرية والاخاء والمساواة والعدالة
الدينية ، والعلم إلى العالم كافة والبشرية بجميع طبقاتها : ولم يكن السّر في قيامه وانتشاره
لألا حواه من مبادئ الحق والقوة والخير والجمال (١)

(١) راجع كتاب السّر في انتشار الإسلام - محمد عرفة - ط ١٩٣١ ، وراجع ٢١٧
رسالة التوحيد لمحمد عبده - ط ١٣٦١

لقد جمع الاسلام اليه الامة العربية من أدناها إلى أقصاها في أقل من اثنين
سنة ، وتناول من بقية الأمم ما بين المحيط العربي وجدار الصين في أقل من قرن
واحد ، وكان قيامه في الجزيرة العربية أثرا للدعوة اليه واقتناع العرب به ، اذ لم
يفرض عليهم بقوة السلاح ، ولا بتأييد من عصبية أو سلطان .

ولم تكن حروب محمد وخلفائه إلا دفاعا عن حرية العقيدة التي كان الشرك يريد
القضاء عليها ، وعلى نور الله الذي انبثق من الصحراء على يدى محمد . وكانت
مبادئ الاسلام نفسها ، وروح العدالة المطلقة والاخاء والمساواة التي سادت
المسلمين الاولين يا يحياء قوى من دينهم ، هي السبب الاكبر في انتشاره : لقد دعا
الاسلام بنفسه لنفسه ، ولم يؤمر محمد بشيء إلا بالدعاية لرسالته « وادع إلى ربك
إنك لعلى هدى مستقيم (١) » ، ويحق الله الحق بكلمته ، ويأبى الله الا أن يتم
نوره ، ولو كره الكافرون .

الديمقراطية

بين الاسلام والشيوعية

- ١ -

تصريف شؤون الدولة على أساس نظام نيابي صحيح ، أو حكومة الشعب للشعب ، أو تكافؤ الفرص ، هو الديمقراطية التي لا يتحقق لها وجود إلا بالمساواة التامة بين الناس ، والاعتراف الكامل بحقوق الإنسان ورعايتها ، والايان بالحرية الفردية ، وبأن الدولة وجدت من أجل الفرد ، وبضرورة إنماء شخصية الانسان في الحياة .

والديمقراطية لا وجود لها في المجتمع الشيوعي ، فالحرية مصادرة ، والمساواة معدومة ، حتى في الاقتصاد وأجور العمال ، واستبداد الدولة الجائر بالفرد لا حد له ، والحكومة تسير على النظام الفردي الاستبدادي (١) ، ولست تجد هناك مجتمعاً عمالياً ، حتى ولا ديمقراطية اقتصادية (٢) .

أما في الاسلام فالامر على النقيض : حرية ومساواة وعدل بين الناس والحكومة شورية دستورية أساسها مشيئة الشعوب ، والحاكم مسئول عن أعماله ، وحقوق الانسان في الحياة والحرية والامن والتعليم والتامين الاجتماعي وسوى ذلك مصونة ... إن الاسلام يؤمن بمبدأ حكم القانون ، وبحكم الشعب للشعب ، وبأن الحكومة وجدت لخدمة الفرد وللعمل على رفاهيته ، وبالحرية الاقتصادية . روحه التسامح وحرية الرأي للأفراد والجماعات ، ومحاربة شتى ألوان التمييز بين الناس .. وذلك هو أساس الديمقراطية الحققة .

(١) ٢٣٣ الدستور السوفييتي (٢) ٨٠ آثرت الحرية

والحرية - وهي دعامة الديمقراطية والحياة الانسانية المتحضرة - ليس لها قيمة كبيرة عند الشيوعيين ، لأنها في رأيهم تلهي الجماعات عن الالتفات إلى الظلم الاقتصادي (١) ، الشيوعية تحاول تحقيق المساواة المزعومة بإلغاء حرية الانسان ، فهي لكي تطعم الفرد تسلبه حريته

حرية الفكر معدومة ، فالناس يفكرون على النمط الذي يعجب الحزب الشيوعي ، وليس هناك مجال لتفكير مستقل . وحرية الصحافة والنشر مقيدة ، ولا يباح دخول صحيفة أو كتاب أجنبي معاد في فكرته للشيوعية (٢) . والحرية السياسية مفقودة ، إذ ليس هناك إلا حزب واحد وحكم واحد وانتخابات صورية لا تنافس فيها . . والحرية الدينية معطلة . .

والحرية الاقتصادية لا وجود لها ، فالمصانع والمزارع وأدوات الانتاج ومرافق الثروة ملك للدولة ، والفرد أجير عندها نظير إقطاعه ، لأرأسمالية ولكن هناك الرأسمالي الأكبر الذي لا يقاوم وهو الدولة ، مما ينعقد معه التنافس الاقتصادي الذي هو أساس الحرية الاقتصادية ..

والحرية الشخصية محجور عليها ، لأن الحزب الشيوعي يهيمن على حريات الناس ، وسلطان البوليس السري لاحدله ، وللقاضي أن يحكم بأعدام من يرى أنه خطر على الأمن العام ولو لم تقم الأدلة على ذلك ، والعامل في المصنع لا يملك أية حرية ، وعليه أن يعمل ، لأن من لا يعمل لا يأكل ، وفي عام ١٩٣٠ صدر قانون ربط العمال بمصانعهم ، ومنعهم من مغادرة مكن عملهم إلا بإذن خاص ، وبعد ذلك بعامين صدر قانون بطرد العمال الذين يتأخرون عن العمل ولو يوما واحدا دون سبب كاف (١) . وجاء في قانون ١٩٣٩ للعمل أنه إذا تأخر العامل عن عمله أكثر من عشرين دقيقة فإنه يقدم إلى النيابة المحلية ويحاكم ، فإذا أدين حكم عليه بالسجن أو السخرة (٢) ، ونهض على عقوبة الذين يتسترون على مجرمي التأخير ، ويجب على الفرد الحصول على إذن خاص لقضاء إجازة ولو يوما واحدا بعيدا عن بيته ، والرحلة خارج البلاد

(١) ١١٩ المذاهب السياسية المعاصرة (٢) ٩٤ الشيوعية في الميزان

(١) ٩٨ الشيوعية في الميزان

منوعة ولا يصرح بها إلا للبعوثين في مهمة رسمية ، وفرض عام ١٩٣٢ نظام البطاقات الشخصية التي تتضمن شتى المعلومات عن كافة الشئون التي يهم البوليس السياسي معرفتها عن الفرد ، والستار الحديدي مطبق حول البلاد التي تدين بالشيوعية ، والشعب في عزلة تامة . وقد قام الشيوعيون في روسيا بحركات تطهير عامة كثيرة ، لا بادة خصوصهم في الرأي ، وذهبوا بزعماء ومفكرين وكتاب إلى مجاهل سبيريا وسجون الأورال ومعقلاتها ، والى تعرف كيف يعامل الشيوعيون معارضتهم في الرأي ، أقرأ ما يقول دافيدج تيقوليفسكى في كتابه «لاشى» سوى سلاسلهم : « إن في روسيا اليوم ١٤ مليوناً من العبيد فرضت عليهم السخرة ، ويعيشون في حظائر تحيط بها حواجز تعلوها الأسلاك الشائكة ، ويحرسها مائة يرا بطون في أبراج مزودة بالأنوار الكشاف القوية ، وأسراب من الكلاب لمطاردة الفارين من الأرقاء ، وهم يؤدون أشق الأعمال وأخشنها وأفدحها ، وهؤلاء من الذين يعارضون الشيوعية أو ينقدونها أو يشبه في أمرهم ، ومن رجال الدين الذين يعرفون دعوة الإلحاد .. (١) - وما أصدق ما يقول أندريه جيد : إن الشيوعية لا تؤمن بشئ . اسمه الحق

فأين هذا من حماية الإسلام للحريات ، وإطلاقه لها وتحريمه الحجر عليها : حرية الفكر والرأي ، وحرية التصرف والعمل ، والحرية الشخصية والحريات العامة ، وحرية الاجتماع والخطابة ، والحرية الثقافية والسياسية والدينية ، كل هذه الحريات قد قررها ودعا إليها وحماها الإسلام وكتابه الكريم ، وأبطل الإسلام الحكم الاستبدادي ، وأن الحاكم أو الدولة ظل الله الأرض ، وليس للحاكم فيه أكثر مما للحكوم . يقول عمر لعامل له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ويقول : من رأى منكم في أعوجاجاً فليقومه ، إن رأيتموني على باطل فقوموني ، ويقول الرسول : الإمام راع ومستول عن رعيته .

ولقد حرر الإسلام الإنسان من الجهل والجنود والفاقة ، وحرر المرأة من جور الرجل ، وسواها به في الحقوق والواجبات ، ودعا إلى تحرير الأرقاء ورفعهم إلى منزلة السادة ، وحرر الطبقات من طغیان المستبدين ، وحرر الروح الإنساني من الشهوات والترف والمادة .. إنه بحق دين الحرية والكرامة الإنسانية في الحياة .

(١) ٩٨ الشيوعية في الميراث

والمساواة ركن من أركان الديمقراطية ، والشيوعية تزعم أنها تؤمن بالمساواة وتطبقها ، وتتخذ من ذلك وسيلة ادعائها الجوفاء ، وتسرف فتدعى أنها تحقق للإنسان المساواة الاقتصادية ، ولعل كلام ستالين في خصومه عام ١٩٣٤ خير رد على ذلك ، قال : إن هؤلاء القوم يحسبون أن الشيوعية تستلزم المساواة في مطالب العيش لكل فرد في المجتمع ، ألا ما أسخفه من رأى يخرج عن فكر مشنت ، وإن المساواة التي نادوا بها هي التي أضرت بصناعتنا أكبر الأضرار ، ... وبينما كانت الشيوعية تعمل لإلغاء الطبقات والمساواة في الأجور ، إذا نحن نرى اليوم في روسيا عدة طبقات متفاوتة الدخل ، وهي طبقة المفكرين وعددها نحو ١٣ ٪ من السكان ولها نحو ٣٢ ٪ من دخل الدولة ، وطبقة الصناع وعددها ٢٤ ٪ ولها من الدخل القومى ٣٢ ٪ ، وطبقة الزراع وعددها ٥٤ ٪ ولها ٣٣ ٪ من الدخل ، وطبقة المسخرين الذين لم يرضوا عن الشيوعية وعددها ٩ ٪ ولها في الدخل ٣ ٪ . أما المساواة الاجتماعية فتتلاشى هناك رويداً رويداً ، فقد فرضت الترقية العسكرية وأعيدت الرتب في الجيش ، وأعيد لقب وزير ومجلس وزراء ، وزادت القاب ستالين وخلفاؤه . وسيطرة طبقة واحدة هي طبقة العمال على سائر طبقات المجتمع تفنيد لآرائهم النظرية في المساواة .

أما المساواة في الاسلام فحدث عنها ولا حرج ، مساواة كاملة بين الناس جميعاً ، بين المرأة والرجل ، والصغير والكبير ، والمحكوم والحاكم ، بين جميع الطبقات والجماعات بين الأغنياء والفقراء ، مساواة يحميها الاسلام وكتابه ورسوله وخلفاؤه ولا تعرف أى لون من ألوان التمييز بين الناس ، حتى لقد كان الخليفة عمر يمشى وعنده معه راكب ، وولى رسول بلالا الحبشى على المدينة وفيها سادات الأنصار والمهاجرين وأسند إلى مهران الفارسي ولاية اليمن ، وقال : ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ؛ وأذن الخليفة عمر لصهيب وبلال وسواهما من عامة الموالى بالدخول عليه قبل سادة قريش ، وألغى الاسلام الفوارق والامتيازات ، ووزع الحقوق والواجبات على الأفراد على السواء ، وصار الحاكم والمحكوم جميعاً على قدم المساواة في المسئوليات والالتزامات ، ويؤيد مبدأ المساواة في الاسلام عدالة اجتماعية قوية أيدها ودعا إليها ، وتقوم على الأخوة

والتكافل العام ، وأساسها التحرر والوجداني ، وتتخذ من الضمير البشري والتشريع القانوني وسائل لتحقيقها وإذاعتها بين الناس . فأين هذا من الفلسفات الحديثة التي تتنكر لمبدأ المساواة ؟

— ٤ —

والشيوعية — التي تنزل خصومها في الرأي منزلة العبيد ، وتحبذ الثورة وصراع الطبقات ، وتعمل على إثارة القلق والاضطراب في الجماعات والشعوب — لا تعرف معنى الاخاء ، فإين هذا من الاسلام الذي أكد الاخوة الانسانية ، والغنى نظام الطبقات والعنصرية الكاذبة والعصبية الحقاء ، وجعل المؤمنين إخوة في الدين ، والناس جميعاً إخوة في الانسانية ، حتى الخدم جعلهم الرسول إخوان الخدمين فقال « إخوانكم خولكم .. كل هذا في عصر كان يرى - كما يرى أرسطو وأفلاطون من قبل - حرمان الموالى والصناع من الحقوق المدنية لانحطاط ما يمارسون من مهنة ، وكما رأى أرسطو من أن الله اوجد البرابرة ليعيشوا أرقاء ، وسلب ثروتهم من الأعمال الشريفة .

كل هذا دليل على أن الاسلام أثبت قدماً في الديمقراطية ، وأصلح مذهباً وأعدل رأياً فيها ، وأقوم سبيلاً إلى الإصلاح العام ، وأنه ما من دين أو مذهب يبلغ في ذلك الباب ما بلغه الاسلام .

الإسلام شريعة التقدم والنهضة

حقوق الانسان في الاسلام الشيعية

حقوق الانسان عند الشيوعيين مستمدة من الجماعة ، وإرادته جزء من إرادتها ،
وليس للفرد كيان مستقل عنها

تقرر الشيوعية للانسان حق العمل ، ولسكنها تحجر على العامل وتربطه بمصنعه ،
وتمنعه من تغيير العمل والمصنع .. وقوام نظام الاجور في بلادها « الأجر بالقطعة »
الذي تنفر منه نقابات العمال في العالم .. والاسلام الذي شرع المضاربة والشركة
والمساقاة والمزارعة والاجارة وسواها من أبواب العمل ، وحمل العامل ورعاها ،
وحافظ على حرته وأجره ، وحث الناس على العمل إنما يهدف إلى القضاء على البطالة
والفقر بين الناس .

وتقرر الشيوعية حق الراحة الاسبوعية للمواطنين . ونحن نعلم أن يوم الجمعة
عيد أسبوعي للراحة والاستجمام في الاسلام ، الذي يحترم أيام الراحة كذلك
عند غير المسلمين .

وتقرر حق الضمان الاقتصادي بالحصول على تأمين مادي .. عند الشيخوخة
أو المرض ، أو العجز عن العمل ، وقد سبق المسلمون إلى تطبيقه في بلادهم منذ عهد
بعيد ، فكان عمر يصرف للفقراء مسلمين وغير مسلمين حاجتهم من بيت المال - وكان
يعتبر الاطفال عاجزين عن العمل ويفرض لكل مولود مائة درهم ، فاذا ترعرع
بلغ به مائتي درهم ، فاذا بلغ زاده ، ويجعل أجرة رضاع الطفل ونفقته من بيت المال
وكان يقسم ما في بيت المال على الناس بحسب بلائهم في الاسلام ، حتى استغنى
الناس وأبوا أخذ الصدقات ، ولم يوجد فقراء في عهد عمر بن عبد العزيز يأخذون
الزكوات ، فاشترت بهار قاب وأعتقت ، ورأى ابن الخطاب في طريقه إلى دمشق قوما

مجنون من النصارى فأمر أن يجرى عليهم القوت من بيت المال . على أن نظام
الضمان الاجتماعى لم يبلغ فى روسيا ما بلغه فى شمال أوروبا وأمريكا
وتقرر الشيوعية للإنسان حق التعليم ، وقد سبقها الإسلام إلى ذلك منذ أجيال ،
ويؤثر عن رسول الله : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، وكان التعليم
مجانياً فى شتى مراحله فى بلاد الإسلام ، مع صرف الغذاء والكساء للطلاب .
وتقرر حق المرأة فى التساوى مع الرجل وهو حق سبق به الإسلام
إن الإسلام ليحمى حق الإنسان فى الحياة والحرية والعدالة والانصاف والمساواة
والأمن وحقه فى التعليم وحقه فى الحكم الدستورى ، وفى كل جانب عادل من
جوانب الحياة .



في الاسلام والشيوعية

— ١ —

يستخدم لينين الاشتراكية والشيوعية بمعنى واحد ، أما ماركس فيطلق على نظام الانتاج الموزع — مع توزيع حصيلته وفقا لنوع وكمية العمل المنجز — المرحلة الأولى للشيوعية ، ولم يسمه بالاشتراكية ، وأطلق على النظام نفسه الذي توزع حصيلته وفقا لحاجات الأفراد المرحلة العليا للشيوعية .
والاشتراكية — اقتصاديا — تنادي بالملكية المشتركة لادوات الانتاج مع مع اعترافها بدور النقود والاجور ، شعارها : « من كل وفقا لمقدرته وإلى كل وفقا للعمل المنجز » .
أما الشيوعية نظريا فمبدؤها « من كل وفقا لمقدرته وإلى كل وفقا لحاجته » .

فالشيوعية تقول بحصول الفرد على نصيب في الانتاج طبقا لحاجته ، والاشتراكية تجعل ما يخصه جزاء على الخدمات التي يؤديها (١) . وينكر الاشتراكيون « صراع الطبقات » وفكرة الثورة كوسيلة لتحقيق مبادئهم (٢) ، من حيث يؤمن بها الشيوعيون وبمبدأ إلغاء الملكية الفردية وتأميم جميع المؤسسات ووضع أموال الأمة في يد الحكومة ، والقضاء على التجارة الداخلية ، وقيام نظام السلع مقابل بطاقة يقدمها الفرد للحصول على حاجات معيشته ، وتطبق نظام الاجور الذي وضعه لينين ، وتحسك الدولة وحدها التجارة الخارجية ، وتهيمن على النظامين النقدي والمصرفي ، وتطبق

(١) النظام الاشتراكي — راشد البراوى ١٩٥١

(٢) المرجع ١٩٨

الملكية المشتركة بمنح الفلاحين الارض على سبيل الاعارة المؤبدة يستغلونها على أساس تعاوُن ، والعمل وحده له حق الحصول على دخل . ولما فشلت الشيوعية في توزيع الاجور وفقاً للحاجة أخذت توزعها وفقاً للانتاج . . وهذه المبادئ فيها مغالاة شديدة ، مما يجعلها جوراً اقتصادياً لاحدله ، وخنقاً للحريات قاتلاً .

— ٢ —

إن الاشتراكية أنجح من الشيوعية في علاج الفقر والبطالة ، وهي تؤمن بالديموقراطية وحرية الفرد ، مما يتلاقى مع مبادئ الاسلام الكريم الذي هو دين اشتراكي حقاً ، بل هو المثل الأعلى للاشتراكية السليمة .

الاشتراكية في الاسلام هي العدل والتعاطف والتكافل الاجتماعي ، وهي الايثار والتضحية لخير الجماعة ، وهي من الناحية المعنوية تدعم الحرية الفردية ، وتؤمن بالضمير الإنساني ، ومن الجانب الاقتصادي تهدف إلى مقاومة الاستغلال في شتى صوره ، ومن الناحية السياسية تدعو إلى الديموقراطية والشورى وحرية الرأي والمساواة ، ومن الناحية الاجتماعية تقاوم الفقر وتجعل الغنى وظيفة اجتماعية تناط بها حقوق يجب أن تؤدي ويجب على الدولة أن تراقب أداءها ، ومن حيث الوسائل تنكر الثورة وصراع الطبقات وتحرص على الأمن والسلام بين الناس ، ولا تجعل الملكية والمال وسيلة للتمييز بين الناس ، وتحمي حقوق العامل والفقر والرفيق والخدام والمرأة ، وتعمل للإصلاح العام والتعاون المثمر وتقرر التأمين الاجتماعي للفقراء والعاجزين ، وتفرض الزكاة ضريبة لمحاربة الفقر ، وتحرم الربا والاستغلال والاحتكار في شتى صورته والترف والاسراف ، وتحدد من غلواء الرأسمالية ، وتكره التفاوت المادي بين الناس ، حتى لقد آخى الرسول بين الأنصار والمهاجرين ، ووزع في بني النضير على المهاجرين الفقراء ، وتوصى بالاحسان والصدقة ، وتفرض نفقة الأقارب المحتاجين على ذويهم الأثرياء القادرين على الكسب ، وتشعر نظام الوقف والوصية والقرض والهبة والوديعة والاعارة ، وتقرر فريضة الميراث ، وتنهى عن الكسب الحرام ، وتجعل الزوج مسئولاً عن زوجته والأب عن أولاده ، وتحض على العمل وعلى إيجاده ، وتحترم العامل وحقوقه وتسوى بينه وبين صاحب

العمل ، وتحافظ على الملكية الخاصة وتقيم بجانبها ملكية عامة كما في أرض الوقف والأراضي الخراجية ، ونوصي بالفقراء وبالتسكافل الاجتماعي ، يقول الرسول : أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى ، وقال ابن حزم : فرض على الأغنياء في كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم الزكوات بهم ولا في سائر أموال المسلمين ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ، ومن اللباس في الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكتفونهم ، وتسلم اشتراكية الإسلام بمبدأ الضرائب التصاعدية ، مما يظهر لك في نسب ضريبة الجزية ، وترعى صاحب الأسرة ، فقد جعل الرسول للأعزب سهماً من الغنيمة وللمتزوج سهمين (١) ، ومنع على ابن أبي طالب الحجز على الضروريات وفاء للضريبة (٢) ، وتسلم برقابة الدولة على الملكية بتقريرها مبدأ « من أين لك هذا ؟ » الذي طبقه العمران ، وأبي عمر أن يقسم أرض العراق حتى تبقى ملكاً عاماً للمسلمين . هذه هي الاشتراكية بأوسع معانيها وأصدق مدلولاتها .

(١) ١٧ الإدارة الإسلامية - كرد علي - ١٩٣٤ القاهرة

(٢) راجع ٣٨ المرجع



في الاسلام والشيوعية

- ١ -

الاشتراكية لا تدعو إلى إلغاء الملكية الفردية ، وإن كانت ترى تأمين المرافق المتصلة بالخدمات العامة (١) .

أما الشيوعية فلا تقر الملكية الفردية ، وكان ماركس يرى أنها أساس النزاع بين الطبقات ، وقد قام الشيوعيون بإلغاء الملكيات الخاصة ، وتأمين مصادر الثروة في روسيا ، ونفذوا ذلك بالقوة والعسف ، وجميع موارد الانتاج والثروة في يد الحكومة تنتج وتوزع ، فهي صاحبة المصانع والمزارع والمتاجر والمناجم ومنازل المدن ، ويمنع القانون الشيوعي امتلاك سيارة للاستغلال التجاري ، وفي المادة الخامسة من الدستور السوفييتي : الملكية الاشتراكية إما أن تأخذ شكل تملك الدولة فتكون الثروة للشعب عامة ، أو شكل الملكية التعاونية أو الجماعية . . . ومحاربة الشيوعية للملكية الفردية استتبع محاربتها للارث وتحريمها له .

إن مبدأ إلغاء الملكية الفردية إلغاء تاما ينافي الفطرة الانسانية ، وغريزة التملك في الانسان ، ويدعو إلى الخمول والكسل ، ويخالف تعاليم جميع الأديان . وقد طبق ذلك في المجتمع الشيوعي في روسيا بقوة السلاح ، ثم أخذت الحكومة في التراجع ، فأباحت للمواطنين الامتلاك الشخصي للدخل الناتج عن عملهم ومدخراتهم ولأثاث البيوت والأمتعة والأدوات المخصصة للاستعمال الشخصي ، وأجازت للفلاح في المزرعة المشتركة أن يملك حديقة حول منزله .

(١) ٢٠٠ النظام الاشتراكي .

أما الاسلام فقد شرع وحى الملكية الفردية ، وأجاز لمن أحيا أرضاً . وائناً
بإذن الامام ولودميا أن يملكها إذا كانت بعيدة عن العامر ، على أن يعمرها خلال
ثلاث سنين ، وإلا أخذت منه ودفعت لغيره .

ولا شك أن في حماية حرية الملكية أمام الانسان تحريراً له من قيود الوصاية
الاجتماعية ، واعترافاً بشخصيته وكرامته الانسانية ، وإثارة لمواهبه الخاصة ، ودفعاً
له على تحمل مسؤوليات الحياة .

لقد بعث محمد صلوات الله عليه إلى الناس كافة ، ومعه رسالة تضيء ظلمات الحياة ،
وشريعة تقضى على الأغلال والعبودية ، وبين يديه دستور خالد يهتدى إلى النور
والحق والحرية والمساواة والعدالة والاخاء .

ولقد حرر الاسلام وكتابه الحكيم ورسوله الكريم المستضعفين في الأرض ،
ومحا الاستعباد السياسي والاجتماعي ... وقرر مسؤولية الحاكم وأنه خادم الشعب ؛
وأن لا طاعة له على أحد إذا خرج عن طاعة الله .

وقرر أن أول واجب عليه كذلك حماية دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم ؛ وألغى
الألقاب ونظام الطبقات الجائر ، وهدم الفروق الواسعة الظالمة بين الناس ، فكلهم لآدم
وآدم من تراب ؛ ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح ؛ وحرم
الترف والفساد والاستغلال والاحتكار وأكل أموال الناس بالباطل ، وجعل لكل
فقير حقاً في بيت المسال ؛ فإن لم يكن في بيت مال المسلمين ما يسد حاجات الفقراء
فحقوقهم يجب أن تؤخذ من أموال الأغنياء ؛ التي كره الله كنزها ، وأنذر من يكنزها
لأنفاقها في غير مرضاة الله بعذاب شديد : «الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها
في سبيل الله ! فبشرهم بعذاب أليم ؛ يوم يحصى عليها في نار جهنم فتسكوى بها جبابهم
وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنزتم تكنزون» . وفرض الاسلام
الخارج والجزية وزكاة الأموال لينفق منها على المساكين والفقراء ودعا إلى الورع والزهد
في مال الناس . وإلى ترك الاسراف في التملك لأنه مدعاة للترف والهلاك والخروج عن
حدود الفضيلة والعفة والدين ، وأعلن وحى مبدأ تكافؤ الفرص أمام الناس جميعاً .

كل هذه المبادئ الكريمة تنبئنا برأى الاسلام في الملكية :

فهو لا يعترف بملكية انتطعها الحاكم من مال الامة ومنحها لمن يشاء دون
حساب ، ولا يعترف بملكية آلت إلى صاحبها نهبا واستغلالاً للنفوذ أو سرقة خفية

من أملاك الدولة ، أو تحت ضغط الحاجة الملحة المصنوعة ، ولا يعترف بملكية ملكها صاحبها بمال جمعه بشتى الوسائل غير المشروعة ، دون أن يؤدى منه حقوق الله والفقراء وزكاة المال .

وكل ملكية لا يعترف بها الاسلام يجب مصادرتها وضمها إلى بيت المال ، ومن باب أولى يجوز ردها إلى الدولة عن طريق الشراء ، ليعاد توزيعها على الفقراء توزيعا عادلا . والفقراء هنا ليسوا عددا قليلا حتى لا يحسب لهم حساب ، وإنما هم الأغلبية العظمى من الشعب ، ان لم يكونوا الشعب كله ، بمن لا يجدون الغذاء والكساء وثمن الدواء .

ولقد أباح الاسلام مصادرة الأموال التي جمعها أصحابها من دماء الناس ظلما وبهتاناً ، وهذا عمر بن الخطاب قد صادر أموالا كثيرة من ولاته على الأقاليم : كعمرو بن العاص وأبي هريرة والنعمان بن عدى وعامله على اليمن وعلى مكة والكوفة والشام ، ولقد كان خلفاء المسلمين وولاتهم وعمالهم يتعففون عن مال الدولة لا يمسونه ولا يقربونه فضلا عن أن يمتلكوا أرض المسلمين ، وكان رسول الله يحاسب ولاته حسابا عسيرا ، يسألهم من أين لكم هذا ؟ وولى مرة رجلا على أموال الزكاة ، فلما رجع حاسبه فقال الرجل : هذا لكم وهذا أهدي إلى ، فقال الرسول الكريم : ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله فيقول : هذا لكم وهذا أهدي إلى ، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر أهدي إليه أم لا ؟

وهذا عمر بن عبد العزيز لما ولى خلافة المسلمين نزل عن أملاكه التي انتقلت إليه من أبيه بالإرث الشرعى ، ومزق كتب الاقطاعات بالضيايع والنواحى ، وأبطل قطائع أهله وهم أولاد الخلفاء من بنى أمية وضمها إلى بيت المال ، ومزق مامعهم من وثائق بملكيته . وكان أبوه عبد العزيز وإلى مصر للخليفة عبد الملك بن مروان ، فأهداه الخليفة أرض حلوان اقطاعا ، فلما ولى ابنه عمر بن عبد العزيز الخلافة قدم مصرى عليه يطالبه برد أرضه التي أخذها أبوه منه ظلما في حلوان ، فقال عمر : تعال نحتكم إلى قاض من قضاة المسلمين ليحكم بيننا بما أنزل الله فان لى فيها شركاء اخوة وأخوات لا يرضون أن أقضى فيها بغير قضاء قاض ، وقام معه إلى القاضى فقعد الخليفة بين يديه ، وتسكلم بحجته وتسكلم المصرى ، فقضى القاضى للمصرى على الخليفة ، فقال

عمر بن عبد العزيز : قد أنفق عليها الف الف درهم ، فقال القاضي : لقد أكلتم من غلتها بقدر هذا ، فاطمأت نفس عمرو ، قال : وهل القضاء إلا هذا ؟ والله لو قضيت لي ماوليت لي عملا .

وهناك كثير من الملكيات قد امتسكت من الفلاحين الفقراء المدينين بطريق المزايدة ، وهو ملك فيه إثم وشبهه ، ولقد كان علي بن أبي طالب وهو خليفة المسلمين ينهى عماله أن يبيعوا حاجيات الفلاح وأدوات زراعته وما يعيش عليه هو وأولاده لسداد ما عليه من دين أوخراج .

هذا حديث الملكيات التي يجب أن تصادر في رأى الاسلام ، أما الملكيات الكبيرة الأخرى التي قد تتجاوز فيقول قائلنا : إنها ملكت بطرق مشروعة لا دخل فيها للاستغلال ولا لمجاملة الأقوياء ، فإن ردها الى الدولة لتوزعها على الشعب وإن لم يكن واجبا لكنه جائز بحكم الدين ، فإن الله تعالى قد كره أن تكون الأموال ومصادر الثروة في أيدي طبقة خاصة من الشعب ، وهم الأغنياء وحدهم دون الفقراء . أفلا ترى إلى قوله تعالى : د ما أقام الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، فنظام الثراء الفاحش والفقر الشديد لا يقره الاسلام شريعة المدنية المهذبة والانسانية الرفيعة .. إن الاسلام لا يبيح إثراء أفراد بافقار أمة ، ولا اسراف طائفة في التملك باشقاء مجتمع بأسره ، بل انه يحجز الحجر على الأقوياء حتى لا يسرفوا في تملك الأرض ، فهذا عمر بن الخطاب يحجر على أعلام قريش من المهاجرين ، حتى لا يخرجوا إلى البلاد المفتوحة يمتلكون أرضها دون الناس ، وكان يقول : د ألا وان قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباد ، ألافأما وابن الخطاب حتى فلا ، .. وهذا معناه الواضح تحديد الملكية

ويؤثر عن جابر بن عبد الله حديث ينص بصراحة تامة على ان مالك الأرض إما أن يزرعها بنفسه . وإما أن يتنازل عنها ولو بالهبة غيره من الناس ، قال جابر : كان لرجال منا فضل أرض ، فقالوا نؤاجرها بالثلث أو الربع أو النصف ، فقال الرسول ﷺ : د من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه ،

أى ليزرعها بنفسه أو ليتنازل عنها ولو بالهبة لآخيه المسلم ، ولا يعطيها إياه مؤاجرة لأن ذلك مظهر للتعاون بين المسلمين .

إن الاسلام يقر مبدأ تحديد الملكية ، ليعيش المجتمع كافة بنعمة الله اخوانا . وليتعاون الفقراء والاغنياء على خير الامة وسعادتها ومجدها ، ولتتقارب الطبقات ، وتزول الفروق الواسعة بين الناس ، ويمحى من بيننا الفقر والجوع والعري ، وليشعر الفلاح والعامل الزراعى بأنهما كغيرهما من الناس ، لهما الكرامة والحرية والحياة الطيبة الرغيدة ، وأن الحكومة التى تقوم عن شئون الشعب تحرص على توزيع العدالة الاجتماعية بين المواطنين كافة دون تمييز أو استثناء . وما أصدق ما يقول الرسول الكريم : « أيما أهل عرصة - أى محلة - أصبح فيهم امرؤ جائعا ، فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ...

- ٣ -

وتقول لجنة الفتوى بالأزهر : « إن من مبادئ الدين الإسلامى احترام الملكية ، وإن لكل امرئ أن يتخذ من الوسائل والسبل المشروعة لاكتساب المال ، وتنمية ما يحبه ويستطيعه ، ويتملك بهذه السبل ما يشاء .. هذا وقد ذهب جمهور الصحابة وغيرهم من الفقهاء المجتهدين إلى أنه لا يجب فى مال الاغنياء إلا ما أوجبه الله من الزكاة والخراج والتنفقات الواجبة بسبب الزوجة أو القرابة أو ما يكون لعوارض مؤقتة وأسباب خاصة كإغاثة مملوف وإطعام جائع مضطر ، وكالكفارات ، وما يتخذ من العدة للدفاع عن الاوطان وحفظ النظام إذا كان مافى بيت مال المسلمين لا يكفى لهذا ، وكسائر المصالح العامة المشروعة .. هذا هو الواجب ، غير أن الاسلام يدعو كل قادر من المسلمين أن يتطوع بما شاء من ماله ، يصرفه فى وجوه البر والخير ، ... وذهب أبوذر إلى أنه يجب على كل شخص أن يدفع ما فضل عن حاجته من مال بمجموع عنده فى سبيل الله أى فى البر والخير ، وأنه يحرم ادخار ما زاد عن حاجته ونفقة عياله ..

ويقول المغفور له الشيخ الشناوى شيخ الأزهر الأسبق (١) : القرآن الكريم قد أحترم الملكية الفردية وصانها ونظم انتقالها إلى الأبناء والمستحقين ، وفصل

(١) من حديث له مع صحفى أمريكى - مجلة الأزهر المجلد العشرون ١٣٦٨

القول في قواعد المواريث وتحديد الأنصبة فيما تركه الوالدان والأقربون ، قل منه
أو أكثر . وفي بيان الوصية التي للمالك في ماله لمن شاء .. بما يدل الدلالة الواضحة على
حق الملكية لكل مالك وانتقال هذا الحق من بعده الى وريثه من أبنائه وأقربائه .
ولقد حمى الاسلام حرية التملك ودعا إلى احترامها ، فلكل فرد أن يقتنى من المال
ما تمكنه من اقتنائه السبل المشروعة ، وليس عليه وراء ذلك إلا أن يؤدي الزكاة ،
وله أن يتصرف في هذه الأموال بما يراه وتبقى بعده تركته لورثته ، وحكم الاسلام
فيمن يتأخر عن دفع الزكاة أو يرفضها معلوم وهو أخذه بتأدية هذه الفريضة بالتبليغ
والدعوة إليها ، وإلا صودرت أموالهم بمقدار هذا النصيب المفروض ،

ويقول الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر الأسبق (١) : « الاسلام لا يتعرض
للملكيات ولا يحدد منها ، بل يفرض على هذه الملكيات للدولة من الحقوق المالية
ما يراه كفيلا بقيام بيت المال لرعاية مصالح الدولة وحقوق للشعب ،



في ظل الاسلام والشيوعية

- ١ -

للمرأة في النظام الشيوعي حقوق مساوية لحقوق الرجل في كافة ميادين الحياة العامة : الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية ، لها ماله من حقوق ، وعليها ما عليه من التزامات ، فهي مجبرة على العمل لتأكل ، لأن « من لا يعمل لا يأكل » ، وهي على قدم المساواة معه في المنزل وخارجه ، ولها مطلق الحرية في سلوكها الشخصي دون رقابة الزوج ، وتعمل في المزارع والمصانع ، وهي نائبة وموظفة والزواج سهل ميسور ، يكفي أن يقيّد الزوجان اسميهما في سجلات الزواج المدنية ، وهما يعملان في الصباح ، وتسلم الأم أولادها إلى ملاجئ الطفولة ، وعند عودتها للمنزل مساء تأخذهم معها ، ويشترك الزوجان في شئون المنزل ، ولها إجازتها من العمل قبل الوضع وبعده ، ولكل منهما حرية الانفصال عن الآخر متى شاء . وكل فتى راشد أو فتاة : مسئول عن نفسه ، لا يعتمد في معاشه على أحد ، يقبض أجره ويتصرف فيه ، وله أن يحمل اسم أمه أو اسم أبيه أو يستقل باسمه .

- ٢ -

هذا هو منطق الشيوعية ، أما الاسلام فأرؤه في الأسرة مثل أعلى في الإصلاح .

فقد كفّل للمرأة جميع الحقوق المدنية والمالية والاجتماعية ، وأطلق لها حرية الرأي والتعبير والحرية في التعلم والتعليم وخدمة المجتمع وقرر حريتها الشخصية وكيانها المعنوي ، وساواها بالرجل في الحقوق والواجبات ، والاسلام يجيز اشتراكها في الشئون العامة ، وأن تشير وتستشار فيها ، وإن كان لا يخصها لذلك

وحده حفظا للانوثة وواجباتها .. وقد حرم الاسلام ألوانا كثيرة من رق المرأة كالزنا والبغاء ، وجعل صلتها بالرجل قائمة برباط مقدس هو الزواج ، الذي لا يتم إلا برضاها ، وجعلها راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته ، وأوجب معاشرتها بالمعروف ، وجعل مهمتها الأساسية هي رعاية المنزل وتربية الأبناء والتعاون مع الرجل في الحياة .. ونفقة المرأة على أبيها أو ولي أمرها قبل الزواج ، وعلى زوجها بعده غنية كانت أو فقيرة ، فان لم يكن لها عائل فنفقته من بيت المال .. ولها مهرها ، وحقها في الميراث اللاتي نصف الذكر .. وقيد إباحة تعدد الزوجات والطلاق بقيود شديدة لأهداف اجتماعية سامية .

وآراء الاسلام في المرأة والأسرة تنافي ما تذهب اليه الشيوعية ، فهو لا يبيح خروج المرأة للعمل لأن مملكتها البيت ، وهي ليست مسئولة عن معاشها في نظر الاسلام ، وهو يجعل الزوج رقيبا على سلوكها ، ويعهد اليها - لا إلى دور الحضنة - بتربية الأطفال ، ويخلق من الأسرة وحدة اجتماعية سليمة قوية . وآراؤه في ذلك تتفق والعقل والدين والفطرة الانسانية وأصول الاجتماع .

البَابُ الثَّانِي

محمد رسول الله الى الناس كافة



وبشـارته بمحمد

كان إبراهيم عليه السلام رجلاً ، وكان بطلاً ، وكان صديقاً نبياً ، وكان أمة وحده
وكان مثلاً أعلى في قوة العقيدة ، وعظمة اليقين وجلال التضحية وطول الجهاد في
سبيل الله والتوحيد والدين الحق ، دين الهدى والنور ، وشرعة السماء البارة بالارض
وبالإنسانية جميعها ، وليس هناك أروع من وصف الذكر الحكيم له : «إن إبراهيم
كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ، شاكراً لأنعمه ، اجتناباً وهداه إلى صراط
مستقيم ، وآتيناه في الدين حُسْنَةً ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين » ، ويؤكد الذكر
الحكيم مكانته عند الله فيقول : «واقدا صطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ،
إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » ، ويصفه الله جل جلاله في آية أخرى
فيقول . «إنه من عبادنا المؤمنين » وفي آية أخرى يقول الله عز وجل . «واتخذ الله
إبراهيم خليلاً » .

وهذا أعظم ما يصل إليه بشر ، ويتطالع إليه إنسان ، ويسمو إليه بآيمانه وأعماله
مؤمن كريم .. سلام على إبراهيم ، لقد وقف في ظلمات الحياة وضلال البشرية ،
وانحرف الناس عن كلمة التوحيد والحق يعيد للارض صلتها بالسماء ، ويبعث في
النفوس معاني السمو بالنفس والترفع عن عبادة الأوثان والتحرر من قيود الشرك
والآهواء ، ويوقظ روح الإنسانية الوسطى التي تاهت في مجاهل الحياة ويبداء الأوهام ،
فنطق بكلمة الحق والناس غافلون ، ونادى بدعوة الخير وهم لاهون ، ورفع منارة
التوحيد عالية بعد أن جاهد جهاد الأبطال .

كان إبراهيم من سلالة الأنبياء المطهرين ، من ذرية آدم ونوح ، وكان يرث هذا
النور الأبدي الخالد ، نور السماء الذي أشرق على الأرض أحياناً ثم انطفأ ، ونشأ

تعالو وجهه سمات الشخصية الفذة والبطولة المرجاة والنبوة المرتقبة .
وعاش في الحياة ملكا كريما بأخلاقه وآدابه وشيمه وإبائه وطموحه ، وحبه للخير
وعمله له ما استطاع .

ولكنه كان في شقاء بعيد بقومه وبالناس جميعاً ، يتلفت فلا يرى إلا ضللاً وشركاً
وآثاماً ، وأهواء مجابة وأوثاناً معبودة ، وانحرافاً تاماً عن دعوة الحق وتراث النبيين
من قبل : آدم ونوح .

كان يحب أن يرى الإنسانية تسير بل تطير إلى غاياتها المنشودة في الحياة الفاضلة
السكرية ، وفي العقيدة الكاملة المثلى : عقيدة التوحيد والإيمان بالله ، ولكنه لم ير
إلا الاثم والوثنية والشر والشرك ، وكلية الشيطان المستجابة المحبوبة من دون كلمة
الله ، فشقى بحياة الناس وبأهوائهم وضلالاتهم وجنح هو إلى التفكير الطويل في
الدين والقوة العظيمة المسيرة للحياة وفي مصير الإنسانية وحاضرها الذليل ، ومستقبلها
المرموق

رأى والده «آزر» عاكفاً هو وقومه على عبادة الأصنام فلامه وضلله ، «وإذا قال
إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ، إني أراك وقومك في ضلال مبين» ، لأنه كان
يؤمن بإيماناً ثابتاً أن لا إله إلا الله ، وأنه لا يستحق العبادة من دونه شيء .

ولا عجب فقد رباه الله على العقيدة الصحيحة ، ونشأ على الإيمان الحق ، وغرس
في نفسه كلمة التوحيد المطلق ، وفطره الفطرة الكاملة ، التي فطر الناس عليها .

وكان إبراهيم يفكر تفكيراً طويلاً في الدين بعقله ، وكان عقله دائماً يرشده إلى هذه
الحقيقة الثابتة الخالدة : حقيقة الإيمان بالله وحده ، بل كان يرجع من تفكيره أكثر
إيماناً ويقيناً بالله .

ورأى الكواكب في السماء ، والقمر يملأ بنوره الفضي الجميل السكون في الليل
البهيم ، ورأى الشمس بازغة تمنح الوجود الحياة والنور وكل مقومات الحياة ، فقال لعقله :
ولم لا تكون هذه المظاهر الكونية العظيمة هي آلهة السكون ، ورب الحياة ؟ لكنه
رأى الكواكب تغيب ، والقمر يأفل ، والشمس تحتجب عن العيون وقت الغروب ،
ومن ثم أرشده عقله ، إلى أنها لا تصلح أن تكون آلهة معبودة . فنطق إبراهيم بهذه
الكلمة الرائعة : «إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من
المشركين» .

وأمن إبراهيم بنظرية إحياء الموتى إيماناً صادقاً حقاً ، ولكنه أراد أن يرى هذه الحقيقة بعيني رأسه ، ليطمئن قلبه ، فدعاه به : « رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ قال : أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال : نخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله عزيز حكيم .
وبلغ إبراهيم مبلغ الرجولة الكاملة ، والانسانية العظيمة المصطفاة ، فأرسله الله جل جلاله رسولا إلى قومه ، ليهديهم إلى الله وإلى الحق وإلى طريق مستقيم .

« قال لآييه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ، يا أبت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ، ولكن والده لج في ضلاله ، واستمر على غوايته ، وقال لابنه إبراهيم : « ان لم تنته لأرجمنك ، واهجرني مليا » .

ثم دعا قومه طويلا إلى الله وإلى الحق وإلى شريعة الأنبياء ، وكلية السماء ولكنهم لجوا وضلوا وغرورا وأصرورا واستكبروا استكبارا .

قال لهم : اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لك إن كنتم تعلمون ، إنما تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون إفكا .. وقال لهم : انني براء مما تعبدون » .

وجاد لهم في أصنامهم طويلا حتى إذا يش منها ومنهم ، قال لهم في حرارة العقيدة وعظمة النفس المؤمنة بالله : « أفرايتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فانهم عدولى لإلارب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقئ ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميمتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

وأرشدهم إلى إلههم الحق ، وأنه رب السموات والأرض الذى فطرهن .

حتى إذا يش من أن يستجيب قومه لكلمة الحق ؛ ذهب الى بيت الآلهة الذى نصبت فيه هذه التماثيل والآوثن فحطمها وكسرها ، وجعلهم جذاذاً الا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون » .

وأصبح القوم ، وشاهدوا مصرع الآلهة ، فأيقنوا أن إبراهيم هو الذى حطمها ، وفعل بها هذه الفعلة النكراء ، ومن غير إبراهيم يجرؤ على الآلهة هذا الاجترار العظيم ؟ فاعتقلوه وحاكموه ، وقرروا أن يعدموه حرقاً بالنار ، ولكن الله أوحى إلى النار أن لا تحرق هذا الجسم الطهور ، قلنا : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرين » .

نجاه الله فخرج من أرض قومه مهاجراً : « إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين »
وأقام بالشام يدعو الناس إلى الله ، ويهديهم إلى الحق والإيمان والعقيدة المثلى ،
وطفق يبلخ الرسالة ويؤدى الأمانة فى قوة ويقين وجهاد فى سبيل الله ، ويبشر
برسول يأتى من بعد اسمه أحمد ..

وهبه الله إسحاق ، وذرية صالحة كريمة ، ومن قبل منحه إسماعيل ، الذى
سمى به استجابة لداعى الله إلى الحجاز ، وأقام إسماعيل مع بعض القبائل العربية
حول مكة ، وتفجرت له عين كريمة من الماء هى عين زمزم . وأخذ قلب إبراهيم
الكبير يرفرف بعطفه على ولده إسماعيل ، فابتهل إلى الله أن يجعل موضع إسماعيل
كعبة للناس : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا
ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ، لعلمهم
يشكرون » .

وأخذ إبراهيم وإسماعيل يعبدان بناء البيت الحرام ، ويطهرانه للطائفتين
والعاكفين والركع السجود ، « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ،
ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة
مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث
فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم إنك أنت
العزى الحكيم » .. كما أخذ يؤذن فى الناس بالحج إلى هذا المكان الطاهر الكريم ،
« وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » .

وإسماعيل وهو الابن البار ، والشاب المحبوب ، وفلذة كبذ أبيه ، صمم إبراهيم
أن يضحي به وهو صغير استجابة لكلمة رآها فى المنام .

قال له إبراهيم : « يا بني انى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ، قال يا أبت
افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » .

استجاب الابن والاب لداعى الله « فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم
قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه
بذبح عظيم » .

أى عقيدة بلغت من القوة والسمو واليقين هذا المبلغ العظيم ، الذى بلغته
العقيدة فى نفس إبراهيم ؟

وهكذا عاش إبراهيم معاش مؤمناً قوى الايمان ، مجاهداً في سبيل إيمانه ،
مشرداً عن وطنه ، داعياً الى التوحيد المطلق ودين الانسانية الملهمة ، وكلمة السماء
الهادية للأرض ومن فيها .

وبعد فلقد وسع قلب إبراهيم الكبير كل معاني الخير والرحمة ، والبر والحنان
والانسانية الكريمة ، كما وسع كلمة الحق والصدق والعقيدة والايمان .

أشفق على أبيه أن تمسه النار ، فدعاه وحذره فأبى واستكبر ، فاخذ يدعو الله له
أن ينقذه من عذاب الجحيم ، قال له : « ساستغفر لك ربى انه كان بى حفياء ، ولسكنه
حنان الابناء و وفاؤهم الآباء ، ولاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ » ، ثم
أخذ يضرع الى ربه : « واغفر لأبى إنه كان من الضالين » ، « رب اغفرلى ولوالدى
والمؤمنين يوم يقوم الحساب » ، ولكن الله لا يرحم مشركاً : « وما كان استغفار
إبراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم
لأواه حليم » .

ثم أسكن ابنه فى الصحراء فاخذ يبتهل الى الله أن يجعل مكان إقامته بلداً آمناً
وأن يرزقه وأهله من الثمرات .

وأشفق على قومه فنصحهم نصح المشفق الامين ... ثم أراد أن يطهرهم على مستقبل
الانسانية ، وعلى أن كلمة الحق والدين مستقي ، وأن شعلة الايمان ان تنطفىء ، فدعا
الله أن يجعل من ذريته أمة مسلمة ، وأن يبعث فيها رسولا منها يطهرها ويزكيها
ويصلها بالله ، وبشر بمحمد خاتم الانبياء فتحققت بشارته .

وبعد فدين إبراهيم دين الحنفية البيضاء وشريعته هى الشريعة المطهرة التى دعا اليها
الانبياء بعده ، ولقد عاش إبراهيم عظيماً ، ومات كريماً ، وترك ذرية طيبة تعبد الله
فى الأرض ، وكان من نسله الكثير من الانبياء والمرسلين حتى لقب « بأبى الانبياء »
ولقد تلقى إبراهيم من ربه كلمات الدين والتوحيد فأتمهم ، وبلغها للناس تامات ،
وفى بعهد ربه ، ونشركمة الايمان فى الآفاق ، وذهب راضياً مرضياً ، وتركنا عليه
فى الآخرين : سلام على إبراهيم ، كذلك نجزي المحسنين .

ثم ورث محمد صلوات الله عليه هذا الميراث الالهى العظيم ، وجاء بعده بأجيال ،
ليحقق للانسانية السعادة والأمن والسلام

ميلاد بطل الإنسانية

- ١ -

في فجر يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل ،
أولتسع ليال مضت منه كما يذهب إليه الكثير من الباحثين (وذلك يوافق العشرين
من شهر إبريل عام ٥٧١ م) .

في هذه اللحظات الفذة في تاريخ البشرية ، ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب
ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، ولد الطفل الذي هتفت بذكره الأرجاء ، وسجل
مواقفه الرائعة التاريخ ، وأنصت لحديثه الدنيا ، واهتزت لأنباء جهاده في بلاد
العرب وما حولها الأمراء والملوك والأكاسرة والقيصرة ، وآمنت بمبادئه وكبرت
أشريعته الحياة والناس أجمعون .

ولقد ألهم الله أمه آمنة أن مصير العالم سيكون بعد قليل في يدي طفلها الوليد
هذا ، وأن اسمه سيحتل الصفحات الأولى في سجل الإنسانية ، وأن عصوراً جديدة
توشك أن تبدأ ويكون بطلها الأول محمد بن عبد الله فأرسلت إلى جده عبد المطلب
أنه قد ولد لك غلام فأناه فنظر إليه وحدثه بما في قلبها وما تزدحم به مشاعرها من
شقي البشرىات ومختلف الذكريات ، فأخذ عبد المطلب طفله ودخل به الكعبة ،
وقام يدعو لله ويشكر له ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها ، وقال لها : لقد
سميته محمداً ليحمد في الأرض والسماء ... وفي اليوم السابع لمولده ختنه جده كما كان
العرب يفعلون .

والنفس عبد المطلب لطفله مرضعاً من نساء البادية ، وكان من عادة العرب أن
تلتبس المراضع لأولادها في البادية ، فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر ، وهي
حليمة ابنة أبي ذؤيب ، وكان زوج حليمة هو الحارث بن عبد العزى وكان يكنى
بأبي كبشة ، وكان إخوة محمد من الرضاعة : عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت
الحارث وخدامة بنت الحارث .

وأقام محمد مسترضعا فيهم قريبا من أربع سنين ، وكانت حليلة تحدث أنه ما حملها على أخذ هذا الطفل اليتيم لتقوم برضاعه إلا أنها لم تجد غيره ، وأنها قالت لبعلمها وهي في مكة تبحث عن طفل تذهب به : « والله اني لا كره أن أرجع من بين صواحي ، ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلاخذنه ، فقال لها زوجها : « لا عليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة » ، وكانت حليلة ترى الخير والتماء والبركة منذ مقدم هذا الطفل الى حياها ، وكان محمد يشب شببا باحسنا ، وكان رضاعه عامين ، فلما نفذت وفدت به على أمه بمكة ترجوا أن ترجع به ليقيم معها في البادية زمنا آخر ، فلما مضت أشهر معدودة من عودته مع حليلة ذهب ليلعب مع أخيه خلف البيوت ، وسرعان ما قدم أخوه الى أمه حليلة يشتد ، وهو يقول لها ولأبيه : « ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعا ، فشقا بطنه فهما يسوطانه » ، فخرجت حليلة وبعلمها نحوه ، فوجداه قائما منتقع الوجه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقالا له : « مالك يا بني ؟ قال : « جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعا وشقا بطني ، فالتسا شيئا لا أدري ماهو ، فخافت حليلة وزوجها على محمد .

ولما عادت به الى مكة ، قصت على أمه قصته ، فقالت آمنة لحليمة : ان لابني لشأنا ، ولقد رأيت حين حملت به نوراً خرج مني فاضاء لي قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل حاملة قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه الى السماء ، دعيه عنك وانطلق راشدة .

- ٢ -

وأقام الغلام مع أمه في كلاءة الله وحفظه ، ينبت الله نباتا حسنا لما يريد به من كرامته . فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بالأبواء بين مكة والمدينة . وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدى ابن النجار تزيروا إياهم ، فماتت وهي راجعة به الى مكة ، واستمر في كفالة جده عبد المطلب يرعاه ويحبه ، ويجلسه معه على فراشه في ظل الكعبة وبنو عبد المطلب يجلسون حول الفراش ، لا يستطيع أحد منهم الجلوس عليه مع عبد المطلب وطفله محمد ، وكان عبد المطلب يقول : « دعوا بني فوالله إن له لشأنا » ،

ولما بلغ الغلام ثمانين سنة مات عبد المطلب بن هاشم وورث مفاخره ابنة العباس
وصار محمد بعد عبد المطلب في كفالة عمه أبي طالب .

وكان أبو طالب سيداً من أجل سادات قريش وبنى هاشم ، وكان الناس يتنبأون
أمامه بمستقبل جليل لهذا الغلام الصغير ، وأنه سيكون له شأن وأى شأن . ولما سافر
بمحمد إلى الشام في تجارته ، وقابله بحيرا الراهب قال بحيرا لأبي طالب : ارجع بابن
أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .

وحفظ الله محمداً وعصمه من أقدار الجاهلية ، وصار أفضل قومه مروءة ،
واحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً ، وأوثقهم جواراً ، وأعظمهم حليماً .
وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم عن الفحش والدنس ، وأكثرهم أمانة ، حتى سباه قومه
والأمين ، .

وخاض مع قومه حرب الفجار وهو في الخامسة عشرة من عمره ، واشترك في
حلف الفضول على نصرة المظلوم ، وتزوج خديجة بنت خويلد الأسدية وهو في
الخامسة والعشرين من سنى حياته الميمونة ، وهدمت قريش الكعبة لتجدد بناءها ،
واختلفوا فيمن يكون له شرف وضع الحجر الأسود في مكانه ، فكان محمد الحكم بينهم ،
وارتضى حكمه الناس جميعاً ، وكان إذ ذاك في الخامسة والثلاثين .

وكان يعبد الله على الحنيفية البيضاء دين إبراهيم وإسماعيل ، ويتعبد في غار حراء
الليالي ذوات العدد . فلما بلغ الأربعين اختاره الله لرسالاته العظمى ، واصطفاه
ليحمل أمانة الله ووحيه إلى الناس كافة . وليكون خاتم المرسلين وخير النبيين .
ونزل عليه جبريل بالوحي وهو في حراء يوم الاثنين لسبعة عشر ليلة خلت من
رمضان (٦ أغسطس ٦١٠ م) وعمره إذ ذاك أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام ،
قال له جبريل : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : اقرأ باسم ربك الذي خلق ،
خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم
يعلم ، ، وسمع الصوت مجلجلاً في السماء : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » .
وبلغ محمد قومه رسالة ربه . فأمن من آمن ، وجهد من جهد ، وظل يدعو إلى
الله سرا وهو في قومه ، ثلاث سنين ، أجابه فيها عدد قليل من الرجال والنساء .

والأطفال والمستضعفين ، ثم جهر بالدعوة ، وصمد لإيذاء قريش عشرة أعوام أخرى ، ثم هاجر من مكة الى المدينة مبشراً بدين الله ، وداعياً الى شريعة الاسلام والحق والخير والمساواة.

— ٣ —

وانتصر محمد في المدينة في معارك كثيرة : انتصر في حربه مع المنافقين واليهود والذين يعملون على وأد الاسلام : دعوة الحرية والطهر والسلام ، وانتصر في حربه مع الشرك والوثنية ، ففتح مكة وحطم الأصنام والأوثان وجعل كلمة الله والتوحيد هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى ، وانتصر في الحروب التي فرضتها عليه القبائل العربية ، فزق الحصار تلو الحصار عليه وعلى جيشه الظافر ، وانتصر في الميدان السياسي انتصاراً باهراً ، فجمع العرب كلها في وحدة وتحت ظلال سياسة إسلامية كريمة واضحة الأهداف والنزعات الإنسانية العالية ، وانتصر في ميادين الإصلاح والاجتماع ، فألف بين القلوب ، ودأوى المزمّن من الأمراض ، وأطفأ نزغات القلوب ، واستل ما طويت عليه من حقد وخصومة وإحن .

أقام اشتراكية بارعة تجمع بين الغنى والفقير برباط المحبة والتعاون والاخاء ، ويشارك الفقراء فيها الأغنياء ، والأغنياء الفقراء ؛ مشاركة فعالة ملهمة حافزة على العمل لخير المجموع الانساني وسعادته . وأقام المجتمع الاسلامي على أصول متينة قوية لا يعثرها الضعف والوهن ، أصول تجمع بين النظام والحرية والشورى والإيثار والتضحية وحب الجماعة وتقديس حقوق الفرد ، وبين العدالة والإنصاف والحرص على كرامة الناس وطمانيتهم ورفاهيتهم وتقدير كل ذي كفاية وموهبة وكل عامل يعمل الواجب ويشعر بالمسؤولية ويقدر مصالح الناس وحقوقهم . وحارب محمد الفقر والجهل ، ودعا الى أنبل الأخلاق وأسمى الفضائل وأكرم الأعمال ، وقضى على الفساد في مختلف ألوانه ، وطهر الحياة من الأدان والآثام والفوضى والاستغلال ، ونشر دين الله وبشر بكتاب الله ورسالته ، ووجه العرب لدعوة الأمم الى هذه الشريعة المطهرة ، وتلك العقيدة السكرية . فلم تمض أعوام قلائل بعد وفاته . حتى فتحو الشام ومصر العراق وبلاد الفرس ، ثم أخذوا يسيحون فيما وراء هذه الأقطار داعين

الى كلمة الله ، محطمين للأغلال والوثنية والشرك والاستعباد ، ناشرين العدالة بين
الأمم كافة ، مضحين بكل عزيز لديهم في سبيل الله وإنقاذ البشرية وهداية الانسانية ،
كل ذلك بدافع الاخلاص لله ولرسوله الكريم ولكتابيه الحكيم .
فما أعظم هذا الرسول العربي الأسمى الذي بدل سير التاريخ ؛ وحول مجرى
الحياة ؛ وقضى على عصور الوحشية والجاهلية المظلمة ، وحارب كل استغلال جشع ،
واقطاعية مفترسة ، وهمجية متنمرة ، ووثنية مضللة .
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه . ما أضاء النهار وأظلم الليل ، وهدى به أمته الى
خير الأعمال والعقائد ، والى سعادة الاولى والآخرة ، انه أكرم مأمول . وأجل
مستول . وما توفيقنا إلا بالله ...

هذا الفن

ما زال يهدى الانسانية

تلك الانسانية الخائرة المضللة تنزو ببصرها إلى السماء . تنشد النور والهدى والحق والسلام ، وهذه الحياة الموحشة السكسية تنسم روائح الحرية والعدالة والاخاء . بعد أن عافت رؤية الدماء والأشلاء واستبداد الأقوياء بالضعفاء ؛ وملت سماع أنغام العبودية والرق والاستعباد والسيطرة على الناس ، والاستهانة بحريات الأفراد والجماعات والشعوب . وهذه الأرواح والقلوب والمشاعر الضالمة إلى نبع الروحية والإيمان والأمان تخوم في أجواء السماء ، باحثة عن الصوت السماوى الخالد الذى دوى في اسماع البشرية حينما بعد حين ، وجيلا بعد جيل ؛ ليلفها رسالة السكالم الانسانى الأعلى ، وليرشدها إلى الحقيقة الكبرى التى قامت عليها الأرض والسموات والكون .

واتجهت الآمال والابصار كلها إلى جزيرة العرب ، إلى قلبها النابض بالحياة : مكة . وإلى ذؤابة العرب كلها فى قریش ، وإلى ميراث النبوة الخالد من آل عبدالمطلب ابن هاشم . وإلى بيت عبد الله بن عبد المطلب وزوجه الطاهرة آمنة بنت وهب . واستقر الاطام الصادق على أن رسولا جديدا يوشك أن يظهر فى السكون ليحدث أعظم ثورة إنسانية أرادها الله وعرفها التاريخ وباركتها السماء ؛ وليقود الناس من جديد إلى الحرية الكاملة والمساواة التامة والمدنية الباهرة والحضارة الزاهرة والسلام المنشود .

وأخذت الاحبار والرهبان والكهان تهتف من أعماق قلوبها فى صمت عميق وعجب عجيب : لا بد من ميلاد النور الأعظم ، الذى سيضىء الآفاق ويحرر العالم كله من إفسار الظلام والظلم والعبودية ، لا بد من ذلك فالأمل قريب والبشرى توشك أن تتحقق ، والنشيد الخالد الذى طالما ظمئنا إلى لحنه الرائع قد بدأت أنغامه الموقعة وكأنها صيحة البعث والحرية ، لا بد من أن تتحقق نبوءة موسى وعيسى بمولد

«روح الفهم والمشورة ؛ وروح الحكمة والقوة ، وروح الخوف والمحبة ، وروح
التبصر والاعتدال ، والعدل والتقوى والرحمة ، فما أسعد الزمن الذي سيأتي فيه
إلى العالم ، (١) كله .

ومات عبد الله شابا ، وترك النور متألقا في هذا الجنين الطاهر المطهر ، المودع في
جمع الأصلاب الطاهرة ، وسلالة أشرف من في الوجود من أهل الدنيا والآخرة ،
ومسحت آمنة دموعها ؛ وأقامت على الإيمان والصبر والعزاء الكريم ؛ ولكنها
كانت تسير وتقف وتنام وتستيقظ وتصبح وتمسى وتعيش في كل لحظة لتسمع
هناقا أبديا خالدا تردده الأجيال من أعماق الزمن وأغوار الانسانية : بشراك يا آمنة
فإنك تحملين النور الأعظم الذي سيضيء على الآفاق وسيملا الدنيا ذكرا وبشرا
وخيرا وبراً وأملا وسعادة وحيوية وحياسة ، بشراك يا آمنة بميلاد خاتم النبيين
وآخر المرسلين ، بشراك بما بشر به يسوع بانهاج قلب : ولانه محمد رسول الله ،
ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة الأعمال الصالحة بين البشر ؛ بالرحمة الغزيرة
التي يأتي بها ؛ فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله . وهي رحمة ينثرها الله رذاذا على
المؤمنين كالغيث ، (٢) .

ثم جاء فجر الميلاد النبوي الكريم (٣) . فرأت آمنة نورا أضاءت له قصور
بصرى بالشام ، واهتز إيوان كسرى معلنا قرب زوال العبودية من على ظهر
الأرض ، وكبرت الكعبة إيذانا بميلاد نبي السلام والإسلام والتوحيد ، ورأى
هرقل أن ملك الختان قد ظهر فأيقن أن دولة الرومان ستصير أثرا بعد عين ،
وأخذت الملائكة تفد على مكة ، تحيي الميلاد الكريم والطفل العظيم روح الله ،
والإنسانية . وقائد الناس إلى السمو والخير والاخاء والحرية : « قدوس القديسين
الآتي بالبر الأبدى . وهو القرآن المحفوظ إلى يوم القيامة » ؛ وروح الحق الذي
يرشد إلى جميع الحق لانه لا يتكلم من نفسه . بل كل ما يسمع يتكلم به ،

(١) من إنجيل برنابا لإصحاح ٤٤

(٢) إنجيل برنابا لإصحاح ١٦٣

(٣) كان ذلك في ليلة الإثنين اليوم التاسع أو الثاني عشر من ربيع الأول عام

الفيل الموافق ٢٠ أبريل عام ٢٥٧١

ثم نما الطفل وكبر ، فرأى من آيات ربه ما رأى ، وأصبح شابا ، وأصبح
حكما يومئ إليه بالبنان ورجلا تهتز لحديثه المشاعر ، وتصفي إليه الناس ، وتهتف به
الحياة ، وتردد ذكره الدنيا .

ثم نزل عليه الوحي من ربه فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وجدد معالم الوجود
وغير مجرى الحياة والحضارة ، وحارب الوثنية والشرك ، كحارب العبودية والرق
والطغيان ، والاستغلال والباطل والزور والبهتان ، وقضى على الرأسمالية والافطاعية
التي كانت تسعى في الأرض لتفسد فيها وتملك الحرث والنسل ، وحرر الرقيق
والعامل والمرأة والخادم . وحمل حقوق الفقراء والضعفاء . وأقر حقوق الإنسان
ورعاها ؛ وأقام الحياة على أصول تجمع بين الحق والواجب والخير والرحمة والعدالة
والمساواة والإخاء والحرية والكرامة والشرف والروحية والمادية المهيبة . ومحا
الجهل وحارب الفقراء وقضى على الظلم والجور والظلام ، وهدى الناس كافة إلى
دين الله وبعث الأمن والسلام والسعادة والرفاهية في الأرض ، وأيقظ القلوب
الغافية التي تحجرت في الصحراء فأصبحت تبكي لدموع اليتيم . وتهتز لمراى المسكين
والمحروم وابن السبيل ، وتسعى في الأرض تطلب المجد والذكر والعظمة ، وآثرت
حياة البطولة والتضحية والشرف على كل شيء . وضربت أروع الأمثال للناس في
مشارك الأرض ومغارها ، ونشرت هدى الله ونور الاسلام في كل مكان وطمته
أقدامها .

انقلاب كان معجزة المعجزات في تاريخ الحياة ، وثورة كانت ظاهرة فذة في
نواميس الاجتماع . ورسالة ليس لها نظير في الدنيا كلها . وآيات بينات كلها هدى
ونور أضاء الآفاق وغمر الأكوان ، وملا العالم بهجة ومرحا ونشوة وشعورا عميقا
بالسعادة ، هدى هذا النور الدنيا أجيالا طوالا . ومع ذلك كله فما يزال هذا النور
يهدى الإنسانية . ولن يزال كذلك أبد الآباد حتى تقوم الساعة باذن الله .

سِلَاحُ

النور الأعظم

- ١ -

ذلك النور السماوي العظيم ، الذي كان يظهر بين الحين والحين ، مبشراً برسالة سماوية جديدة ، فيها خير الحياة والوجود ، لا بد أن يظهر مرة أخرى على الأرض ليبدد الظلمات ، ويحارب الآوهام والضلالات ، ويمحو ما ران على قلوب الناس من أباطيل وأساطير ، وجود وجهل وعصية أثيمة كاذبة .

وذلك الناموس الذي كان ينزل على إبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء من قبل ، لا بد أن ينزل على رسول كريم من جديد : ليدعو الناس إلى أمثل الأخلاق ، وأكرم الآداب وأفضل الشرائع .

بهذا كان أهل الكتاب يتحدثون ، وبه كانوا يؤمنون ، تصديقاً لبشارة الأنبياء والكتب السماوية بظهور إمام الأنبياء وخاتم المرسلين .

ومرت الأيام بطيئة مسرفة في بطئها . والظلام يشتد ، والظلم والاستبداد والطغيان ينتشر ، والوثنية والشرك يصبحان عقيدة الناس في الحياة ، وتوالت البشارات تجدد الأمل ، وتحيي الرجاء ، وتؤمن الناس على مستقبل الإنسانية ، وتنبتهم بقرب بزوغ نور الفجر الجديد .

لا بد أن ينهار ملك كسرى وقيصر ؛ لأنه يقوم على أسوأ النظم والشرائع والعقائد ، ولأن عهد استعمارهما للعالم لا بد أن ينقرض ، والحرية الكبرى منذاً يصد تيارها الزاخر القوى المندفع بقوة الله ؟

وهؤلاء الباحثون عن الحقيقة الكبرى . ورقة بن نوفل الأسدي ، وزيد بن عمرو بن نفيل العدوي ، وعثمان بن الحويرث الأسدي ، وعبيد الله بن جحش . يجتمعون في الجزيرة العربية في يوم عيد لهم ، فيقول بعضهم لبعض : تعلمن والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطيف به لا يضر ولا ينفع ، يا قوم اتمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء ... وذهبوا يطوفون في البلاد ، يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .

وكان زيد يسند ظهره إلى السكبة ويقول : ياه مشر قريش : والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري ، ثم يقول : والله لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ، ولكنني لا أعلمه ، ثم يسجد على راحلته .

وفي مكة في صباح يوم خالد ميمون ، ولد محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ، تسبقه إرهابات ، وتحف بمولده الكريم معجزات وكرامات ، وتسير معه يوما بعد يوم بشریات وأی بشریات ، ويحفظ الناس ماذاع من ذكريات مولده ونشأته السكرية المعطرة ، وبدأ النور الإلهي في الأفق وأخذ الناموس السماوي يستعد لآخر رحلة له إلى الأرض .

وشب الغلام ونما ، نبیلا شریفا وسیدا سريا ، وفقى زكيا ، ولقى قومه وقوم مرضعته النماء والخير على وجهه الأغر ، وقدمت به حلیمة السعدية على أمه بعد فصاله ترجو أن تطيل لبث فتاها عندها ، متعلقة بوباء مكة ، فقبلت آمنة بنت وهب ، ورجعت به حلیمة فرحة مستبشرة .

وبعد شهر كان الغلام محمد يلعب ومعه ابن حلیمة خلف الرجال ، وبعد قليل جاء أخوه يشتد ، وهو يقول : ذاك أخى القرشي قد أخذه رجلان ، فأضجعا فشقا بطنه ، فهما يسوطانه : فخرجت حلیمة وزوجها نحوه ، فوجدته قائما منتقعا وجهه ، فالتزمتة هي وزوجها ، وقالت : مالك يا بني ؟ قال : جاءني رجلان ، عليهما ثياب فأضجعا وشقا بطني فالتسا شيئا لا أدري ما هو فتخوفت عليه حلیمة ، وقدمت به على أمه ، وقصت عليها القصص ، فقالت آمنة : إن لبني لشأنا أفلا أخبرك خبره ؟ قالت حلیمة : بلى ، قالت : رأيت حين حملت به انه خرج مني نور أضاء لي به قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لو اضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء ، دعيه عنك وانطلق راشدة ، وما أصدق ما يقول محمد بعد ذلك : أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ورأى بحيرا الراهب محمداً الغلام ، في بصرى بأرض الشام ، مع عمه أبي طالب فرأى المعجزة الكبرى قريبة منه ، فأخذ يحدث محمداً ويسأله ثم قال لعمه : اذهب

يا بن أخيك إلى بلده واحذر عليه فإن له لشأنا عظيما
وسمع ورقة بن نوفل ما كانت تتحدث به خديجة بنت خويلد عن محمد وشأنه ،
وكان عالما بالديانات والكتب السماوية ، فقال لها : لئن كان هذا حقيا خديجة إن محمدا
لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر ، هذا زمانه . وجعل
ورقة يستبطنه مرور الأيام ، ويقول : حتى متى رسالة الله ؟

- ٢ -

وبينما كان محمد يتعبد بغار حراء ، جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله ، يبلغه
رسالة الله ، ويحمله أمانته ،

ورأى محمد ما رأى من الآيات الكبرى ، وسمع الصوت الإلهي يناديه من كل
مكان : يا محمد أنت رسول الله وهذا جبريل ورجع إلى خديجة ينبئها النبأ ، فقالت :
أبشريا ابن عم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ،
ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تقص عليه القصص ، فقال ورقة : قدوس قدوس ،
والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي
كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة ، ولقيه ورقة في السكبة وهو يطوف بها فقال :
يا أخى والذي نفسى بيده انك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى .
ونزل القرآن الكريم دستور هذه الرسالة المحمدية العظمى ، وجاهد الرسول
ومن آمن معه جهاد الأبطال ليبلغ رسالة ربه إلى الناس كافة ، وليحمي حرية الدعوة إلى
الدين من أذى المشركين وطفغيانهم :

وقبيل الهجرة ، بينما رسول الله صلوات الله عليه نائم في بيت أم هانئ عمته ، إذ
جاء جبريل وملائكة معه ، فأضجع محمداً وشق صدره ، وأسرى به إلى بيت المقدس
فصلى بالأنبياء والرسل إماما ، ثم أتى بثلاثة آنية : من لبن وخمر وماء ، فأخذ إناء
اللبن فشرب منه ، فقال له جبريل : هديت وهديت أمتك يا محمد ، ثم عرج إلى السماء ،
فاستقبلته الملائكة والرسل والنبيون ، حتى إذا كان بالافق الأعلى ، وقف أمام ربه
يناجيه ، وثبته الله بالقول الصادق ، والإيمان الحق ، واليقين النبوى العظيم .

وهاجر محمد إلى المدينة ، وأنقذ الدعوة من خطر المشركين وأذاهم وصدهم ، فذاعت
في كل مكان ، ودعا إليها الناس كافة ، وأرسل ينبئها الرسل إلى الأمراء والملوك والأقيال .

ثم اختاره الله إلى جواره الكريم ، بعد أن أنشأ أمة ، وأسس دولة ، ونشر
شريعة الله ودينه الحق في العالم كله .

صلوات الله وسلامه عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا ، وصلوات
الله عليه كلما ذكره الذاكرون ، وحمده الحامدون .

— ٣ —

وخفقت أعلام الاسلام وبنوده في كل مكان ، وانطلق هدايته ودعائه في كل
قطر ، يبشرون الانسانية بهدى الله ، ويحررون العقول من جمود التقليد والجهل
والخرافات ... يبشرون بحريات الناس والشعوب ، ويطلقون الامم من إسارها ،
ويرفعون عنها الأغلال التي قيدها بها الملوك المستبدون ، والقياصرة المتكبرون ،
ويعجون ظلال الاستعمار والاضطهاد من الأرض ؛ ويبطلون ما تعارفت عليه الأجيال
من آراء زائفة ، وأفكار باطلة ، وتقالييد ضالة ، فليس الحاكم ظل الله في الأرض ،
وليس الامم ملكا ملك ، وليس الحكم مغنما لأمير ، وليست هناك وصاية على
أمة ، ولا حجر على جماعة ، ولا استغلال أو نهب لمرافق طائفة من الناس لحساب
طائفة أخرى .. الحكم شورى ، ولا يجوز أن يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم
أحراراً .. العدالة والانصاف والمساواة والإخاء والحرية حق لكل إنسان
في الحياة .

— ٤ —

وبعد قليل كانت الجامعات الاسلامية في قرطبة وطليطلة ، وغرناطة ، وفي
القيروان والمهدية ، وفي القسطاط والقاهرة ، وفي دمشق وحلب ، وفي بغداد
وبصرة والسكوفة ، وفي بخارى وخوارزم وقزوين ، وفي كل مكان .. كانت تعج
بالطلاب والاساتذة ، وتشر العلم والثقافة والنور في كل ناحية ، وتقوم على حرية
البحث والفكر والرأى ، وعلى الإخلاص في خدمة الحقيقة ، وعلى التعاون الانساني
بين شتى العناصر والالوان والاجناس والشعوب ، لخدمة الانسانية والرقى بالحياة
بينما كانت أوربا تنام في الظلام ، وتعيش على الأوهام ، وتحيا على الجهل

والجود والقدارة والحجر على الحريات ، وتنقل من عصور الرق البائدة إلى عهود
الانقطاع القاسية المستبدة .

فن مثل محمد في عظمته وجليل أثره على الدنيا ، وعظيم أياديه على الحياة ؟
ومن مثله من الدعاة والمصلحين والزعماء والفاتحين ، نجح في رسالته ذلك النجاح
المنقطع النظير ؟ ومن مثله كان يعمل لأغراض إنسانية عالية ، فينسى نفسه وأهله
وقومه ، ويجاهد لتحطيم رؤوس الضلال ، وشياطين الظلام في كل مكان ؟ ومن
مثله كان مع هذا السلطان العظيم والنفوذ الضخم ، يعيش مع الفقراء ، ويحيا مع
المساكين ، ويعمل في مهنة أهله ، ويأكل التمر ، ويقنع بالخبز ، مع حسن العشرة
والآداب والتواضع والرحمة والرأفة والوفاء وحسن العهد وصلابة الرحم والعدل
والعفة ، والأمانة والصدق ، والإخلاص لله رب العالمين ؟ ومن مثله حطم رؤوس
الاستعمار في كل مكان ، وهدم الاستبداد في شتى صوره وأشكاله ، وأقام للحرية
مناراً عالياً بنى إلى ظله كل إنسان ؟

إنه لرسول الله إلى الناس كافة ، ونبي البشرية الذي أنقذ الدنيا من ظلمات
الجاهلية الأولى ، وقائد العالم إلى النور والعدالة والخير والمساواة . وخاتم الأنبياء
 والمرسلين .. وصدق الله العظيم : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول
الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليماً ،

حديث الهجرة

عندما يشرق في الأفق هلال المحرم الوليد ، ويسطع في الكون نور فجره الجديد ، تعبق الذكريات الخالدة المجيدة ، وتضيء أنوار المعجزات النبوية الكريمة ، وتذكر من بين هذه المعجزات معجزة الهجرة الباقية على وجه الزمان ، هجرة محمد صلوات الله عليه من وطنه مكة إلى المدينة ، وهي التي اتخذها عمر بن الخطاب مبدأ التاريخ الإسلامي ، وافتتح بذكرها الطيب شهور السنة العربية . وهي حادث قد في تاريخ الإنسانية ، وحديث عذب في سلسلة أحاديث السيرة المحمدية ، ومثل عظيم من أمثلة الدفاع عن الحق والحرية .

إن يوم الهجرة هو يوم البطولة والكرامة ، ويوم المعركة المجيدة العنيفة التي نشبت بين الحق والباطل ، والهدى والضلال والنور والظلام ، والإيمان والكفر والرشد والغى ، والشرف والفساد . فهو يوم التاريخ والسلام ، وإنقاذ البشرية من الاستبداد والظلم والظلم والظلم . بل هو عيد البشرية الأكبر ، وعيد الإخاء والمساواة والحرية والتضحية والمثل الرفيعة في حياة الناس .

تلقى محمد صلى الله عليه وسلم رسالة ربه وهو في سن الأربعين ، فصعد بالأمر ، وأخذ يبلغها قومه وعشيرته ، ويكافح قوى الشرك والوثنية والجهود والظلم في مكة ، وينجاهد في سبيل الله والحق ونشر كلمة التوحيد جهاد الأبطال ، جهادا لم تعرف الدنيا له مثيلا ، طيلة ثلاثة عشر عاما ، دعا فيها الناس كافة إلى الهدى والنور ، والرحمة والخير ، والمساواة والإخاء والعدالة ، وإلى الحق والحرية والظهور والشرف واحترام حقوق الإنسان والضعفاء والفقراء .

ولكن آذان الشرك لم تتفتح لسماع كلمة الحق والعدل ، وامتدت يد الظلم إلى محمد وأصحابه ومن آمن به بالإيمان والهدى والبطش والوعيد ، وحاول المشركون

في مكة أن يكفوا فم الرسول وأقواء أصحابه ودعاته ، حتى لا يفتنوا الناس عن دين
آبائهم وأجدادهم ، وتوعدوا من آمن منهم بمحمد بالعذاب الشديد ، ووقفوا يحولون
بين الرسول وتبليغ رسالته بكل ما يستطيعون من وسائل ، منعوه أن يلقي القبائل ويقرأ
عليهم القرآن ، ونشروا حوله دعايات كاذبة أنيعة ، فقالوا : هو شاعر ، وهو ساحر ،
وبه جنة ، وهي أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا . ومحمد صامد
في موقفه يهزأ بهم ويسخر مما يقولون ، ويقول في إباء وشمم : والله لو وضعوا الشمس
في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله
أو أهلك دونه ،

وانتمرت قريش والمشركون بمحمد ، وهددوا عمه أبا طالب بالحرب ، وضيقوا
عليه وعلى عشيرته ، وقاطعوه أعواما ثلاثة ، واضطهدوا أنصاره وشردهم ولاحقوهم
في البلاد ، وصدوا الناس عنه وفرقوهم من حوله ، وماتت خلال هذه المعركة الدامية
خديجة زوج محمد ، وأبو طالب عمه . وأقاموا حوله نطاقا من حديد ، ولكن الله
أراد لرسوله النصر ، ولدينه الفوز ، وللمؤمنين الغلبة ، فانتشر الإسلام خفية في المدينة
عن طريق حجاج بيت الله العتيق من الأوس والخزرج . وعقد الرسول معهم حلفا ،
وباعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم ، ولو كان في ذلك هلاك
الأموال وقتل الأشراف . ولهم الجنة ، وأذن الرسول لأصحابه والمضطهدين من المسلمين
بالهجرة إلى المدينة ، وهو خلال ذلك هادئ النفس رابط الجأش ، يقول لهم : يا أيها
الناس : قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . وتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم
فاذا فعلتم كنتم ملوكا ، لكم الجنة ،

وأجمعت قريش والمشركون في مكة على قتل محمد ، بيد فتیان أقوياء من أبناء
القبائل العربية جميعا ، حتى يذهب دمه هدرًا . ونبأ الله رسوله بالشر المدفون في
قلوب رؤساء المشركين ، فذهب إلى أبي بكر في حر الظهيرة اللافح ، يعلمه بالأمر ،
وينبئه أن الله قد أذن له بالهجرة إلى المدينة ، لينجو من الشرك وأهله ، ومن ظلم ذوى
القربى ؛ وليجد حرية الرأي والعقيدة في مكان أرحب ، وعند قوم أشربت قلوبهم
حب الإيمان ، وملأت مشاعرهم آياته ، واستعدوا للدفاع عن حياض الحق ، ومحاربة
الباطل ، وباعوا أنفسهم في سبيل الله . فبكى أبو بكر ؛ وأخذ يعد للامر عدته ؛
ويهيئ له أهله .

ولنترك عائشة أم المؤمنين ؛ تحدثنا حديث هذا اليوم الخالد ؛ وماسبة من أيام
 عظيمة خالدة ؛ قالت عائشة فيما رواه البخاري عنها : لم أعقل أبوي قط إلا وهما
 يدينان الدين ؛ ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله طرفي النهار بكرة وعشية ؛
 فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة ، فلقية ابن الدغنة - وهو
 سيد من سادات العرب - فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ قال : أخرجني قومي فأريد
 أن أسيح في الأرض وأعبد ربي ، فقال ابن الدغنة فإن مثلك لا يخرج ولا يخرج ،
 إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على
 نوائب الحق ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه
 ابن الدغنة ، فطاف الرجل عشية في أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج
 مثله ولا يخرج ، أخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل
 ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ، فلم تكذب قريش بجواره ، وقالوا له :
 مر أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصل فيها ؛ وليقرأ ماشاء ، ولا يؤذنا بذلك
 ولا يستعلن به ، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا .. فقال ذلك ابن الدغنة لأبي
 بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ، ولا يستعلن بصلاته ، ولا يقرأ في
 غير داره . ثم . بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، وكان يصلي فيه ويقرأ
 القرآن ، فينقذ عليه نساء المشركين وأبنائهم وهم يعجبون منه ، وينظرون إليه
 وكان أبو بكر رجلاً بكاء ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفزع ذلك أشراف
 قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم ، فقالوا إنا كنا أجرة
 أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره ،
 فأعلن الصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فانه ، فإن
 أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبي إلا أن يعلن بذلك فسله
 أن يرد إليك ذمتك ، فإننا كرهنا أن نخفرك (١) ، ولستنا مقرين لأبي بكر الاستعلان
 فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال : قد علمت الذي عاقدت لك عليه ؛ فإما أن تقتصر
 على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتي ، فإنني لأحب أن تسمع العرب أني أخفرت في
 رجل عقدت له ، فقال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله
 عز وجل .. والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة ؛ (وقد) هاجر من هاجر قبل

(١) أي تنقض عهدك

المدينة ، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة الى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل
المدينة - للهجرة اليها - فقال له رسول الله : على رسلك ، فإني أرجو أن يؤذن لي
- أى بالهجرة إلى المدينة - فلبس أبو بكر نفسه على رسول الله ليصحبه ،

قالت عائشة : فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحو الظهيرة ، قال قائل
لأبي بكر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعاً ، في ساعة لم يكن يأتينا فيها ،
فقال أبو بكر : فدأله أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . فجاء رسول الله ،
فأستأذن ، فأذن له ، فدخل ، فقال لأبي بكر : أخرج من عندك ، فقال أبو بكر : إنما هم
أهلك ، بأبي أنت يا رسول الله ، قال : فإني قد أذن لي في الخروج ، فقال أبو بكر : الصبح
بأبي يا رسول الله ، قال رسول الله : نعم ، قال أبو بكر : فخذ بأبي أنت يا رسول الله
إحدى راحتي هاتين .. قالت عائشة : فجهزناهما أحث الجاهز - أى أسرع -
وصنعنا لهما سفرة - أى زاداً - في جراب . فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة
من نطاقها - أى حزامها - فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين
بات في تلك الليلة الموعودة د على ، مكان رسول الله وخرج محمد صلوات الله
عليه وصاحبه في ظلمات الليل من مكة على خفية ، بين العيون والأرصاد ، والسيوف
والأحقاد ، والعتيان المتراصين حول بيته الشريف لسفك دمه في آخر الليل . وسار
معه أبو بكر حتى وصلا غارا بجبل ثور - وهو قرب مكة على مسيرة ساعة - فدخلاه
ومكثا فيه ثلاث ليال وقرش يكاد يذهلها الجنون ، ويقتلها الغيظ ، وفصاصو الأثر
في كل مكان وطريق يبحثون عن محمد وصاحبه ، ليردوها إلى مكة سالمين أو مقتولين
حتى وصلوا إلى الغار . والصديق يقول : إن أحدهم لو نظر إلى قدميه لرآنا ، ويقول
للرسول : لست أخاف الموت ، فأنا رجل واحد ، ولكنني أخاف عليك ، فأنك
إن قتلت هلكت الأمة ، وإن تصب اليوم ذهب دين الله . فقال له الرسول :
لا تحزن إن الله معنا وما ظلمك باثنين الله ثالثهما ، ويقول : اللهم اعمم أبصارهم ..
قالت عائشة : وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ، فيدلج -
أى يخرج - من عندهما بسحر . فيصبح مع قرش بمكة ، فلا يسمع أمرا إلا وعاه
حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك
الليالي الثلاث .

وبعد أن خف طلب المتركين لهما جاءهما رجل أمناه ، براحتيهما ، صبح ثلاث

ليال ، وأخذ طريق الساحل إلى المدينة ، وكان كفار قريش قد جعلوا في رسول الله وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره ، فخرج سراقة بن خثعم بفرسه وريحه سائرا في الصخر يبحث عن الرجلين ، حتى سمع قراءة رسول الله وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، فساخت يدا فرسه في الأرض فنزل من فوقها وأقامها ، ثم ركبها ، حتى جاء رسول الله وأبا بكر ، فقال : يا محمد إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وقص عليهم قصص الناس وما يريدونه بهما ، وعرض سراقة عليهما الزاد والمتاع فلم يأخذا شيئا وقالاه : اكنتم عن الناس خبرنا ، وكتب له الرسول كتاب أمن ، وسار رسول الله ، فلقى الزبير بن العوام في ركب من المسلمين كانوا قافلين من الشام بتجارهم ، فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثيابا بيضا ، وسمع المسلمون بالمدينة خروج محمد من مكة ، وهجرته إلى بلدتهم الطيبة ، فكانوا يخرجون كل يوم ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ، فرجعوا يوما إلى بيوتهم بعد ما أطلوا انتظارهم ، فلما أروا إلى بيوتهم اطلع رجل من اليهود من فوق حصن من حصونهم لأمر من أموره ، فشهد محمد وأصحابه قادمين نحو المدينة فصاح بأعلى صوته : يا معشر العرب هذا رسولكم وحمدكم - أي حظكم - الذي تنتظرون ؛ فهب المسلمون وأخذوا السلاح يتلقون رسول الله خارج المدينة ؛ فوصل إليها يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الأول والنساء والأطفال والرجال ينشدون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع

وأقام رسول الله في حى بنى عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى ؛ وصلى فيه رسول الله ؛ ثم ركب راحلته وسار يمشى معه الناس حتى بركت عند مكان يصلى فيه رجال من المسلمين ، فقال رسول الله : هذا ان شاء الله المنزل ؛ واشترى الأرض من صاحبها وكانت لسلامين يتيمين ، وبني فوقها مسجده النبوى الشريف ؛ وما فرح أهل المدينة بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأخذ يؤلف القلوب ويؤاخى بين المهاجرين والأنصار ، ويحالف سكان المدينة من اليهود . ليفرغ لبناء أول دولة إسلامية قامت على ظهر الأرض ، فأعزه الله وأيده بروح من عنده .

وهكذا صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم المشركين والمفسدين والمنأمرين وحده ، إذ نجى محمد في هجرته ، وحاطه بتأييده ورعايته ،

وأيده بالملائكة لحمايته ، وصدق الله العظيم حين يقول : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ، إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فانزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم .

عاش محمد بعد الهجرة كما كان ، رسول رب العالمين ، ومثال الإنسانية الرفيعة ، ومطلع العلم والمعرفة والحكمة ، ومشرق النور الإلهي العظيم ، ورئيس الدولة الإسلامية العادل الحكيم ، والمثل الكامل للناس جميعاً ، يعلم العلماء أسس نظم الكون ، والمصلحين أكمل نظم الاجتماع ، والمشرعين أصلح قواعد التشريع ، ويضع أساس دولة ليس لها نظير بين الدول على وجه الأرض ؛ كان هو قائدها المحنك المدرب العظيم ، وبطلها المرجى المحبوب الشجاع .

حقاً لقد كان الرسول جندياً شجاعاً ؛ وبطلاً وهو بآ وقائداً عظيماً ، يثق فيه جنوده ، ويطيعونه طاعة عمياء ، يخوضون معه المعارك دماً ولهباً ، حتى قال له المقداد ابن عمرو يوم معركة بدر : يا رسول الله امض إلى ما أمرك الله فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نباغه ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، بل نقول إنا معكما مقاتلون . . وقال سعد بن معاذ يجيب الرسول نيابة عن الأنصار : قد آمنا بك يا رسول الله وصدقناك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ؛ وما نكره أن تلقى بنا العدو غداً ؛ وإنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك : فسر بنا على بركة الله : وكان عمير بن الحمام في جند رسول الله وكان حدث السن : وبيده تمرات يأكلها فسمع رسول الله صلوات الله عليه يقول : والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة فمنهض عميرة وهو يقول : يخ يخ ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف الثمرات وأخذ سيفه وقاتل حتى قتل

ولقد جمع نبينا محمد صلوات الله عليه صفات الزعامة الحربية : كما جمع صفات الزعامة الدينية والسياسية : فكان شجاعاً بطلاً ؛ ومحبواً مطاعاً من جنوده : سبق إلى ابتكار أصول العسكرية وآدابها العالية الرفيعة ، فكان يؤلف مجاس الحرب قبل المعارك ، ليدرر هو وأصحابه من أركان حربه خطط المعركة ، والمواقع الاستراتيجية ، ويستشيرهم

ويستأنس بأرائهم : وكان قبل المعركة يثبت أذكي الرجال لمعرفة أسرار العدو ، على
تمط ما تفعل أقلام الخبايا العسكرية في الدول الراقية ؛ وكان يعنى بالتدريب الحربي
عناية فائقة : وقد وضع محمد قاعدة السرعة والسرية في حركاته الحربية : ومفاجاة
العدو في مآمنه ، ومطاردة العدو بعد هزيمته في الميدان لتصير الهزيمة فشلا كاملا ،
وتشتيتا تاما ، حتى لا يستطيع الأعداء التجمع من جديد لإعادة الكرة وخوض
معركة أخرى ، وكان يلجأ أحيانا إلى حرب الأعصاب ، وإلى حرب الدعاية ، ويعقد
المعاهدات العسكرية مع بعض القبائل العربية ، ويستعين ببعض على بعض ، ولما هزم
جيشه في معركة أحد أخذ يرسل السكتائب لتهديد أعدائه وتغيير عليهم ، ليعيد للجيش
الإسلامي هيئته في نفوس المشركين والمنافقين ويهود المدينة ، وليحيي في نفوس
المسلمين القوة المعنوية ، ووضع الرسول الأكرم الدولة وأمنها وسلامتها فوق كل
اعتبار ، كما وضع آداب الحرب ، فكان ينهى عن حرق الثمار وقتل الأطفال والنساء
واليتامى ورجال الدين من اليهود والنصارى ، وينهى عن التخريب والتدمير ، ويأمر
بحسن معاملة الأسرى ودفن القتلى من أعدائه ، ويأمر بالوفاء ورعاية الحقوق والعهود
والمواثيق .

وكان إذا اشتد الكرب به وبجنوده يلجأ إلى الله ، يدعو ويتضرع إليه ، ويسأله
النصر والتأييد والمعونة . فما أجله من رسول كريم ؛ وأعظمه من قائد عظيم ... لقد
كانت ثورة محمد بن عبد الله ثورة على الفساد والاستبداد والظلم والوحشية والفجور
والأهواء ؛ وللقضاء على الفوضى والمحسوبية ، والخيانة ؛ والاستهتار بحقوق الشعوب
المقدسة ؛ وحقوق الأفراد والجماعات والفقراء ، والمستضعفين في الأرض

ولقد نجح محمد بن عبد الله في ثورته ؛ لأنه لم ينشد الزعامة ولا السلطان ولا المال
ولا الحكم ؛ وإنما آمن بالحق ؛ فأعزه الله وأعز به العدل والحق ؛ وراية الإسلام ، وجند
المسلمين ؛ وصدق الله العظيم حين يقول : ولينصرن من ينصره إن الله لقوى عزيز .

معجزة الهجرة

في القرآن الكريم

قال الله تعالى في كتابه الحكيم : إلا تنصروه فقد نصره الله : إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا : فأنزل الله سكينته عليه : وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى : وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم .

هي معجزة وعاما الزمن ، ورددتها الأجيال : ووقف التاريخ حيا لها معجبا مشدوها ، يتدبر ليفهم آياتها الكبرى : ويمعن ليدرك أسرارها الخالدة : وآثارها العظيمة على الحياة والإنسانية .

هذا الرسول النبي الأمي يتلقى الدعوة من الله : فيصدع بما يؤمر : ويجاهد في سبيل نشر كلمة التوحيد : ويكافح قوى الشرك والوثنية والجود والطغيان : كفاحا لم تر الدنيا له مثيلا ، طيلة ثلاثة عشر عاما : دعا فيها الناس كافة إلى الهدى والنور والرحمة والخير والحرية والإخاء والسلام : ولكن آذان الشرك لم تفتح لسماع كلمة الحق والعدل : وامتدت يد الطغيان بالإيذاء والبطش والتهديد والوعيد إلى محمد صلى الله عليه وأصحابه : وحاولوا أن يكفوا أفواه دعاة الرسول حتى لا يفن الناس عن دين آبائهم وأجدادهم : وتوعدوا من أسلم بالامتحان والعذاب الأليم : ووقفوا يحولون بين محمد صلوات الله عليه وتبليغ رسالته بكل ما يستطيعون : منعه بالقوة أن يلقي القبائل ويقرأ عليهم القرآن : ونشر المشركون دعايات أئيمة لتنفر الناس منه : فقالوا : هو شاعر وساحر وبه جنة وهي أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا : واثمرت قريش بالرسول وهددوا عمه أباطال بالحرب ، وضيقوا عليه وعلى عشيرته وقاطعوهم أعواما ثلاثة واضطهدوا أنصارهم وشردوهم ولاحقوهم في البلاد : وصدوا الناس عنه وفرقوهم من حوله ، ومحمد صامد في جهاده سائر إلى غايته : يضحى بنفسه لإنقاذ البشرية وتغيير مجرى الحياة : وهو يقول لعمه : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري : على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وأخذ الرسول يصدف عن قريش والمشركين إلى أهل المدينة من حجاج بيت
الله العتيق ، يبلغهم الدعوة ، فأمن به من آمن ، ثم عقد معهم حلفا ، وبأيعهم على أن
يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم ، ولو كان في ذلك هلاك الأموال وقتل
الأشراف ولهم الجنة ، وأذن لأصحابه والمضطهدين من المسلمين بالهجرة إلى المدينة ،
حتى لم يبق منهم إلا القليل .

لكن قريشا والمشركين لم يكفوا ، فأجمعوا أمرهم على قتل الرسول ، والرسول
صلوات الله وسلامه عليه رابط الجأش ، مطمئن الإيمان ، ينشر على من حوله السكينة
والطمأنينة ، ويقول : ديا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتمسكوا بها العرب ،
وتدين لكم بها العجم ، فإذا فعلتم كنتم ملوكا ، لكم الجنة .

ونبأه الله بالشر المدفون في قلوب رؤساء المشركين ، فذهب إلى أبي بكر في حر
الظهيرة اللافح ، يعلمه الأمر ، وأن الله تعالى قد أذن له بالهجرة ، وأنه اختار أبا بكر
صاحبه في هجرته ، فبكى أبو بكر رضى الله عنه من الفرح ، وأخذ للأمر أهبطه ،
وبات على في مكان الرسول الأعظم في الليلة الموعودة ، وخرج محمد صلوات الله وسلامه
عليه وصاحبه في ظلمات الليل من مكة على خفية ، بين العيون والأرصاد ، والسيوف
والإحقاد ، والفتيان المتراصين حول بيته الشريف اسفك دمه في آخر الليل ، وسار
معه صاحبه حتى وصلا غارا بجبل ثور ، وهو دون مكة على مسيرة ساعة فدخلاه ،
ومكثا فيه ثلاثا ، وقريش كادت بعد يذهلها الجنون ، ويقتلها الغيظ ، وقافة الأثر
في كل مكان وطريق ، يبحثون عن محمد صلوات الله وسلامه عليه وصاحبه ، ليردوهما
إلى مكة سالمين أو مقتولين ، حتى وصلوا إلى الغار والصديق يقول : إن أحدهم لو
نظر إلى قدميه لرآنا ، ويقول للرسول : لست أخاف الموت ، فأنا رجل واحد
ولكني أخاف عليك ، فإنك إن قتلت هلكت الأمة ، وإن تصب اليوم ذهب دين
الله ، فقال له الرسول : لا تحزن إن الله معنا ، وما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟
ويقول : اللهم أعم أبصارهم ، ...

حقا لقد نصر الله عبده ، وأعز رسوله وهزم الشرك والمشركين ، حين
نجى محمدا صلوات الله وسلامه عليه في هجرته ، وأحاطه بتأييده ورعايته ونصرته

وحفظه ، وأيده بالملائكة يذودون عنه ويحمونه وهو في الغار ، كما أيده بهم من بعد في بدر والأحزاب وخيبر . ولقد أذن الله تعالى له بالهجرة والخروج من مكة بعد أن جعل المشركون الدعوة إلى الإسلام ضرباً من المحال ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، ولكن الله لم يتركه ، بل كان معه ، ينصره وينصر دينه ، ويحمي دعوة السلام والحق والإيمان ، ويذود المشركين عن محمد وهو وصاحبه في الغار ، ثم وهما سائران في الطريق إلى المدينة ، وأنزل عليه وعلى صاحبه السكينة والأمن والطمأنينة ، وحفه بجنود الله من الملائكة ، وجعل كلمة الذين كفروا وما أجمعوا عليه من الشرك والكفر والظلم والاثم ، وما دبروه من كيد لقتل محمد وخنق رسالته ، جعل كلمتهم هي السفلى ، وكلمة الله ودعوة التوحيد ورسالة الحرية والسلام والإسلام دائماً أبدأ هي العليا ، لا يخفت لها صوت ولا ينطفئ لها نور ، ولا تنكس لها راية ، ومهما ارتفع صوت الكافرين والماديين من أولى الحضارات التي تتنكر للإسلام ، فإلى أمد وحين ، والغلبة والعزة لله ورسوله وللمؤمنين .

حقاً إن كلمته هي العليا . ولقد بنى لها محمد صرح الخلود والعزة والمجد والجلال ، من يوم أن خلصه الله من أيدي الكفار ، وأنجاه في هجرته إلى المدينة . فلهجرة كانت المبدأ في إعزاز كلمة الله ونشر دعوة الإيمان والإسلام . وهي نصر من السماء ما بعده نصر ، وتأيد ليس يعاونه تأييد ، والله عزيز في حكمه لا يغلبه ، غالب وحكيم في تدبيره لا ينقضه إنسان .

فكيف بكم أيها المسلمون تأخرون ، إذا دعا الرسول للجهاد في ساعة العسرة . حين عزم على غزو الروم في تبوك عام عشرة من الهجرة ، وقت قحط وقيظ ، ومع بعد الشقة وكثرة العدو وأخطار الجهاد ؟

كيف بكم لا تلبون داعي الله ، وتخلدون إلى الأرض والهوان : أأثرتم الدنيا وزينتها على حب التضحية والكفاح في سبيل الله والدين ؟ ، ألا تنصروا الله ودينه ورسوله حينئذ ، فإنه ناصرهم ومؤيده وراعيهم ، وقد نصره في مواطن كثيرة : يوم هجرته ، ويوم بدر ، والأحزاب ، وخيبر ، حتى أدى الرسالة وبلغ الأمانة ، وأعز الإسلام ، وكتب المجد والفخر والخلود والعزة للمسلمين .

رسول البشرية

مضى على انتقال رسول الله محمد صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى نحو أربعة عشر قرناً ، ولا تزال عظمته ملء القلوب والأسماع ، وذكره نشيد الحياة الظائمة إلى نبع هذا الإلهام الكريم ، وإلى فيض هذه البطولة الفذة ، والعظمة الكاملة .

إذا ذكر المسلمون هذا النبي الأسمى تقديساً للرسالة التي حملها ، وبلغها عن الله ، ونشرها في الخافقين ، وإيماناً بسمو ما جاء به من عقيدة وتشريع... فإن الإنسانية كلها لتذكر أنه رسولها الفذ الكريم ، وأبوها البر الرحيم ، والعلم المفرد في تاريخها الحافل المديد .

إن عظمته عليه السلام ليست مستمدة من عصبية أو جاه أو مال ، ولا من عظمة الأمة التي ظهر فيها ، ولا من سمو حسبه وشرفه ، وجلال شخصيته ، وكال خلقه ، وسعة أفقه ، وإنه المثل الأعلى للإنسان الكامل ، وأنه عاش مجاهداً ، ومات مجاهداً ، في سبيل الله والحق والهدى والنور ، فحسب .

ولنما ترجع مع ذلك إلى أنه الرسول المبعوث الذي اختارته العناية الإلهية من بين الخلق ، ليبليغ رسالة الله إلى العالم . على فترة من الرسل . ضل فيها الناس وجهلوا هداية السماء . التي بشر بها الأنبياء والمرسلون . وترجع إلى أنه جاء بآخر الرسالات لتسكون دين البشرية عامة ، وعقيدة الناس قاطبة ، وهي الفطرة التي فطر الناس عليها ، فقد دعت إلى التوحيد المطلق ، وقررت مبادئ العدالة والحرية والمساواة والإخاء بين الناس كافة ؛ وكانت دين البشرية بسمو روحها ، وجلال نزعاتها . ونبل أهدافها ، ورفعها من كرامة الإنسان في الحياة ، وديمقراطيتها الحققة وما سنته من حب ورحمة وتعاون ، وبما تدعو إليه من إيقاظ للضمير ، وشعور بالمسؤولية ، وتقدير للعبود والحرمان ، ونشر للعلم والعمران والمدنية ، وحرب على الوثنية والشرك ، والضلال والفساد ، والذائل والمنكرات ، والآهواء الضالة ، والاهوام الضارة ، والشهوات الجامحة ، والخرافات الكاذبة ، والتقاليد البالية .

وبحسب محمد عظمة أنه أول داع إلى الأخوة الإنسانية ، والزمانة البشرية ، وأنه

حرب العصابات والتقاليد الفاسدة ، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله
وفي ظل رسالة كاملة هي شريعة الله

ثم لم يمتص إلى جوار ربه ، إلا وقد جمع العرب عليها ودعا الملوك والأمراء
إليها ، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، إلى كسرى ، وملك البحرين والحبشة ،
وحاكم مصر ، وهرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية ، وما أجل ما يقول في رسالته
إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد عبد الله ورسوله ، إلى هرقل عظيم
الروم — سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، اسلم تسلم
يؤتلك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فانما عليك إثم الأريسيين — عامة الشعب —
يا أهل السكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك
به شيئاً » ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا
بأننا مسلمون . »

وحمل خلفاؤه من بعده عبء هداية الأمم ، وتحرير الإنسانية ، فوصلت
هذه الرسالة إلى أطراف الدنيا ، وقامت عليها حضارة مشرقة ، ولم تزل عقيدة
كثير من الأمم والشعوب ، ولن تزال حية بما فيها من حرارة وحياة ونمو وتجدد
ولقد اعترف أفذاذ مفكرى الغرب بفضل محمد على الحياة ، وبأياديه الجليلة على
الحضارة ، يقول تولستوى : « مما لا ريب فيه أن النبي محمداً من أعظم الرجال
المصلحين ، الذين خدموا الحياة خدمة جليلة ويكفيه فخراً أنه هدى أمة إلى الحق ،
وجعلها ينهج إلى السكينة والسلام » ، ويقول توماس كارليل في كتابه الأبطال :
« إن الرسالة التي أداها ذلك الرسول الكريم ما زالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر
قرناً لا أكثر من مائتي مليون من البشر ، وإن رجلاً كاذباً لا يستطيع أن يوجد ديناً
وينشره ، عجباً والله . وعجيب وأيم الله أمة محمد ، فلم يقتبس من نور أى إنسان
آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك إلا كجميع الأنبياء ، أولئك الذين
أشبههم بالمصابيح الهادية . . وصدق الله فيما يقول : « يا أيها النبي : إنا أرسلناك
شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله يأذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن
لهم من الله فضلاً كبيراً » .

عيد السلام والحرية

يوم الهجرة الكريم عيد الإنسانية والحضارة والمثل الرفيعة في حياة البشر كافة ،
وعيد الإخاء والمساواة والسلام والإسلام والحرية .
فقد كتب سيدنا محمد صلوات الله عليه فيه أروع الصفحات في تاريخ العالم كله ،
وضرب أعظم الأمثال في البطولة والتضحية .

هاجر صلوات الله عليه من وطنه ، حيث الاضطهاد الديني والروحي ، والجود
الفكري والاجتماعي ، والتعصب للجهل وتقاليد الآباء الضالة ، ومحاربة دين
الله والحق ، هاجر بعد جهاد شاق ، وتضحيات كبيرة خالدة على الأيام ، وبعد أن
لاقى أنصاره مالا قواماً من تعذيب وتشريد . ودخل المدينة هو وصاحبه أبو بكر ، فنشر
الرسالة وأدى الأمانة . وحارب الوثنية وحرر الناس من الأهواء والأوهام والخوف
والجهل والعبودية ، وساوى بين البشر كافة ، فعرفوا من جديد ما هو الأمن والعدل .
وصارت العرب أمة واحدة أخذت تسود الأمم ، وتقود الإنسانية إلى الهدى والخير
وأكرم الغايات .

وهكذا هاجر الأنبياء والرسل قبله فراراً من الاضطهاد والحجر الظالم على حرية
الفكر والعقيدة . هاجر من وطنه مسكاً إلى المدينة بعد أن أودى وشرذ وعذب
المؤمنون به . وصد المشركون الناس عن سبيله ، واثمروا على سفك دمه .. هاجر
تحدوه آمال واسعة في إنقاذ الإنسانية من ضلالها . والسعى بها إلى الهدى والإيمان
والحرية والمدنية .

وكانت هجرته إيذاناً ببداية عهد جديد في تاريخ العالم ، وحداً فاصلاً بين الظلام
والنور ، والوحشية والحضارة ، والجهل والمعرفة .

لقد صنع محمد المعجزة التي لم يصنعها أحد قبله : بهجرته . وبما تلا هجرته : من
جهاده الخالد العظيم في سبيل الله ، لبعث يقظة روحية جديدة تغمر العالم كله ،

وللدعوة إلى مبادئ حية لم يسمع بمثلها سمع الزمان . والتبشير بحياة مثلى تسودهم
المساواة والعدالة والمحبة والتعاون والإخاء والاشتراكية الحققة والديمقراطية الصحيحة
والشعور بالمسؤولية في الحياة

يقول الله تعالى في كتابه الحكيم في قصة الهجرة ونصره لرسوله : « لا تنصروه
فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ، ثاني اثنين ، إذ هما في الغار ، إذ يقول
لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينة عليه ، وأيده بجنود لم تروها ،
وجعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » ، وقال
في شأن الانصار : « واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ،
فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

وكانت هجرة الرسول صلوات الله عليه من مكة إلى المدينة ، إيذانا ببداية عصر
جديد في تاريخ العالم ، وعاملا قويا في رقي الإنسانية ونهضتها ، وحدا فاصلا بين
الوحشية والمدنية ، والعبودية والحرية ، والجهل والمعرفة ، والظلام والنور .

ففي المدينة بعد الهجرة بقليل ، بدأ الرسول يبشر بحقوق الانسان ، يرفع من
كرامته في الحياة ، ويعمل على تحرير الطبقات والأجناس من الرق والاضطهاد
والاستعباد والاستغلال ، ويفتح الأبواب أمام المتنافسين من ذوى الكفاية من
كل أمة ولون ، ويشرع أصول الحكم العادل ، ويضع مناهج التقدم الروحي
والاجتماعي ، ويعلن أن للحكوميين ماللحاكين ، وأن الدولة إنما وجدت لخدمة
الفرد .. ووجد الرسول نفسه أمام ثلاث طوائف في المدينة :

أولاهما - طائفة المهاجرين الفقراء ، الذين ضحوا بوطنهم ومالههم وتجارتهم
طلباً للحرية ، وفرارا من الطغيان ، فهاجروا من مكة إلى المدينة ، فرادى وجماعات
بعد هجرة محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان أغلبهم يعمل بمكة في التجارة يكسب منها
الأموال الطائلة ، ويصفهم الله تعالى في القرآن بقوله : « للفقراء المهاجرين الذين
أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله
وسوله ، أولئك هم الصادقون » ، ويصف الطبقة التي تلتهم في الهجرة بقوله : « والذين
جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . ولا تجعل
في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » ..

والطائفة الثانية - هم الذين أحبوا الرسول ونصروه ، واتبعوا النور الذي مبهى معه : من الأوس والخزرج سكان المدينة ، وكانت مهنة أكثرهم الزراعة وتعهده الثمار والأشجار والفاكهة ، وكانوا ذوي عدد وثروة ، ووصفهم الله تعالى بقوله : والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون .

والطائفة الثالثة - يهود المدينة ، الذين طالما أشعلوا نار الخصومة والحرب بين الأوس والخزرج ، وسخروا برسالة محمد وبأصحابه .

يجتمع كهذا المجتمع ، فيه الفقراء والأغنياء ، والمفسدون والمتآمرون ، لا بد فيه من بناء جديد ، وحركة بعث وتجديد ، فإذا فعل محمد صلوات الله عليه ؟ بدأ الرسول يعالج هذه المشكلات بإلهام سديد ، وعقل حصيف ، وسياسة حكيمة

طمأن اليهود على حرياتهم الدينية والشخصية ، وتعهده بحمايتهم والدفاع عنهم في وثيقة سياسية بارعة ، وادع فيها اليهود وعاهدهم وحذرهم ، ليضمن سلامة الدولة وأمنها . والتفت إلى علاج مشكلة التفاوت الشديد في الثروة ، بين الأغنياء والفقراء ، بين الأنصار والمهاجرين ، فأخى بينهم إخاء فريدا في تاريخ الإنسانية ، إخاء مودة وتعاون وإخلاص ، فكان يأخذ يدي المهاجري والانصاري ويقول : « تأخيا في الله أخوين أخوين » . قال ابن هشام : أخى رسول الله بين المهاجري والانصاري فقال تأخوا في الله أخوين أخوين ، فكان الرسول وعلى بن أبي طالب أخوين ، وأبو بكر وخارجة بن زهير أخوين ، وحمة أسد الله وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وجعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وسوى هؤلاء وهؤلاء .

كان الرجل من المهاجرين يرتبط برباط الأخوة بآخر من الأنصار ، وصار لكل أنصاري أخ من المهاجرين يشاطره داره وماله وإبله وتجارته ، لهذا نصف ولهذا نصف ، وكان إذا توفي أحدهما ورثه أخوه - في العقيدة لافي النسب - إلى أن نزلت آية الميراث ، فجعل الإرث بين ذوي الأرحام والقرابة .

وهكذا تنازل الأنصار الأغنياء ، بوازع من دينهم وضميرهم وحبهم وطنهم ، لإخوانهم المهاجرين الفقراء عن نصف ما يملكون من ثروة وعقار وأرض ، دون تردد أو إبطاء .

وجدت مشكلة اخرى ، فقد كان الانصار أصحاب زراعة ، بينما المهاجرون
أهل تجارة لاعهد لهم بسواها من الحرف ، فاذا يفعلون بالارض التي أصابتهم ؟
هنا تجلت عظمة إيمان الانصار ، وجلال أخلاقهم ، وإيثارهم على أنفسهم . فقد
أصروا على أن يزرعوا أرضهم وأرض المهاجرين بأنفسهم ويقسموا حصولها مناصفة
فيما بينهم ويكفونهم العمل والماؤنة ، تعاونا منهم في بناء الأمة والمجتمع .
ومع ذلك فقد عمل كثير من المهاجرين في الزراعة ، كابى بكر وعمر وعلى وسواهم .
وعمل آخرون في التجارة ونجحوا فيها نجاحا عجيبا ، كعبد الرحمن بن عوف الذى
عرض أخوه الأنصارى سعد بن الربيع أن يشاطره ماله فابى وطلب إليه أن يدلّه
على السوق فتاجر وربح ، ولما توفى وترك ثروة واسعة قال أناس من أصحاب رسول الله :
إننا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك . فقال كعب : سبحان الله ولم تخافون عليه ؟ كسب
طيبا وأنفق طيبا وترك طيبا .

ولم يكن هذا هو العلاج الوحيد الذى عالج به الرسول الكريم مشكلة الفقر
في المدينة . بل خص المهاجرين ببعض الغنائم كأموال بنى النضير ، فلم يعط الانصار
منها شيئا ، إلا ثلاثة نفر محتاجين ، وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم
ودياركم وشاركتهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم
يقسم لكم شيء من الغنيمة ، فقال الانصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم
بالغنيمة ولا نشاركهم فيها . وهكذا كانت يد الانصار جلية على المهاجرين ؛ حتى
قالوا فيهم : ما رأينا مثل أنصار المدينة لقد أحسنوا مواساتنا ، وبذلوا الكثير ،
وأشركونا في المهنة حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

وحض الرسول على المحبة والتعاون والرحمة ، وعلى البذل والسخاء . والإيثار
والصدقة والاحسان وإطعام الجائع ومساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف : وشرع
فريضة الزكاة ، وجعل بيت المال في خدمة الفقراء . وكان الرسول يضرب في ذلك
أروع الأمثال ، ويؤثر على نفسه

قالت عائشة : ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا
لشبعنا ، ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا .

وذهب الرسول يعود ابنته فاطمة في بيت زوجها على بن أبى طالب ، فقال السلام

عليك يا بنتاه كيف أصبحت؟ قالت أصبحت والله وجمعة، وزادني وجهي أني لست أقدر على طعام آكله؛ حتى أجهدي الجوع، فبكى رسول الله، وقال: لا تجزعي يا بنتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث، وإنني لأكرم على الله، ولو سألت ربي لأطعمني، ولكنني آثرت الآخرة على الدنيا، أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة.

وحمل إليه صلوات الله عليه في يوم تسعون ألف درهم فوضعتها على حصير، ثم قام إليها فقسمها، فما رد سائلا حتى فرغ منها، وعاد لا يمسك منها درهما.

وكان المسلمون من الأنصار والمهاجرين يضربون المثل رائعا كريما في فضيلة الإيثار، نزل برسول الله ضيف، فلم يجد عند أهله شيئا، فدخل عليه رجل من الأنصار، فذهب بالضيف إلى أهله، ثم وضع بين يديه الطعام، وأمر أنه أن تطفي السراج، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل حتى أكل الضيف الطعام، فلما أصبح قال رسول الله: لقد عجب الله من صنعكم الليلة إلى ضيفكم.

وأهديت لعبادة بن الصامت هدية، وإن معه في الدار اثني عشر من أهل بيته فقال عبادة: اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج إليهم منا، قال الوليد بن عبادة: فأخذتها فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون، اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها، حتى رجعت الهدية ثانية إلى عبادة.

وحرم رسول الله الاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل، ودعا الأغنياء إلى التنازل لإخوانهم الفقراء عن بعض ما يملكون من أرض أو مال.

رسول الأفاضل الإنسانى



يذكر المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، كيف نشأ محمد في مكة فقيرا يتيمًا أميا ، وكيف قضى أيام طفولته وشبابه يقلب بصره في السماء حائرا يلتمس الهدى والنور ، معذبا يرثى لهذه الإنسانية التي أضلتها الأهواء والأوهام ، يقيم في مكة فيجد الأوثان والأحجار آلهة تعبد دون الله ، ويسافر إلى الشام حيث شعب المسيح فيرى التوحيد ينقلب شركا ، والرحمة التي دعا إليها المسيح تصير ضعفا وهوانا عند قوم ، وبغيا وعدوانا عند آخرين ، ويفكر في حاضر الإنسانية فلا يبصر بصيصا من نور ، ولا بارقة من أمل ، فالناس يعيشون في ظلمات من الجهل ، ويرسفون في أغلال ثقيلة من العبودية ، وأى امتهان لكرامة العقل الإنسانى أخطر من الحياة بين الجهل والعبودية والطغيان ؟ الناس طائفتان : طائفة ترتفع إلى صف الألوهية وأخرى تهوى إلى الخسيف ، والعقل البشرى في جمود وخمول ، يتخذ منهج الآباء شريعة ، ويرى تقليدهم واجبا مقدسا ، وأى حياة للحرية بين الجود والتقليد ؟ ثم يذكرون بعد ذلك كيف دارت الأيام ، وصار محمد الشاب الفتى رجلا حكيما ، ثم نبيا مرسلًا ، وداعية للطهر والتوحيد والحق والعدالة والحرية ، وهاديا للبشر كافة يجمعهم على كلمة واحدة ، ويدعوهم إلى شريعة سماوية طاهرة فيها الهدى والنور والأمل والخير والطمانينة والسعادة والحرية للناس جميعا ، لا فرق بين عنصر وعنصر ، ولا بين جنس وجنس ولا بين أمة وأمة ، الجميع عباد الله وأبنائه ، كلهم من آدم ، لا فضل لعربهم على أعجميهم ، وأكرمهم عند الله أتقاهم .

ويذكرون كيف حارب محمد الوثنية فانتصر عليها ونشر مكانها التوحيد والحرية والإخاء والمساواة ، وكيف قامت على مبادئه دولة لم تكن الشمس تغيب عنها ، ونمت على أساسها حضارة مشرقة استظل العالم بظلالها أحقابا طوالا ، وكانت نواة حضارة الغرب الحديثة ، وكيف قامت هذه الدولة على تقديس حرية الفكر والرأى والعقيدة ، حتى لقد تجاوزت الأديان الثلاثة في أملاك امبراطورية

المسلمين فلم نسمع إلا عدلاً ورحمة وتعاوناً وحباً أو تقديساً لحرية الدين ، ولا بدع
فقد كان التسامح الديني ، واحترام أهل الديانات السبوية والآخرى ، حقيقة واضحة
في سياسة الرسول وخلفائه ، فلقد آمن محمد صلوات الله عليه نصارى نجران على
حرياتهم الدينية كما فعل الفاروق عمر بن الخطاب مع نصارى الشام ، ولقد حارب
الرسول الأكرام في حياته الجود والتعصب القبلي والوطني المحدود ، وأحل محل
ذلك الإنسانية والعالمية بأوسع معانيهما ، فلم تعرفه أوروبا إلا في القرن العشرين ، وقرر
أن أصول الأديان ثابتة ، وإن الله شرع لعباده في الإسلام ما وصى به نوحا
وما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى .

ويذكرون ما سوى ذلك من ذكريات المجد التليد والعظمة الخالدة ، والعبقرية
الحقة والزعامة الصحيحة ، فيستبد بهم الإعجاب ، ويزدهيم الفخار ؛ ويقولون
سبحان الله !! إن هذه أيادي محمد السكرينة على الإنسانية لا يكاد يعيها العد ، وتنوء
الحياة بدين محمد الفادح عليها ، ويهت الفسكرون يجد أن هذا الأسمى العربي قد
بدل سير التاريخ ، وحول مجراه ، وغير مجرى الحضارة ، ونهج الإنسانية
مناهج لم تعرفها من قبل ولا من بعد ، لأنها خلاصة المثل العليا في الأخلاق
والفضائل والآداب وفي الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، وفي جميع شؤون الحياة
والتفكير ، وبحق إن محمداً لرسول الإخاء الانساني ، ونبي البشرية كافة ، والعبقري
المفدى الذي لم يلد التاريخ له مثيلاً طول الأجيال والقرون التي تعاقبت على
الحياة والناس .

كان ميلاد محمد ميلاد الحضارة والثقافة والمدنية والنور والهدى والخير والرحمة
والحرية والإخاء والمساواة والتعاون بين الناس كافة .

وبحق ما يقول « يوسورث سميث » : كان محمداً موفقاً توفيقاً فريداً في بابه لم
يحدثنا التاريخ عن مثله ، فقد جمع بين زعامات ثلاث ، هي زعامة الشعب وزعامة
الدين وزعامة الدولة ، وبرغم أنه كان أمياً ، فقد جاء بكتاب جمع بين البلاغة
والتشريع والعبادات ، وهو الآن موضع احترام أكثر من سدس العالم كمعجزة
هي دليل العقل والحكمة أكثر من أي معجزة سواها .

ويقول لامرئين الشاعر الفرنسي المشهور :

« أترون محمداً كان أخا خداع وتدليس ، وصاحب باطل ومين ؟ كلا بعدما وعينا »

تاريخه ودرسنا حياته ، فإن الخداع والتدليس والباطل والمين : كل أولئك من نفاق العقائد ، وليس للنفاق قوة العقيدة ، وليس للكذب قوة الصدق ، وإذا كانت قوة الصعود والرمى في علم الطبيعة والحركات الآلية هي المقياس الصحيح لقوة المصدر الرسمى الذى تنفذ منه الرمية وتظهر في الأفق من القذيفة ، فإن العمل والفعل الذى يحدثه المحدث ، في علم التاريخ وسجل الخلود وكتاب الإنسانية ، هو المقياس الصحيح لمقدار الوحي وقوة القلب والوجدان والفكر السامية العالية التى تنفذ إلى مكان بعيد ، وتبقى زمناً طويلاً ، وتمشى في الحياة أبداً . وهى بلاريب فكرة قوية صدرت عن وجدان قوى ، ولكى تكون تلك الفكرة قوية ينبغى أن يكون ظاهرها وباطنها الإخلاص ، وعلمها الأكبر الحق والصدق . ولا بد أن تكون معقولة يقبلها اللب ويعتمدها الذهن . ولا ريب أن ذلك ينطبق على محمد ورسائله والوحي الذى تنزل عليه . فإن حياته وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ، ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته ، وشهامته وجراته وبأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الاوثان ، وثباته وبقائه ثلاثة عشر عاماً يدعو دعوته في وسط أعدائه وخصومه في قلب مكة ونواحيها وبجائع أهلها . وتقبله سخرية الساخرين ، وهزؤه بهزم الهازئين ، وحميته في نشر رسالته ، وتوافره على السعى في إظهار دعوته ، وحروبه التى كان جيشه فيها أقل من عدوه ، ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالظفر . وإعلاء كلمته وإطمئنانه ورباطة جأشه في الهزائم . وأناته وصبره حتى يحرز النصر وطاعيته وتطلعه إلى إعلاء السكلمة الإلهية وتأسيس العقيدة الإسلامية ، لافتتح الدولة وإنشاء الامبراطورية وإقامة القيصرية ، ونجواه التى لا تنقطع مع الله ، وقبض الله إياه إلى جواره ، مع نجاح دينه بعد موته . كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمخداً أو يعيش على باطل ومين : بل كان وراءه عقيدة صادقة ويقين مضى في قلبه . وهذا اليقين الذى ملا روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فسكرة عظيمة وحجة قائمة ومبدأ مزدوجا ، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة : الأولى تدل على من هو الله ؟ والثانية تنفى ما ألصق الوثنيون به ، الأولى حطمت آلهة كاذبة ونكست معبودات باطلة . والاخرى فتحت طريقاً جديداً إلى الفكر ومهدت سبيلاً للنظر .

« قال فيلسوف والخطيب والرسول والمشرع والقائد ومسعر الحرب وفتح
أقطار الفكر ، وراى الانسان إلى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن
واللب ، ومؤسس دين لا وثنية فيه ولا صور ولا رقيات ، ومنشئ عشرين دولة
فى الأرض ، وفتح دولة واحدة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد : ذلكم هو محمد
فأى رجل لعمركم قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الانسانية
وكان أعظم منه ؟ وأى انسان صعد هذه المراقي كلها فسيكون عظيما فى جميعها غير
هذا الرجل ؟ » .

نبي السلام والحرية

المؤمنون بالحرية هم أكثر الناس إيماناً بالسلام : وحرصاً عليه لأنه سبيل الطمأنينة والكرامة الإنسانية : وليس يقدره إلا من قدر الحرية وأحبها ، وعرف أنها سبب العزة والحياة ، وباب التجديد والأمل والتقدم والمدنية . وما أروع مواقف سيدنا محمد صلوات الله عليه في تقرير هذه المبادئ الكريمة والدفاع عنها .

ومع أنه ولد في أرض خضبتها الدماء ، فقد كان بطل السلام ، وداعيته الكريم ، حتى رأيناه يشترك صغيراً في حلف الفضول : مع بني هاشم وزهرة وتيم ، يتعاهدون بالله المنتقم ، ليكون مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه ، وكان يقول : « لقد شهدت مع عمومي حلفاً في دار ابن جدعان ، ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولودعيت به في الإسلام لأجبت » ، ورأيناه يقف حكماً بين قبائل قريش ، حاسماً للنزاع الذي نشب حول بناء الكعبة ، وأياً يكون له شرف وضع الحجر الأسود في مكانه ، فيسود السلام مكة برأيه وحكمته .

كانت سياسته - صلوات الله عليه - اللين والشفقة والتواضع ، وتحيته « السلام عليكم ورحمة الله » ، عاش مؤمناً بالرحمة والمحبة والعاون والإخاء ، آخى بين المسلمين في المدينة ، وقرر أن المؤمنين إخوة في الدين وأن البشر جميعاً إخوان في الإنسانية ، وألقى الحواجز والفواصل بين الأمم ، ونزل القرآن الكريم يؤكد أن هدفه تعارف الشعوب : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا » . وكان السلام النفسى شعاره في أشد المواقف وأحرج الأزمات ، رأيت حين طارده المشركون في الطائف ، وقد أقبل يدعوهم لدينه ، كيف يجلس إلى ظهر بستان ، ويتوجه إلى ربه قائلاً : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ؛ يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، لم يمش محمد إلى الحرب ، إلا دفعاً للعدوان . ودفاعاً عن المظلومين ، وتأكيذاً للسلام والحرية ، حتى وقف وهو جدت السن . ينود عن حرية قومه في حرب الفجار . وحرم شن الحرب للسيطرة وبسط النفوذ والسلطان . أو الفساد والاستغلال والطغيان

ولم يجعلها وسيلة لنشر الدين ، بل اتخذ سبيله الإقناع والبرهان . وقال له ربه : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هي أحسن » .

وشريعة محمد صلوات الله عليه التى نزلت عليه ، وهى الإسلام ؛ اشتق اسمها من السلام ، وغايتها اليسر والسهولة والتخفيف على النفس ، ويلخصها لقومه فى كلمة واحدة ، حين مشى أشراف قريش إلى عمه أبى طالب ؛ يشكون ويضجون ، فقال له : يا عم كلمة واحدة يعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم ، : تقولون « لا إله إلا الله » ، وتخلصون ما تعبدون من دونه ، فسخروا منه . وقالوا : تريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب .

هذا هو محمد المبشر بالسلم ، والمشرع لمبادئه : فى الأسرة والمجتمع والأمة والإنسانية وبين الإنسان ونفسه ، أما محمد المدافع عز الحريات فان أمره لعجب ، أحب الحرية ، منذ طفولته ، ورثها عن قومه وبيئته ، ورياه الله عليها ، ونماها فى نفسه طبيعة الحياة فى وطنه ، فولد ونشأ كريماً أياً وفقى حراً عربياً ، يتجلى تقديسه لها فى إباته للضميم ، وغضبه للحق ، وإسراعه لنصفه الضعيف ، وفرضه الدفاع عن الوطن ومقاومة المعتدين والغاصبين ، وزيادة عن شخصية الإنسان وحقوق المستضعفين ، والذين كان الناس فى عصره ينسكرون أن يكون لهم حق فى الحياة ، كان إذا جلس فى المسجد فجلس إليه خباب وعمار وبلال ويسار وأشباهم ، هزأت بهم قريش ، وقالوا : هؤلاء أصحابه كما ترون ، هؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟ لو كان ما جاء به خيراً ما سبقونا إليه ، ولو طردهم عنه لجلسنا إليه ، فأنزل الله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه » .

قرر محمد وحى الحرية الشخصية ، وحرية الملك والمسكن والعمل والقول والاجتماع والفكر والعقيدة : ووصاياه فى رعاية حريات الناس والجماعات والأمم ، وتهذيبه للضمير الإنسانى ليراقب سلوك صاحبه حتى لا يظلم أو يعتدى على أحد ، مضرب الأمثال . وجاءت معاهدته الأولى مع المخالفين له من يهود يثرب خير تقريراً لحرية العقيدة والرأى . وحرمة المدينة والمال كما يقرر الباحثون .

حمى محمد حرية المرأة والرجل والعامل والخادم والرقيق . وحرر هو وخلفاؤه الأمم من العبودية والاستكانة . وطالب الطغاة بأن يطلقوا لرعاياهم المروعين حريتهم ،

كما طالب المستضعفين بأن ينفروا من الذلة والهوان فقال : « من أعطى الذلة من نفسه
طائعا غير مكره فليس مفي . » وحرم الاستبداد والاستعمار واستغلال الشعوب ،
وألقى العصبية والامتيازات والفروق الطائفية والعنصرية ، فالناس سواء كانوا
المشط . لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي . ولا لأحمر على أبيض ،
ولا لأبيض على أحمر ، إلا بالتقوى والعمل الصالح . وليس هناك شعب له حقوق
في السيادة على غيره من الناس .

هذا هو محمد الداعي إلى السلم والحرية . والذي لم يلبس مسوح السلام ليخدع
الناس ويفرر بالشعوب . والذي حطم الشرك والوثنية ، وهدم عروش الطغمان
والجبروت . وألقى الرق البشري ، وأبقى أسرى الحروب المشروعة في نطاق واسع
من الشرف والكرامة . والذي دعا إلى عالم واحد ، وحكومة واحدة ، تخضع لأسمى
المبادئ ، وتؤمن بأكرم الأهداف وتطبقها ، والذي نفخ في أوراخ المستعبدین :
أن هبوا ، فهذا عصر جديد من الحرية والكرامة ، ليس هناك سيد ومسود . إنما
السيادة لله ولرسوله ، وللمبادئ الحق والعدالة والمساواة .

يوم خالده !

ذلك هو يوم ذكرى الإسراء والمعراج الحية الباقية أحاديثها العاطرة على مر الأيام .. إن هذه الذكرى الإسلامية المحمدية الخالدة ، وملك الليلة النبوية السكرية الزاهرة ، وهاتيك المعجزة التي لم يع مثلها سمع الزمان ؛ ولم تسجل شديها لها أسفار الخلود ، إن هي إلا معجزة كبرى ، ومثقة عظمى ، وآية باقية ، للرسول الأعظم ، محمد صلوات الله عليه ، ولمن آمن به وصدق برسالته .

ولا يزال نشيدها الرائع ملء القلوب والأرواح والاسماع ، لأنها من صنع الله وقدرته ، ومعجزة دونها المعجزات ، وكرامة يحار الفكر في فهمها ، ولا يزال العلم مع ما وصل إليه من ازدهار عاجزاً عن إدراك كنهها . حائراً حيال روعتها وجلالها .. لأنه هكذا شأن المعجزات .

لقد خص الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بكرامه ملؤها الكرامات . هي كرامة الاسراء ، وإمامة الأنبياء ، والعروج إلى ملك الله وسماواته ، ورؤية المولى جل جلاله ومناجاته ، والوقوف بسدرة المنتهى ، وما رأى من آيات ربه الكبرى ، واحتفاء الملائكة والسكون والأنبياء به ، ودعواتهم الصالحات له في كل خطوة خطاها ، كما خص الأنبياء والرسل قبله بكرامات ومعجزات .

وقعت معجزة الإسراء والمعراج في مكة ، قبل الهجرة ، بهام واحد على الصحيح ، بروح محمد وجسده معا ، وهو في حال اليقظة الثامة ، في ليلة واحدة هي ليلة السابع والعشرين من رجب ، على ما عليه إجماع جمهور العلماء والمسلمين .. مما تؤيده الأحاديث النبوية الصحيحة الكثيرة ، ومما خلد ذكره القرآن الكريم ، إذ سجل قصة الإسراء في قوله تعالى : «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، الذي باركنا حوله » انزبه من آياتنا . إنه هو السميع البصير . كان جهاد الرسول صلى الله عليه حينئذ قد بلغ الذروة في سبيل الرسالة العظيمة التي بعثه الله بها ، ليبلغها للناس كافة ، وهي رسالة الخير والطهر ، والعزة والسمو والفضيلة ، والمحبة والحرية والمساواة ، والسلام والإسلام ...

وكان اضطهاد مشركي قريش ومكة والعرب له ومن آمن به يومئذ قد بلغ الغاية ،
وكان الرسول الأعظم يومئذ قلق الفكر ، مشرد الخاطر ، لا يدري أيا ن نصر
الله ، وكيف ومتى توأد الوثنية ، ويضيء العالم نور الإسلام .

وفي ليلة رهيبة ، كتب الله لها العزة والخلود على وجه الزمن ، كان الرسول
نائما في بيت عمته أم هانيء بنت أبي طالب بمكة ، فنزل جبريل عليه من السماء ، فأيقظه ،
وأخذه بيده ، ومسح صدره المطهر بيد الأمان والإيمان والطهر والحكمة ، ثم أتاه بدابة
فركبها ، وأسرى به ليلا من المسجد الحرام في مكة ، وأراه الآيات الكبري فيما بين
السماء والأرض ، حتى انتهى إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس ، ثم أذن مؤذن ، فأقيمت
الصلاة ، فأخذ جبريل بيده ، فقدمه فصلى بالملائكة والأنبياء إماما ، فلما قضيت الصلاة
قال جبريل : هذا محمد رسول الله خاتم النبيين ، قالوا : حياه الله من أخ وخليفة ، فنعم
الأخ ، ونعم الخليفة

ثم انطلق به جبريل ، فشق به الحجب ، واخترق الآفاق ، وصعد إلى السموات ،
يخترقها سماء بعد سماء ، والملائكة تحيييه ، والأنبياء والرسول تناجيهم وتناديه ، والكون
يهتف باسمه ، والوجود كله يترنم بذكره ، والحياة ضاحكة مستبشرة .
حتى انتهى إلى البيت المعمور ، فسدره المنتهى ، تغشاها أنوار الجلال والجمال ،
ويخاطبه مولاه الكبير المتعال ، حينئذ رأى النور الأعظم ، وأوحى الله إليه ما شاء
أن يوحى ، وخصه بالنعمة والكرامة ، ومنحه الخير والرضاء والمحبة ، وفرض عليه
وعلى من آمن به الصلاة ، وجعله خاتم الأنبياء ، والشفيع المشفع ، في الخلق يوم
القيامة

قالت أم هانيء عمة رسول الله : ما أسرى برسول الله صلى الله عليه إلا وهو
نائم عندي تلك الليلة في بيتي ، فصلى العشاء الآخرة ، ثم نام ونمنا . فلما كان قبيل
الفجر أهبنا برسول الله ، فصلى وصلينا معه ، وحدثنا الحديث . ثم قام ليخرج حين
بزع ضوء النهار ، فأخذت بطرف رداءه ، فقلت ، يا نبي الله لا تحدث بهذا الحديث
الناس فيكذبوك ويؤذوك ، قال : والله لأحدثنهموه ، وخرج فأخبرهم ، فعجبوا
وأثكروا وهزئوا وسخروا ، وارثد منهم كثير ممن كان أسلم برسول الله . وجاء أبو
بكر ، وسمع ما سمع . فقال : يا نبي الله صدقت ، أشهد أنك رسول الله ! فسماه رسول
الله من يومئذ الصديق

هذا هو حديث الاسراء والمعراج ، وما كان فيه من بلاء وتمحيص وعبرة لأولى

الآل باب ، وهدى ورحمة لمن آمن بالله ، وصدق برسالة الإسلام . وكان من أمر
الله على يقين . وما فيه من معجزات ناطقات بجلال الإسلام ، وعظمة نبي الإسلام .
والعقل اليوم يجب أن يكون أقرب ما يكون إلى تصديق هذه المعجزة الكبرى ،
بعد ما بلغت المعرفة الإنسانية ما بلغت من ازدهار ، وأدركت ما أدركت من قوى
الكون وأسرار الوجود ، في عصر الكهرباء والذرة .
أنرى الإنسان يطير في السماء بآلة مصنوعة ، ونرى التنويم المغناطيسى وتصرف
الروح في الجسم وإثماره بأمراه ، ونقرأ ما أثبتته علماء الاسبرتزم والابنوتزم بالتجارب
العديدة التى تسلطت فيها خصائص الروح على طبيعة الجسم حتى لم يكن للمؤثرات
الخارجية عليها من سلطان ، . ثم لا تؤمن بالاسراء والمعراج ؟ . كلا والله .
والعلماء اليوم يحاولون بقدرتهم الإنسانية المحدودة أن يصلوا إلى المريخ والقمر ،
فهل تعجز قدرة الله عن أن تصعد بانسان فى لحظة إلى سماواته ، ليقف خاشعا أمام
جلاله وعرشه ؟ كلا والله .

البَابُ الثَّالِثُ
كتاب الإنسانية الخالد

كتاب البشرية

القرآن كتاب الله المعجز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
تنزيل من حكيم حميد .

آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا وانتظمت سعادة الأولى والآخرة ،
ونزلت هدى ونورا للبشر كافة ، وقضت على هذه الآوهام الباطلة ، والاساطير
السكاذبة ، والعبادات الضالة ، والأديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياء والشقاء سعادة
والياس أملا ، والضلال هدى ، والهمجية مدنية والجمل علما ومعرفة وفنا وأدبا وثقافة ،
نبتع من معينها الزاخر كل من رغب في الخير وطمح إلى السلام والنور ، ونقلت
الإنسانية من عصر تسوده الفوضى وتذيع فيه مبادئ الطغيان والعبودية وسفك
الدماء ونهب الأموال والأعراض ، إلى حياة فيها رضى وأمن ، وطمأنينة وسلام ،
وحرية وعدل وإخاء ، ومعرفة وعمران وحضارة ، وحدود محدودة وضعت لسعادة
الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة .

قبس من الهدى والنور ، نزل به جبريل من السماء إلى الأرض ، على سيد الخلق ،
وأكرم الرسل ، وأشرف من في الوجود ، محمد صلوات الله عليه . فبلغه الناس ، وبشر
بدعوته العرب والبشر كافة ، وأذاع مبادئه في كل مكان ، خملت إلى العالم السلام
والعدل والحرية ، وفتحت صفحة جديدة في تاريخ الإنسانية ، وأنقذت الناس من
ضلال الجاهلية الأولى ، فتبارك الله رب العالمين .

« ألقاظ إذا اشتدت فامواج البحار الزاخرة ، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة
الآخرة ، ومعان ينهاى عنوبة ترويك من ماء البيان ، ورقة تستروح منها نسيم
الجنان ، إذا هي بعد ذلك لطباق السحاب ، توهما السحرا توهموه ، فلما أنزل الله
كتابه قالوا هو السحر المبين » (١) ، وتصوروا الشعر ما تصوروه ، فلما سمعوا آياته

البينة ، وبلاغته المدفقة ، ورأوا هدايته النادرة ، وفصاحته الباهرة ، وما فيه من روعة
التصوير ودقة التعبير وشدة التأثير ؛ قالوا : إى والله إنه لشعر شاعر ، وسحر ساحر ،
إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، كلا والقمر ، والليل إذا أدبر ،
والصبح إذا أسفر ؛ إنها إحدى الكبر ، وما هو بقول بشر ، إن هو إلا وحي يوحى ،
ومعجزة تتحدى ، وبلاغة تتلى وتروى ، أشرقت بنوره السماء والأرض ،
واهتمت بهديه الملائكة والبشر أجمعون .

دستور الإسلام

وآراء مفكرى الغرب فيه

القرآن الكريم كتاب الله الخالد ، ودستور الإسلام الإلهى الحكيم ، والذي آمن به كل مسلم ومسلمة ، وهو معجزة محمد الباقية على أمد العصور والدهور ، وهو كتاب الله المعجز الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

نزل فى آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الأولى والآخرة ، وكانت هدى ونوراً للبشر كافة ، حيث قضت على الأوهام الباطلة والأساطير الكاذبة والعبادات الضالة ، والأديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياءً والشقاء سعادة ، واليأس أملاً ، والضلال هدىً والهمجية مدنية أو الجهل علماً ومعرفة وثقافة ، نبع من معينها الزاخر كل من رغب فى الخير ، وطمح إلى السلام والنور ، ونقلت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى ، وتذيع فيه مبادئ الطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال والأعراض ، إلى حياة فيها رضى وأمن ، وطمأنينة وسلام ، وحرية وعدل وإخاء ، وعمران وحضارة ، وحدود محدودة ، وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة .

وبينما كان الرسول الأعظم ، محمد بن عبد الله ، صلوات الله عليه ، يتعبد فى غار حراء فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده الكريم ، وسنه أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام ، أى فى السادس من شهر أغسطس عام ٦١٠ م .. نزل عليه جبريل بالرسالة الإلهية العظمى التى اصطفاها الله من بين الخلق لأدائها للبشر كافة : هدى ونوراً وشفاء لما فى الصدور .

قال جبريل : يا محمد اقرأ

قال : ما أنا بقارىء

قال : اقرأ

قال : ما أنا بقارى .

قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك
الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

فكانت أول سورة نزلت من القرآن الكريم .

وقد نزل الذكر الحكيم فى أسلوب لا يضارعه أسلوب ، فلا هو شعر ولا هو سهج
ولا هو مزاجية ولا هو نثر مرسل ولا خطابة . إنما هو نظم رائع والفاظ عذبة
ومعان سامية حسيمة ، وجلال وروعة . جمع بلاغة جميع أساليب البيان ، وفصاحة
شئ خصائص النظم ، واستوفى كل عناصر الإعجاز .

والمفكرون من الغرب يقفون أمام القرآن الكريم مذهولين مشدوهين متحيرين ،
مقرين بعظمته وجلاله ، وعبقري أثره على الحياة والإنسانية .

يقول الدكتور موريس الفرنسى :

« لقد قلقت نفسى ، واضطربت حواسى لقول المسيورينان ، : إن القرآن
غير فصيح ولا بليغ . إذ لو جاز لامرئ غير مسلم أن يرتاب فى صدق القرآن
وصحة دعواه ، فلا يجوز له أبدا أن يرتاب فى صحة عبارته ، وكونه فى الذروة والسنام
من الفصاحة والبلاغة . بل لنا أن نقول : إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية
الآزلية لبني البشر . فهو قد تضمن أناشيد لإسعادهم خيرا من أناشيد فلاسفة
اليونان ، وقد استوعب بين دفتيه الثناء على مبدع السموات والأرض ، وتمجيد
الله سبحانه . . . إن مزايا القرآن الأولية ، وأركانه الأساسية ، إنما هى فى صحته
وحقيقة مبانيه ، وأنه كتاب لا ريب فيه .

ويقول هنرى دى كاسترى : لو لم يكن فى القرآن غير بهاء معانيه ، وجمال مبانيه ،
لكفى بذلك أن يستولى على الأفكار ، ويأخذ بمجامع القلوب . ولقد نزل على
محمد دليلا على صدق رسالته ، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سرا من الأسرار ، التى يتعذر
فك طلاسمها ولن يسبر غور هذا السر المستكنون ، إلا من يصدق بأنه منزل من الله
وقال جميعيون :

القرآن مسلم بأنه الدستور الأساسى ، ليس لأصول الدين فحسب ، بل وللأحكام
الجنائية والمدنية ، وللشرائع التى عليها مدار حياة النوع الانسانى ، وترتيب شئونه .
وبعبارة أخرى هو القانون العام للعالم الاسلامى ، فهو قانون شامل للقوانين المدنية
والتجارية والحربية والقضائية والجنائية .

وقال يوروث سميث :

من حسن حظ التاريخ أن محمداً أسس في وقت واحد ثلاثة أشياء من عظام الأمور، وجلال الأعمال . فإنه مؤسس لامة وامبراطورية وديانة .. ومع أنه أمى فقد أنى بكتاب هو آية في البلاغة ، ودستور للشرائع وللصلاة والدين في آن واحد ، وهو كتاب مقدس إلى هذا اليوم عند سدس العالم ، وهو معجزة محمد القوية ، وحقاً إنه لمعجزة وقال المسيوليون :

حسب هذا الكتاب جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرناً التي مرت عليه لم تستطع أن تجفف .. ولو بعض الشيء .. من أسلوبه الذي لا يزال غصا ، كأن عهده بالوجود أمس .

ويقول جوستاف لوبون :

إن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب الأولية ، حتى إن قبوله آخذ حكمه على مر الأيام ، لا يعوقه عائق . وقال جوته :

إن هذا الكتاب سيجافظ على تأثيره إلى الأبد ، لأن تعاليمه عملية مطابقة للحاجات الفكرية ، لقوم معتزين بتقاليدهم ، متمسكين بعاداتهم القديمة . وقال كارليل :

إن علوية القرآن في حقيقته العالية ، فهو حافل بالعدل والإخلاص ، والدعوة التي بلغها محمد إلى العالم حق وحقيقة . ويقول مانويل كنج من محاضرة له :

إذا كان في عالم الإلهام أمر يدعى وحياً ، وكان للوحى وجود كامل ، فلن يشك في أن القرآن كتاب منزل .

وقال سديو في كتابه «تاريخ بلاد العرب» : القرآن جامع لكل أسس الأخلاق والفلسفة .

وقال الفيلسوف الفرنسي ألكسي لوازون : خلف محمد للعالم كتاباً هو آية البلاغة ، وسجل الأخلاق ، وهو كتاب مقدس . وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية ، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية .

وقال الكاتب الأمريكي واشنطن ايروينج : يحوى القرآن أسس المبادئ وأكثرها فائدة وإخلاصاً .

القرآن

هادى الانسانية

طبع القرآن المسلمين الأولين على مكارم الخلق ، ونبل النفس ، وقوة الإيمان ، وجلال التضحية ، وجمال الإيثار ، وبث فيهم الشعور بالمسئولية ، ونأى بهم عن الرذائل والمنكرات والشبهات ، وسار بهم إلى طاعة الله ومرضاته ، وحبب إليهم العدل والانصاف ، حتى اقد قتل عمر بن الخطاب خليفة المسلمين بيد خائن غادر لثيم ، فتسكالب المسلمون على ابن ملجم ، فقال لهم عمر وهو فى الرمح الأخير : أطيبوا طعامه ، وألينوا فراشه ، فان أعش فأنا ولى دمه ، إمامفوت وإمامقصص ، وأن أمت فألحقوه بى ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .. فلم يصيخوا الكلامه فنادى فى أهله : يا بنى عبد المطلب لا ألقىنكم نخوضون فى دماء المسلمين خوفا ، انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه ، فاضربوه ضربة بضربة ، ولا يمثل بالرجل ، فإنى سمعت رسول الله يقول : « إياكم والمثلة ولو بالسكب العقور » .

هكذا كان المسلمون الأولون « ولو وازنت بين ما قاله عمر ، وبين ما فعلوه فى أمريكا من القضاء على نحو أربعائة نفس ، انتقاما من أهل جزيرة حاول اثنان من أهلها قتل ترومان لاستبداد حكمه بأهل الجزيرة ، ولو رأيت ما يفعله الحكام بالمحكومين حين يقتل منهم واحد ، لهالك الفرق بين عدالة الاسلام وعدالة الشرائع الوضعية الحديثة ، ولقد مجد المؤتمر الدولى الذى اجتمع فى لاهى منذ أعوام الشريعة الإسلامية التى قامت على أصول القرآن ، وأشاد بفضلها ، فسجل فى قراراته أن الشريعة الإسلامية ، تحمل العناصر الكافية ، التى تجعلها صالحة للتطور مع حاجات الزمن » .

هدى القرآن الإنسانية كلها بما أذاعه من مبادئ سامية ، حاربت الفوضى والظلم والوحشية والظلم والرق ، ونشرت فى العالم كله راية الأمان والسلام والإخاء والحرية والمساواة والديمقراطية والتعاون والمحبة بين الناس كافة ... اعترف القرآن للمرأة بحريتها وحقها فى الحياة ومساواتها للرجل فى شئون الدين والمال

والحقوق والواجبات ، واعترف بحرية الانسان وكرامته في الحياة ، وبحرية الجماعات والامم والشعوب ، وحارب العنصرية وحمية الجاهلية حربا لا هوادة فيها ، وسأوى بين الناس كافة ، وجعل الناس إخوة ، تجمعهم صلات قوية في الله : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكروا أنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، وحرّم الخمر والزنا والبغى والعدوان والظلم والسرقة ونهب أموال الناس بالسباطل ، والمنكرات والردائل ما ظهر منها وما بطن ، والميتة والدم ولحم الخنزير ، وأعلن حرية الرأي والعقيدة ، ولا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

ورفع علم الشورى والديمقراطية والتعاون في خدمة المجتمع والسلام الإنسانية . وحارب الترف الذي هو ألد أعداء الحضارة والتقدم ، والذي سجل بيتان خطره على كيان الأمم بعد هزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثالثة بيد الألمان ، فقال : « لقد أتت الهزيمة من الانحلال ، فدمرت روح الملذات واللهو ما شيدته روح التضحية . . . وحافظ الإسلام على كرامة الأسيرة وعفاف المرأة وشرفها ، فأقام الأسرة على أسس سليمة قوية لا يعتريها وهن أو انحلال . . وحث على الإيثار وأن ينصب الفرد نفسه في خدمة الفرد والجماعة . وأتى بأحدث المعارف في خلق العالم وشئون الاجتماع وقوانين الصحة ، ونظم الاقتصاد وفي السياسة . وحرر الفكر الإنساني من جموده ، وكشف بجاهل التاريخ وأحداثه ، ووضع أصول المدنية الفاضلة . وحث على العلم والمعرفة وعدم الشرك والوثنية ، والآهواء والأضاليل والآوهام الفاسدة ، والأساطير الكاذبة ، ووضع أصول العبادات والمعاملات الحسنة بين الناس ، وشرع الصلاة والزكاة والصوم والحج ، ودعا إلى الطهارة والنظافة وجمال المظهر وكال المنحبر .

وبعث الطموح والأمل والحياة في النفوس الإنسانية ، لتعمل وتسكد ، في سبيل بناء الحضارة وعمران الدنيا .
وغرس الزهد والقناعة وحب الخير والحق والعدل والإنصاف في كل قلب ، فهل وراء ذلك غاية لطامع ، وأمل لإنسان أو مصلح ؟
حقا إن القرآن دستور الإسلام ، وهادى الإنسانية الأمين ، ومنقذها من الضلال والظلام .

نزول القرآن

بينما كان الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلوات الله عليه يتعبد في غار حراء ، في يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده الكريم ، وسنه أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام ، أى في السادس من شهر أغسطس عام ٦١٠ م (١) ، نزل عليه جبريل بالرسالة الإلهية العظمى التي اصطفاه الله من بين الخلق لأدائها للبشر كافة : هدى ونورا وشفاء لما في الصدور .

قال جبريل : يا محمد اقرأ

قال : ما أنا بقارىء

قال : اقرأ

قال : ما أنا بقارىء

قال : «اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم» .

فكانت أول سورة نزلت من القرآن الكريم (٢)

وأول سورة أعلنها الرسول بمكة هي « والنجم إذا هوى ،

وأول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة هي « ويل للطففين ،

استمر نزول القرآن بعد البعثة في مكة قبل هجرة الرسول صلوات الله عليه ،

ثم بعد الهجرة والرسول الأكرم بالمدينة ، حتى توفي إلى رحمة الله عام ١١هـ - ٦٣٢م

كان القرآن الكريم ينزل منجماً مفرقاً وفق الوقائع ، ومسيرة للحوادث ، وتدرجاً

في التكليف ، وتنقلاً بالتشريع حسب الطباع ومدى استعداد النفوس ؛ وكانت آخر

(١) سار على ذلك كثير من الباحثين ومنهم المرحوم الخضرى بك في الجزء

الأول من تاريخ الامم الإسلامية ، وإن كان الرافعى يقول إن ابتداء الوحي كان بمكة

عام ٦١١ م (٣٤ إعجاز القرآن)

(٢) يروى السيوطى آراء أخرى لبعض العلماء ، فبعض يزعم أن دن ، كانت

أيضاً أول ما نزل من القرآن ، وآخرون يقولون المدثر ، وآخرون يقولون إنها

الفاتحة الخ (راجع ٢٩ وما بعدها ج ١ من الإتيقان ط ١٩٤١)

آية نزلت من القرآن الحكيم قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » (١) ، حيث نزلت في حجة الوداع ونزل قبلها بتلليل سورة براءة .

وتم نزول القرآن الكريم قبل وفاة الرسول صلوات الله عليه في ثلاثة وعشرين عاماً ، ما بين بعثته إلى وفاته ، كان في ثلاث عشرة سنة منها يقيم بمكة ، وطنه الذي ولد وربى ونشأ فيه ، وفي عشر السنين الأخرى يقيم بالمدينة بعد هجرته صلوات الله عليه من مكة حيث نشر الدعوة وحماها وأيدها .

وبمجموع سور القرآن الكريم أربع عشرة ومائة سورة ، منها الطويل والقصير ، ومنها ما نزل في الموعظة والهداية ، وما نزل في التوحيد ومحاربة الشرك والأهواء ، وما نزل في التشريع ونظم العبادات والمعاملات وقوانين الأسرة والجماعة والحكومة الإسلامية ، وما نزل في أمور الآخرة والغيب وشرح تطور الإنسانية وقصص الأمم الماضية وبغيتها ومصيرها المحتوم ، أو نزل في شرح أسرار الوجود ومظاهر الغيب وأمر الآخرة ، وتشتمل السور على كثير من هذه الأغراض الموحدة .

والسور قسمان : مكي ومدني

فالمكي منها على أرجح الآراء هو ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعدها (٢) والسور المدنية اثنتان وعشرون سورة تبلغ نحو ثلث القرآن الكريم وهي : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والنور والأحزاب والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق والتحريم والعصر .

وما عدا هذه السور وهي اثنتان وتسعون سورة فهو مكي

(١) وفي الإتيان خلاف كثير حول آخر ما نزل من القرآن ، فقليل آخر آية نزلت : « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة » ، وآخر سورة نزلت « سورة براءة » ، وقيل آخر آية نزلت آية الربا ، وقيل : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » - وكلن بين نزولها وبين موت الرسول أحد وثمانون يوماً وقيل تسع ليال ، وقيل آخر براءة الخ (٤٤ / ١ الإتيان وما بعدها)

(٢) راجع ١٣ / ١ الإتيان للسيوطي ، وقيل المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة . وقيل المكي ما كان خطاباً لأهل مكة ، والمدني ما كان خطاباً لأهل المدينة (١٣ و ١٤ / ١ الإتيان) . وهذا وتسمى السورة مكية إذا كان أغلبها مكيًا وتسمى مدنية إذا كان أكثرها مدنيًا ،

سُورَةُ الْقُرْآنِ

مكية ومدنية

أما السور المكية فأظهر موضوعاتها هي .

- ١ — الدعوة إلى توحيد الله ومحاربة الشرك والأوثان
- ٢ — تأييد رسالة محمد صلوات الله عليه وتحدى العرب بهذه المعجزة الخارقة ألا وهي القرآن الكريم .
- ٣ — إثبات البعث والحساب والنشور واليوم الآخر والرد على من ينكر ذلك في إفاضة وقوة حجة وتأثير
- ٤ — قص قصص الأمم القديمة وعنادها وحجاجها مع الرسل والأنبياء وإصرارها على الضلال وما حل بها من المثلث تبصرة وذكرى لقوم يؤمنون
- ٥ — محاربة التقليد ودعوة العقل البشري إلى الاستقلال بالتفكير واتباع الحق من العقائد والطاعات ونبتذ الأوهام والأساطير والخرافات والتفكير في نواميس الله في الكون .

وأما أهم موضوعات السور المدنية فهي ما يلي :

- ١ — تشريع النظم والقوانين للفراد والأسرة والجماعة والأمة لتسير الإنسانية إلى حياة كريمة مهيبة تليق بكرامة الإنسان خليفة الله في الأرض ، إلى الفضيلة والخير والعدل والحق والأمن والسلم والعمران والحضارة .
- ٢ — الدعوة إلى الفضائل ومحاربة الرذائل بكل سلاح وكل وسيلة
- ٣ — تقرير وحدة الإنسانية والأخوة البشرية العامة وتعزيز الصلات الاجتماعية بين الإنسان والإنسان ، وإلغاء الفروق بين الطبقات والجماعات والشعوب ، ورفع كرامة الإنسان الأدبية في الحياة ، وتعزيز شخصية الإنسان وإيضاح رسالته ورسم الأهداف الكريمة التي يجب أن يسير إليها ويعمل لها في الحياة

٤ — وضع شرائع الحرب والسلام ، التي تسير مع الإنسانية العالية ، وتوافق مصالح البشر في الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان وعلى العموم فالسور المدنية احتوت على أكثر التشريع الإسلامي وأودعت أعظم الآداب الإجتماعية والسياسية ، التي تؤلف القلوب ، وتحوط الملك وتصور الشعوب وقصارى الكلام أن القرآن كتاب هداية ونور ودين ودنيا وخير عام ، وهو دستور الإنسانية المهدبة ، ووثيقة الحرية والمساواة والإخاء ، التي نالها الإنسان على طول الأيام والاحقاب .

جمع القرآن

الجمع الأول :

كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن - ابتداء أو بأمر الرسول صلوات الله عليه - على ما يتفق لهم من العسب والألواح والرقاع والخاف (١) وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع وكل ما صلح للكتابة .

كان كل يكتب ما تيسر له كتابته ، وكان منهم بعض قليل كتبوا القرآن كله والاجماع على : علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت (٢) ، وقبل وفاة الرسول عرض زيد القرآن عرضة على رسول الله صلوات الله عليه ، ففي عهده صلوات الله عليه كان القرآن مرتب السور والآيات ولكنه غير مجموع في كتاب واحد .

وكان يحفظ القرآن كله أو بعضه كثير من الصحابة في عهده عليه الصلاة والسلام ، وتوفي الرسول والقرآن محفوظ في صدور الصحابة وفي الرقاع التي كانوا يكتبون آياته وسوره فيها .

وتقلد أبو بكر خلافة المسلمين . ونهض بعبد الدعوة النبوية ، وأخذ يحارب أهل الردة في معارك كثيرة ، كان منها عزوة أهل اليمامة التي مات فيها كثير من الصحابة والقراء رضوان الله عليهم ، ويقال إن عدد من قتل فيها سبعون قارئاً من الصحابة ، وخيف أن يكثُر موتهم في الغزوات والحروب .

ففزع أبو بكر وعمر عليهما رحمة الله من ذلك ، ورأى عمر جمع القرآن من صدور

(١) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل وكانوا يكشطون الخوص عنه ويكتبون في الطرف العريض . والخاف جمع خفة بفتح فسكون وهي صفائح الحجارة

(٢) يروى أن زيد بن ثابت تعلم الفارسية من رسول كسرى ، والرومية من حاجب النبي ، والحبشية من خادم النبي والقبطية من خادمه أيضاً (ص ٦٣٦ العقد) .

وكان كتاب الوحي حول رسول الله نحو الأربعين منهم جملة الصحابة رضوان الله عليهم .

الصحابة ومن الألواح والعسب والاكشاف ، ويروى أنه دخل على أبي بكر فقال له : يا خليفة رسول الله إن أصحاب الرسول باليمامة يتهافتون تهافت الفراش في النار وإنني أخشى أن لا يشهدوا موطننا إلا فعلوا ذلك حتى يقتلوا ، وهم حملة القرآن ، فيضيع القرآن وينسى ، فلو جمعته وكتبته (١)

فكر أبو بكر في الأمر واستشار فيه الصحابة ، وكان يفزع من أن يضع شيئا لم يأمر به الرسول الأعظم صلوات الله عليه ، ولذلك قال أبو بكر لعمر : أفعل ما لم يفعل رسول الله صلى عليه وسلم !!

وأرسل أبو بكر إلى زيد بن يزيد يستشير في الأمر ، فذكره ذلك ، فقال عمر لهما : وما عليكما لو فعلتما ذلك حتى ألهمهما الله به ، فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمع القرآن كله من الرقاع وصدور الرجال ونسخه في قطع الأديم والأكشاف والعسب ، وسمى أبو بكر هذه الألواح المسكتوبة التي جمع فيها جميع القرآن الكريم مصحفا ، وحفظت هذه الصحف عند أبي بكر حتى توفي ، ثم عند عمر طول حياته ، ثم حفصة بنت عمر صدرا من ولاية عثمان

وهذا هو الجمع الأول ، وقد حدث في عهد أبي بكر على يد زيد بن ثابت (٢) وبإشراف الخليفة وعمر وكبار الصحابة ، وكان الغرض منه جمع نص القرآن الكريم في مجموعة واحدة ، حتى لا يضيع شيء منه بموت الصحابة والقراء في الغزوات والحروب

الجمع الثاني :

وفي عهد عثمان تفرق الصحابة والقراء في الأمصار ، فكان ابن مسعود في الكوفة وأبو موسى الأشعري في البصرة والمقداد بن الأسود في دمشق ، وأخذ عنهم أهل تلك البلاد وجوه القراءة والترتيل ، مما أدى إلى تعدد القراءات واختلاف المسلمين في قراءة القرآن اختلافا كثيرا ، حتى كان الواحد منهم يقول الآخر ، قراءتي خير من قراءتك ، والآخر يقول : بل قراءتي ، واستمر الأمر على ذلك إلى أن شهد حذيفة ابن اليمان وهو صحابي جليل غزوة أذربيجان وغزوة إرمينية وشاهد هذا الاختلاف

(١) راجع في ذلك الاتقان ٩٨ / ١ وما بعدها .

(٢) وكان يعاونه بعض كتاب الوحي وفيهم سالم مولى أبي حذيفة كما يروى

الويل وحذر من سوء المصير إذا استمر هذا الاختلاف .

فأرسل عثمان إلى حفصة يستأذنها في أخذ الصحف التي جمع فيها أبو بكر القرآن فأذنت له ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام وسعيد بن العاص بأن ينسخوها في المصاحف ، وأمرهم بأن يرجعوا فيما اختلفوا فيه إلى زيد بن ثابت ، وما اختلفوا فيه جميعا أن يكتبوه بلسان قريش ، فان القرآن نزل بلسانهم ، فكتبوا مصحفا عرضه على صحف حفصة ، فلم يختلف في شيء ، فرد عثمان صحف حفصة إليها ، وفرح بما عمل فرحا شديدا

حروف القرآن

الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن كانت مفرقة فيه ، فبعضه نزل بلغة قريش ، وهو معظمه ، وما نزل بهذ اللغة كتب بها أيضا ، وبعضه نزل بلغة هذيل ، وبعضه نزل بلغة اليمن فكُتِبَ بلغتهما ، وهكذا . ولا يخفى أن القبائل التي نزل بعضه بلغتها يجوز لها أن تقرأ جميعه بهذه اللغة لأن في نزول بعضه بلغتها ترخيصا لها في قراءته جميعه بهذه اللغة ، فالذي حصل في زمن أبي بكر رضي الله عنه هو أنه جمع الآيات المتفرقة سورا فجعل كل آية بجوار صاحبها طبقا للمحفوظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون زيادة ولا نقص ، فجعل كل سورة على حدة ولم يرتبه اكتفاء بترتيبه في صدور الحفاظ ، على أنه لم يغير شيئا من المكتوب بل أبقاه على حاله ، وأما عثمان رضي الله عنه فقد كتب مصحفا بلغة قريش خاصة ورتبه طبقا للمحفوظ

فالأحرف السبعة كان بعض القرآن مكتوبا بها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما أنها كانت محفوظة يتداولها الحفاظ في القبائل ، ولم يوجد منها شيء في مصحف عثمان ، لأنه كان مقصورا على لغة قريش .

أما السبب في اختلاف القراءات السبع بعد أن جمع عثمان الناس على قراءة واحدة ، فقد أجاب عنه بعضهم بأن القرآن قد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم بلغات العرب على الوجه الذي تقدم ، ونقله القراء من الصحابة إلى الجهات المختلفة على هذه الحالة ، فتواتر نقله بلغات متعددة ، فلما كتب المصحف العثماني وبعث به إلى تلك الجهات التي كان بها بعض القراء من الصحابة ، عملوا بما يمكنهم العمل به من ذلك المصحف ، فكل ما تلقوه متواترا عن الصحابة بما لا تدل عليه كتابة المصحف ثبتوا عليه وتركوا ما يخالف المصحف . قال الحافظ ابن حجر في هذا البحث : إن السبب في اختلاف القراءات السبع وغيرها أن الجهات التي وجهت إليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة . وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل ، قال : فثبت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سمعا من الصحابة بشرط موافقة الخط ، وتركوا ما يخالف الخط

امثالاً لأمر عثمان الذي وافقه عليه الصحابة ، لما رأوا في ذلك من الاحتياطات
للقرآن ، فمن ثم نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار

وقد يكون عثمان رضي الله عنه لم يحرم قراءة القرآن باللغات التي تواترت
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لما عساه أن يترتب على ذلك من فرقة بين
المسلمين ، فكتب مصحفه ليكون مرجعاً إليه الناس عند الاختلاف ، فإذا
قرأت قبيلة بلغتها المتواترة وأنكرت عليها الأخرى أمكنهم الرجوع إلى الأصل .
وظاهر أن غرض عثمان ومن وافقه حفظ أصل القرآن وصون عباراته من التبديل
والتحريف ، وذلك يحصل حتماً بالاجماع على التمسك بنص ما كتب في مصحفه ،
أما غيره من المد والتسهيل والإدغام والإظهار ونحو ذلك مما لا يترتب عليه تغيير
في نص القرآن فذلك ما لا ضرر فيه البتة ، وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم
لعمر : « يا عمر : القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة » .

ويروى أن عمر سمع هشام ابن حكيم يقرأ سورة الفرقان فإذا هو على حروف
لم يتلقها عمر من رسول الله قال : فكذبت أساوره في الصلاة وتصبرت حتى سلم
فلبسته بردائه ، وانطلقت به أقوده إلى رسول الله ، فسمع مني وسمع منه ، وقال لكل
منا : كذلك أنزلت ؛ إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرأوا ما تيسر منه .

وبعد فقبائل العرب التي نزل القرآن بلمجاتها هي :

قريش — سعد — ثقيف — خزاعة — هذيل — كنانة — أسد — ضبة
— قيس وأحلافها . ثم ارتفعت هذه اللغات وبقيت لغة قريش ، وأصبح القرآن
يقرأ بلغة قريش .

والقراء السبع الذين روى القراءات السبع هم :

نافع بن أبي نعيم م ١٦٩ هـ عبد الله بن كثير م ١٢٠ هـ
أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ عبد الله بن عامر اليحصبي م ١١٨ هـ
عاصم بن بهدلة الأسدي م ١٢٨ هـ حمزة بن حبيب الزيات م ١٥٦ هـ
علي بن حمزة السكسائي م ١٨٩ هـ

وهناك سبع روايات تم عليها الاجماع ، وثلاث قوية السند ولم تصل إلى
الاجماع ، وأربع أخرى بين القوة والضعف ، فجملة ذلك كله أربع عشرة قراءة .

أثر القرآن

في اللغة والأدب

القرآن كتاب العربية وناموس شريعة محمد صلوات الله عليه .. تعبد به المسلمون منذ بدأ الإسلام حتى اليوم ، وحفظوه ورددوه وقرأوه بلغات قريش التي نزل بها . وكان له أثر عظيم في اللغة العربية وآدابها مما يمكن تصويره فيما يلي .
ثره في اللغة :

- ١ — وحدة اللغة واللهجات العربية في لغة قريش ، وهي أفصح لهجات العرب لفظاً وأبلغها أسلوباً وأعذبها نظماً ، وكان ذلك من أسباب وحدة المسلمين كافة ، إذ اتخذوا هذه اللغة القرشية لغتهم ، فزادتهم وحدة في اللغة فوق وحدتهم في الدين .
- ٢ — حفظ القرآن الكريم العربية من العفاء والانقراض ، كما انقرضت من قبل لغات كثيرة أصبحت في عداد اللغات الأثرية ، فأصبحت العربية لغة القرآن الذي كفل الله بقاءه إلى يوم الدين
- ٣ — والقرآن أول عامل في ذيوع اللغة العربية وانتشارها في شتى البلاد والأصقاع وأصبحت هي لغة الدين والسياسة والأدب والثقافة والقراءة والكتابة في شتى بلاد العالم الإسلامي الواسعة ، وكثير من البلاد التي فتحها المسلمون هجر أهلها لغتهم الأصلية وتعلموا العربية واتخذوها لهم لساناً ليفهموا بها القرآن قانون الدين الخالد وليتفهموا بها مع الحاكمين ، ومن يعاشرونهم ويخالطونهم من العرب .
- ٤ — بتأثير القرآن عكف الأدباء والرواة على جمع اللغة وآدابها وأشعارها وحكمها وبلاغاتها وأمثالها ووصاياها وخطبها مما كان مادة للثقافة العربية على مر الأيام
- ٥ — وقد ساعد القرآن على تهذيب ألفاظ اللغة وأساليبها ، فمجر المسلمون السكثير من الحوشى والغريب والمتنافر ، واختاروا العذوبة والسلاسة والسهولة والركة في اللفظ والنظم .
- ٦ — وسع القرآن الكريم نطاق اللغة باستحداث الألفاظ الإسلامية التي

تقلت من معانيها إلى معان جديدة أتى بها القرآن الكريم، كلفظ المؤمن والمنافق والإسلام والصلاة والصوم الخ.

٧ — والقرآن هو الذي دفع المسلمين إلى العناية بشتى العلوم الدينية والعربية ووضعها، مما كانت هي أساس صرح المدنية الإسلامية الباهرة.

أثره في الأدب العربي

وللقرآن أثر كبير في الأدب العربي :

١ — فقد تأثر به المسلمون في بلاغته وفصاحته وعذوبته، فلانت أساليبهم وعذبت ألفاظهم ورقت طباعهم، واقتبسوا منه في شعرهم ونثرهم، والحق أنه هو الذي خرج أعلام البلاغة وفحول البيان والأدب من قديم.

٢ — أحيا القرآن الكريم فنونا أدبية جديدة، كالقصص وأدب الزهد وأدب التاريخ، وأبطل سجع الكهان والهجاء الكاذب والفخر بغير العمل الصالح والخلق الكريم، إلى غير ذلك من شتى الفنون الأدبية المردولة.

٣ — رفع القرآن من شأن النثر بعد أن كان المقام الأول للشعر وحده من بين سائر فنون الأدب.

٤ — وبسببه وضعت علوم النقد والبلاغة لمعرفة وجه إعجاز الذكر الحكيم، وكيف تحدى به العرب والناس كافة، فملكتهم الإعياء والعجز والقصور.

ولا غرو فالقرآن الكريم أول كتاب كتب باللغة العربية وهو مصدر آداب العرب جميعها.

إعجاز القرآن

في حكم الذوق الأدبي

ونحن لن نتناول الإعجاز من شتى جوانبه ونواحيه ، وإنما نوجز لك القول بإعجازا ، ونتركك لذوقك ونفسك ، حتى تعرف أسرار الإعجاز ، وتقف على خصائصه .

ولعلك قد قرأت تحليل عبدالقاهر وعلماء البلاغة للآية الكريمة : «رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً» ، أو شرحهم للآية الحكيمة : «وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم» ، وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني اركب معنا ولا تسكن مع الكافرين ، قال سأوى إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلامن رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ، وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للظالمين .

ولعلك على ذكر من هذه الوجوه البلاغية التي يذكرونها في الموازنة بين قوله تعالى : «ولكم في القصاص حياة» وقول أ كثم بن صيفي : القتل أنفى للقتل ، ولعلك قرأت ما كتبه الزمخشري في بلاغة كثير من الآيات القرآنية الحكيمة أو ما كتبه في قوله تعالى : «وما قدرُوا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه» سبحانه وتعالى عما يشركون» ، إلى قوله تعالى : «وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون» ، أو مادونه علماء البلاغة في بلاغة الآية الكريمة : «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین» ،

فكل ذلك لا يضيرك على أي حال في فهم أسرار بلاغة القرآن وإعجازه وهو من جهة أخرى وسيلة لتربية ذوقك وملكتك في النقد والبيان .
ولسكننا نعود بك إلى فطرتك الأدبية وحدها ، فنطالبها بالفهم والنقد والحكم

في قضية الإعجاز ، وأنت تعلم أن الأمة العربية أمة تحب البلاغة وتعشقها وتجيدها
ويبرزها البيان الجيد والفصاحة الرائعة ، وفيها مقاول البلاغة ومصارع الخطباء
وأعلام الشعراء ، لا ترى لأحد عليها نفرا ، ولا تحسب روعة البيان وسحر الكلام
إلا لها ، وكانت كما يقول الجاحظ : أكثر ما كانت شاعرا وخطيبا وأحكم ما كانت
لغة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، وهو في ذلك يحتاج عليهم
بالقرآن ويدعوهم صباح مساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة أو
بآيات يسيرة ، فسكنا ازداد تحدياً لهم بها وتقربا لعجزهم عنها تسكشاف عن نقصهم
ما كان مستورا ، وظهر منه ما كان خفيا ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له : أنت
تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فذلك يمكنك ما لا يمكننا ، قال : فها توها
مفتريات ، فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ولا طمع فيه أحديتكفه ، ولو
تكلفه اظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه ويزعم أنه
قد عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك على عجز القوم مع كثرة كلامهم وسهولة ذلك
عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراءه وأصحابه وخطباء
أمته ، والعرب لهم القصيدة العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار
الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنشور ، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن
أظهر عجز أدنائهم ، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم
وقد احتاجوا إليه والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر
الجليل المنفعة ؟

وبعد فأى أثر أدبي أعجبك : دكفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ، لا مري
القيس ، وكرثية ابن الرومي لولده :
بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي لجودا فقد أودى نظيركما عندي
وكوصف البحرى لإيوان كسرى :
صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدا كل جيس (١)
وكرثية المعري للفقير الحنفي :
غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم يشاد

(١) الجدا : العطاء . الجيس : الجبان اللثيم

وكقصيدة ابن زيدون :

أضحى التناثى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
وكقصيدة المتنبي في سيف الدولة :
أتوك يحجرون الحديد كأنما سروا بجياد ما لهن قوائم
وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلنى هزيمة ووجهك وضاح وثرعك باسم
أو قصيدته في كافور :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟
أو قصيدة أبي تمام في المعتصم وفتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
أليس سر هذا الإعجاب هو خصائص هذا الأثر البيانية والأدبية ، وأليس مرجعه
إلى صدق الشعور وحرارة العاطفة وروعة التصوير وجمال النظم وإحكام البيان ؟
فإذا ما وقفت أمام نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب ، أو كيلة ودمنة لابن
المقفع . أو أمام البؤساء ترجمة حافظ بك إبراهيم ، أو حيال دماجدولين ، للمنفلوطنى ،
أو دجنون ليلي ، لشوقي ، أو الأيام ، لطه حسين ، أو على هامش السيرة ، له ، أو
د عبقرية عمر ، للعقاد . فأعجبك وراعتك ، وسحرك ما تجد في هذه الآثار الأدبية
الكاملة من حذق وبراعة ولطف حيلة وبلاغة تصوير ، أفليس مرجع ذلك كله إلى
خصائص هذا الأثر الأدبية وشخصية مؤلفه الأديب أو الشاعر أو الخطيب أو
الكاتب ، وإكتمال فنه الأدبى ، فى أثره المعجب ؟ وألست تجد من ذلك الكثير
من الآثار والنصوص ؟ .

فإذا ما ترقى بك ذوقك فى الحكم الأدبى ، فقلت : أنا لا أستجيد من الآثار
الأدبية إلا الآثار الخالدة على مر الأيام ، والى تقرأها وتعيد قراءتها فتجد نفسك
كما بدأت متلهفة معجبة مأخوذة بجلال هذا البيان وعظمته وعبقرية صاحبه ، وتجد هذا
الأثر الأدبى أمام ذوقك وطبعك غضا ناضرا باهرا كأنما كتبه صاحبه لساعتك
التي أنت فيها ، وتجد ما فيه من حديث عن النفس الإنسانية ، وعن الحياة وعبرها
وعظاتها وأحداثها ، وعن البشر وأخلاقهم ومطامحهم وألوان تفكيرهم فى الحياة ،
وعن الأهداف المثلى للإنسانية كافة والمبادئ الشريفة التى يجب أن تكون دستور

الأمم والجماعات والأفراد . تجد ما فيه من ذلك كله جديدا كأنه كتب لهذا العصر ،
ووصف الحياة التي يحيها الناس وتحياها أنت معهم ، فقل لي بربك هل تجد أثرا
ترفعه في نفسك الى هذه المنزلة ، وتراه مستوفيا لهذه الخصائص ، وتطمئن نفسك
حين تقول هذا هو ضالتي المنشودة وطلبتى المأمولة وبغيتى المرتجاة ، وهل تجد أثرا
سلم له ذلك كله وسلم من القصور والعيب والمؤاخذة وسقطات الطبع والأسلوب
والنظم والفكرة ، وهل تجد له ذلك كله مع طوله وإحكامه وروعته وجودته
ونبل دعوته وأهدافه وجلال غايته ورسالته ؛ وبعد مرماه وعمق نزعه ؛ وأنه يتناول
الإنسانية كافة والعصور قاطبة ، ويصلح لكل مكان وزمان ، ولا يبلى مهما
توالى الأيام والعصور .

إي وربي إن هذا هو الغاية البعيدة والأمل المحال ، والسر الدفين في ضمير
الأيام ، والكنز المخبوء في جوف صحراء عرضها الأرض والسماء .
ولن تجده مهما حاولت أن تجده إلا في كتاب واحد وأثر أدبي خالد ، وفي هذا
البيان ذى المجد الطريف والتأد ، إي وربي إنك لن تجده إلا في القرآن الكريم
والذكر الحكيم والكتاب المعجز والأثر الخالد ، وفي هذا البيان السكامل والبلاغة
الساحرة والفصاحة النادرة والآيات البينات الباهرة

إي وربي ، وهل تجد أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ؟ أو هل ترى نظما
أحسن تأليفاً وأشد تشا كلا وروعة من نظمه العجيب وأسلوبه الغريب المخالف
لأساليب كلام العرب في نظمها ونثرها ؟ أو هل تجد هذه الروعة التي تجدها له في
قلوب السامعين وأسماعهم سواء المصدق منهم والجاحد . وتلك الجودة التي تراها له
على مر الأيام وتوالي العصور ؟

وإذا لم تصعد إلى هذه المرتبة البعيدة إلا بكتاب واحد هو القرآن الكريم .
ثم حاولت الموازنة بينه كله أو بعضه أو القليل الأقل منه وبين ما سواه من
الآثار الأدبية فلم نجد مجالا للموازنة ولا موضعا للشبهة لبعدها ما بين الأثرين كبعد
ما بين السماء والأرض . فهل ذلك إلا لأنه كتاب معجز وأنه آية الآيات والناطق
بصدق إعجازه وعظمته بلاغته .

وقد يقول معاند أو مكابر : أين أنت وآداب اللغات ؟ وأين أنت وما فيها من
آثار أدبية خالدة ؟ فلشكسبير وجوته وهو جو ولغيرهم من أفذاذ الغرب الكثير
من الآثار الخالدات . بل أين أنت من الكتب السماوية المقدسة ؟ وأين أنت من

«مزمار داود ، وحده ؟ أفلا يشبه أثر من هذه الآثار كلها القرآن الكريم في مكانته وبلاغته وإعجازه . وأنا أقول لك أيها القارئ الكريم : لعلك قد قرأت بعض الآثار الأدبية لهؤلاء الأعلام الخالدين في الأدب . ألسنت تجد شكسبير مثلاً في أية قصة من قصصه وفي جميع آثاره مترجماً عن عواطف النفس الإنسانية معبراً عن آمالها وآلامها مجيداً الحديث عنها ؟ ولكن هل تجد له هذا السمو والرفعة ونبل الدعوة وجلال الغاية ، وعظمة الهدف والرسالة ، ودقة التحليل عن العواطف والمشاعر والنفوس الإنسانية كافة ؟ وهل تجد له هذا التوجيه الجديد للبشرية جميعاً ، وهذا الدعم القوي لمبادئ العدالة والحق والحرية والإخاء والمساواة في الحياة . كلا وربك ، ولن تجد لأعظم من شكسبير شيئاً من ذلك قليلاً أو كثيراً .. فضلاً عن خصائص الفن الأدبي الرائع الكامل التي لن تجد ما يشبهها في غير القرآن الكريم .

وهاك أروع ما في الكتب السماوية المقدسة بياناً ، وهو مزامير داود . خذ أي قطعة منها وليكن « المزمور الأول » وهو بنصه كما في الكتاب المقدس :
« طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار ، وفي طريق الخطاة لم يقف ، وفي مجلس المستهزئين لم يجلس ، ولكن في ناموس الرب مشورته ، وفي ناموسه يلهم نهاراً وليلاً ، فيكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه ، التي تعطى ثمرها في أوانه ، وورقها لا يذبل ، وكل ما يصنعه ينجح .

ليس كذلك الأشرار ، لكنهم كالعصاة التي تذرهما الريح ، لذلك لا تقوم الأشرار في الدين ، ولا الخطاة في جماعة الأبرار ، لأن الرب يعلم طريق الأبرار ، أما طريق الأشرار فتهلك .

ونحن مع تقديرنا لهذا النص الديني ، ومع علمنا بأنه مترجم ، نعود بك إلى ناحية أخرى في الموازنة ، وهي أنه شتان ما بين هذه الروح والقرآن الكريم ، ومن المحال الموازنة بين ذلك وبين مثل قوله تعالى : « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » ، أو مثل قوله تعالى : « ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » ، أو مثل قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، ... إل غير ذلك من روائع بلاغات القرآن الكريم .

وبعد فإن القرآن كله معجز . وهو نمط فريد رائع ومستوى رفيع شريف
من البلاغة والفصاحة والبيان والروعة والسحر ، والأخذ بمجامع القلوب ومشاعر
النفوس ، فكله منهج واحد في النظم ، ودرجة واحدة في الفصاحة ، دقل لئن اجتمعت
الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم
لبعض ظهيرا (١) .

وأخيرا نقول لك : إنك أيها الناقد الحصيف حين تحلل أثرا أدبيا ما ، وتكشف
عن كل ما يتصل بهذا الأثر من عوامل البيئة والصر ومن شخصية صاحبه ، وتوازن
بينه وبين ما يشبهه من الآثار ، وتبين خصائص قنه الأدبي وما يوجه إليه من
أهداف ، وما يدعو إليه من آراء وأفكار ، ثم تضعه بعد ذلك في منزلته الصحيحة
من البيان والأدب والتفكير الانساني ... ولبحث قضية الإعجاز يكون عليك :
١ — أن تبحث عن البيئة الأدبية التي نزل فيها القرآن الكريم ، وأن
تدحض أنه كلام بشر وأن تثبت ذلك بالحجج الدامغة .
٢ — ثم عليك أن تحلل خصائصه الأدبية والفنية تحليلا كاملا ، وتوازن بينه
وبين شتى الآثار الأدبية الخالدة
وبعد هذه الدراسة تتفهم أسرار إعجازه .

(١) وذهب بعض علماء البلاغة الى أن بلاغة القرآن تفاروت مع الإعجاز
(راجع تفصيل ذلك في كتب البلاغة وفي الإتيقان للسيوطي ص ٢١٠ > ٢٦)

فوائد سور القرآن

راى جديد فيها

الآراء فى معانى ابتداءات سور القرآن الكريم كثيرة ، والاختلافات حولها متعددة ، أهى أسماء الله تعالى ، أم هى أسماء للسور نفسها ، أم هى حروف لأسماء ، وما معناها حينئذ ؟ ، أم أن الله تعالى هو الذى ينفرد بعلم ذلك ، وعقل الإنسان يعجز عن فهم أسرار الله تعالى فيها ، أم هى رموز لمعان دينية أو صوفية .. الخ

إختلاف كثير لا حصر له ، ولقد رجح من قبل الإمام جبار الله الزمخشري أن هذه الفوائخ عدة حروف هجائية صدر الله بها الكثير من سور قرآنه ليقول للعرب : «إن هذا القرآن المنزل على محمد من جنس كلامكم ، مكون من مثل هذه الحروف الميسورة لكم ، نستفتح بها الحديث معكم ، فإن كنتم فى ريب من إلهية هذا الكتاب وقديسيته فدو نكم مجال التحدى والأعجاز ، فأثروا بمثله إن استطعتم ، وسبقه إلى ذلك الباقلاني .

ولقد عرض لى رأى جديد فى هذا الموضوع ، وخلصته هى : افتتح الله سبحانه وتعالى تسعا وعشرين سورة من سور القرآن بهذه الابتداءات : ألم - المر - ألمص - كهيعص - طسم - طس - يس - حمسق - حم - ص - ق - ن - طه - ألر : وهى كلمات مكونة من بعض حروف الهجاء ، وتقرأ هذه الكلمات بقراءة الحروف الهجائية المركبة منها مع إسكان هذه الحروف ، فثل ، « ألم » تقرأ هكذا : ألف لام ميم ، ، والحروف التى كررت فى هذه الفوائخ هى أربعة عشر حرفا من حروف الهجاء البالغة تسعة وعشرين ، وبمجموع عدد الحروف المسكرة ثمانية وسبعون حرفا .

فما معنى بدء بعض سور القرآن بهذه الحروف المفردة أو المركبة ؟ يريد الله عز وجل بذلك التنويه بالعربية التى هذه بعض حروفها ، والإشادة بالقرآن الكريم - كتاب العربية الخالد - الذى تملك بعض آياته .

وكان الله عز وجل يقول للناس : هذه هى اللغة العربية لغة البيان والفصاحة ، وهذا هو القرآن كتاب الله المعجز ، وكتاب العربية المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

والصلة بين العربية والقرن الكريم صلة معروفة آلا يجعلها لإنسان ، فقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية ، وجاء في أعلى درجاتها بلاغة وبيانا وفصاحة ، نزل على محمد النبي العربي العظيم ، فكان معجزته الباقية الخالدة ، وعلى الأمة العربية التي اختارها الله لتسكون جنود الله والحق ومحمد في نشر الهدى والنور والتوحيد والعلم والثقافة في العالم كافة ، وكان للقرآن الكريم أثره الخالد في وحدة العربية وحفظها ونشرها وذيوعها في جميع الأرجاء ، وفي تهذيب أساليبها وألفاظها ، ورفق معانيها وخيالاتها وأفكارها ، وفي السمو بأغراض الكلام فيها ، إلى ما سوى ذلك من آثاره الباقية على العرب كافة . فكان الله عز وجل يشير بذلك إلى أن هذا القرآن الكريم أنزله من عنده مجداً للعربية وآدابها ، وتسكريما للعرب وسموا بمنزلتهم في قيادة الحياة الإنسانية ، فالقائد الأعظم الذي اختير لنشر هداية السماء في الأرض هو محمد صلوات الله عليه وهو عربي ، وذلك الناموس الكريم والدستور الخالد الذي بين الله فيه رسالة محمد ودعا فيه إلى الخير والحق والعدل والتوحيد والطهر والإحسان هو القرآن وهو كتاب عربي مبين . وكانه يوحى إلى هذه الأمة العربية: أن آمنوا بمحمد ودعوته وبكتابه ورسالاته ، فهما نخر لكم على مر الأيام ، ومجد سيطوق أعناقكم طول الأجيال والاحقاب .

وخلاصة رأي هذا أن هذه الابتداءات تشير إلى الصلة الوثيقة بين القرآن والعربية ، وإلى أن هذه الرسالة السماوية وهي آخر الرسالات نزل بها القرآن العربي المبين ، واختير لنشرها محمد أكرم العرب والخلق أجمعين ، وإلى أنها ستكون مجداً للعرب والعربية طول العصور .

أراء في إعجاز

— ١ —

عنى العلماء من قديم بالتأليف في إعجاز القرآن الكريم ، ومن أشهر هذه المؤلفات :
١ — إعجاز القرآن لأبي عبيدة المتوفى عام ٢٠٧ هـ ، ولعل الذى دعاه إلى تأليفه
هو الرد على بعض المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة
بنفسها .

٢ — نظم القرآن لإمام العربية الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ . وقد كشف فيه
الجاحظ عن أسرار إعجاز القرآن الكريم بأسلوبه البليغ ، وبيانه الفصيح المأثور .
٣ — إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطى المتوفى
عام ٣٠٦ هـ ، وقد شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحا كبيرا سماه المعتضد ، وشرحا
آخر أصغر منه .

٤ — نظم القرآن لابن الإخشيد ، وكذلك لابن أبي داود م ٣١٦ هـ
٥ — كتاب إعجاز القرآن للرماني ٣٨٣ هـ ، وكذلك للامام الخطابي م ٣٨٨ هـ ،
وكذلك للامام القاضي أبي بكر محمد بن الطيب البافلاني م ٤٠٣ هـ .
٦ — دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ .
٧ — كما ألف فى الإعجاز نحر الدين الرازى م ٦٠٦ هـ ، وابن أبي الأصبع م
٦٥٤ هـ ، والزملسكاني م ٧٢٧ هـ . والرافعى المتوفى عام ١٩٣٧

— ٢ —

ولقد كان الجعد بن درهم فى عصر بنى أمية يقول : إن فصاحة القرآن الكريم غير
معجزة (١) ، وجاء بعده أبو إسحاق إبراهيم النظام المعتزلى المشهور ، فذهب إلى أن
سبب الإعجاز هو الصرفة ، ومعنى هذا أن القرآن لا يرتفع من الناحية البيانية عن
طاقة البشر وقدرتهم ، لولا صرف الله لهم أن يأتوا بمثله ، ويروى عنه رأى
آخر ، وهو أن الإعجاز إنما كان من حيث إخبار القرآن الكريم بأنباء الغيب
الماضية والمستقبلية .

(١) سنعود إن شاء الله إلى هذا الرأى بالبحث والنقد

ولكن الجاحظ يثبت الإعجاز للقرآن الكريم ، ويرجعه إلى بلاغته الساحرة ، وخصائصه البيانية الرائعة ، ونظمه العجيب وفصاحته الباهرة ، فالقرآن في الذروة من البلاغة ، وفي القمة من الإعجاز ، وقد تحدوا به فلم يقدرُوا ، وسجل عليهم العجز عن معارضته ، واعترف أساطين البلاغة منهم ببلاغته ، حتى قال الوليد بن المغيرة بعد أن سمع القرآن من الرسول : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيدته ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي نقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلو عليه .

وعلى نهج الجاحظ سار عبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الإعجاز ، الذي دافع عن إعجاز القرآن الكريم ، ورجعه إلى خصائص النظم العربي ودقائقه ، وما دتجدد (١) بالقرآن من عظيم المزية ، وباهر الفضل والعجيب من الوصف ، حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى لم يحرك لسان ، ولم ين بيان ، ولم يساعد إمكان ، وكما يقول عبد القاهر أيضاً : « أعجزتهم (٢) مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، وبجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية . فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو مكانها ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول ، وأعجز الجمهور . »

أما القاضي الباقلاني فقد أحصى جملة وجوه إعجاز القرآن في ثلاثة : مافي القرآن من الإخبار عن الغيب بما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه . ومافي من أخبار الأمم القديمة . مع أمية الرسول الكريم وعجيب تأليفه . وتناهيه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه . . وقد شرح الباقلاني وجوه الإعجاز في نظم القرآن الكريم ، وتحدث عن التحدي والإعجاز وكل ما يتصل بهذا الباب ، في كتابه المشهور « إعجاز القرآن الكريم » ، الذي قال فيه ابن العربي لم يصنف كتاب مثله وتحدث القاضي عياض في كتابه « الشفاء » ، عن إعجاز القرآن الكريم ، ورجعه

(١) ص ٦ المدخل إلى دلائل الإعجاز من الطبعة الثانية .

(٢) ص ٢٢ دلائل الإعجاز .

إلى وجوه أربعة : أولها : حسن تأليفه والتسام كله ، وفصاحته ووجوه إيجازه
وبلاغته الخارقة ، وثانيها : صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف
لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها . وثالثها : ما انطوى عليه من الإخبار
بالمفنيات ، ورابعها : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ،
والشرائع الدائرة (١) .

ومن العلماء . من يذكر من وجوه الإعجاز ، جدة القرآن على التلاوة ، وجمعه
لملوم ومعارف لم يحط بها أحد من علماء الأمم ، وما حواه من أخبار الأولى
والآخرة ، ومشاكله بعض أجزائه بعضا ، وحسن اتلاف أنواعها والتأم أقسامها ،
وحسن التخلص من قصة إلى أخرى ، والخروج من باب إلى غيره .. ومنهم من
يرجع الإعجاز إلى خلو القرآن الكريم من التناقض واشتماله على المعاني الدقيقة ،
ومنهم من يقول : إن وجه الإعجاز ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة ، والبدائع
الرائقة في الفوائد والمقاصد والخواتيم : في كل سورة ، وفي مبادئ الآيات وفواصلها .

وقد عرض السيوطي في كتابه « الإتيقان » ، لإعجاز القرآن الكريم ، وذكر
بعضا من آراء العلماء فيه (٢) . ورجع الإمام الرازي الإعجاز إلى : الفصاحة ،
وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب . ورجعه الإمام الزمלקاني إلى
تأليفه الخاص به . وقال ابن حازم في « منهاج البلغاء » : « وجه الإعجاز في القرآن
من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحاء في جميعه استمرارا
لا يوجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وقال الإمام الخطابي : ذهب
الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز في القرآن من جهة البلاغة ، لكن
صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق ، ثم قال : حتى لا ترى شيئا من
الآلفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد
تلاؤما وتشاكلا من نظمته ، وأما معانيه فكل ذي لب يشهد له بالتقدم في أبوابه ،
والترقي إلى أعلى درجاته .

إلى ماسوى ذلك من الآراء في إعجاز القرآن الكريم ، والتي تشعبت كلها ثم
تلاقت في موجة ، في بحر لجى زاخر ، هو دون القرآن الكريم في روعته وجلاله ،

(١) ص ٢١٧ الشفاء طبعة ١٣١٢ .

(٢) ص ١١٨ ج ٢ الاتقان طبعة القاهرة ١٩٣٥ ، وما بعدها .

ودون إعجازه العظيم في سره وسجده وعظمته . ولقد مضى القدماء في بحثهم عن الإعجاز ، ثم لم يستطيعوا الوصول إلى غايات الإعجاز ، وأعاد المحدثون الكلام فيه ، وإن كانوا لم يرجعوا بظائل : فبعض جعل وجوه الإعجاز في ما يشتمل عليه القرآن من قوة روحية خارقة ومن أحداث التاريخ المجهولة ، ومن الأسلوب المنطقي والأسلوب العلمي . وآخرون يرددون الآراء القديمة : شارحين أو ناقدين .

— ٣ —

وهذا كله على أي حال صور من ثقافات العلماء ، وعقلياتهم ، وملكاتهم ، ونزعاتهم في فهم أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه . ونحن نعود بالقارىء إلى فطرته الأدبية وحدها . فنطالبها بالفهم والنقد والحكم في قضية الإعجاز .

فقد نزل على محمد صلوات الله عليه كتاب من عند الله ، هو أعظم دستور عرف في شرائع الإنسانية ، وأروع كتاب أثر في تاريخ البلاغة الأدبية : ودعى العرب إلى الإيمان برسالته ، وهو في ذلك يحتاج عليهم بالقرآن ، صباح مساء ، إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا ، بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة . وكلما ازداد تحديا لهم ازدادوا عجزا وخزيا ، مع طول باعهم في فن البيان ، ومع أنهم كانوا أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وبليغاً . ثم مضت الأجيال ، والعلماء والأدباء والبلغاء والنقاد والمؤلفون في كل عصر يعترفون بإعجازه ، ويقرون بقصورهم عن بلوغ منزلته في البلاغة والفصاحة والبيان ، ولا تزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والإكبار ، كلما سمعت آية من آياته ، أو سورة من سورته . ولا تزال الموازنة بينه وبين ما سواه ، من الآثار الأدبية والدينية والعقلية مستحيلة ممتنعة ، لبعده ما بينه وبين ما سواه من الآثار ، كبعده ما بين السماء والأرض ، فهل ذلك إلا لأنه كتاب الله الحكيم ، ومعجزة محمد الباهرة ، والآية الناطقة على صدق رسالته ؟ وهل ذلك إلا مظهر لبلاغة القرآن الباهرة ، ودليل على إعجازه وأنه من عند الله .

وبعد فإننا قبل أن نختم هذا البحث نقول : إن أظهر أسرار إعجاز القرآن الكريم يتجلى فيما يلي :

١ — بلاغة القرآن النادرة ، التي لا يحيط بها وصف ، ولا يستطيع أن يكشف

خصائصها باحث ، ويكفيك أن علوم البلاغة والنقد والاعجاز قد وضعت للكشف عن مظاهر هذه البلاغة وأسرارها ، ثم هي الآن ، وبعد مضي أكثر من عشرة قرون من الزمان ، لا تزال في أول الغاية ، على أن بلاغة القرآن أوسع مدى من البحث عن استعاراته وكنائياته وتشبيهاته وأمثاله ، وحكمته وإيجازه وبجازه ، فهي تشمل كل خصائص الفن الأدبي والبياني في القرآن الكريم .

٢ — روعة القرآن وجدته ، وأخذه بالافتدة والاسماع والمشاعر والعواطف والنفوس .

٣ — عظمة تصويره للحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وللنفس البشرية في سلمها وحربها ، ولطوها وجدوها وأملها وألمها ، وكفرها وإيمانها ، وللثقل العليا في الحياة المهدبة الكريمة التي يعمل لها الإنسان ، وتسير لشاغلها الأمين الإنسانية .

٤ — سمو الروح في القرآن الكريم ، فهو ليس كتاب قصص أو تسليية ، أو أدب أو حكمة أو فلسفة ، أو تاريخ أو اجتماع ، وإنما هو خلاصة لكل مافي الحياة من ثقافة وحقائق . ويزيد على ذلك بأنه منهج كامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة ، وما أجددنا أن نقول : إنه كتاب الإنسانية كافة .

٥ — جلال أثره الأدبي في لغة العرب وأدبهم ، وفي حياتهم ، وفي حياة المسلمين والعالم .

٦ — خلوده على مر الأيام والامكنة والعصور ، وعجز الناس عن معارضته ، مع أنه تحدى ولا يزال يتحدى الناس كافة ، ومع مايشتمل عليه تاريخ العالم من أفذاذ المفكرين والأدباء والبلغاء .

٧ — بساطة أسلوب القرآن الكريم ووضوحه وجماله وقوته وجزالته وعذوبته .

٨ — شرف معانيه ، وسمو حكمه ، وجلال دعوته ، وصدق حجته وعمق منزهه وعلو تصويره .

٩ — والدليل الأخير على الإعجاز هو عظمة أغراضه ومقاصده ، ورفعة
مراميه ومناحيه ، وعبقورية غاياته ورسالته ، وتوجيهه البشرية كافة إلى حياة جديدة
فيها الأمل والسعادة ، والأمن والسلام ، والخير المطلق ، والإخاء والحق والعدالة
والحرية والمساواة بين الناس ، وصدق الله العظيم حين يقول : « تبارك الذي نزل
الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيراً » .

بلاغت القرآن

إن خصائص القرآن البيانية ، وما اشتمل عليه من روائع الحكم والأمثال ، وبلغ المجاز ، ودقيق التشبيه ، وجيد الاستعارة والكناية ، وساحر الطباق والجناس ، ومحكم الإيجاز والأطناب المفيد ، كل ذلك كثير جدا ، إلى حد يصعب بيانه إلا في مؤلفات ضخمة .

أما أغراضه ومقاصده فحسبك أنه قد جال في كل غرض : في الاجتماع والسياسة والحكمة والقصص والزهد والأدب والتعليم والإرشاد والوعد والوعيد ، وفي الدين والتشريع والتوجيه ، وهو في كل ذلك كتاب الله الحكيم المعجز الصادق .

وأما معانيه فحسبك ما تشتمل عليه من صدق وحق ووضوح وجلال ، وهي من غير معين العرب الذي ينهلون منه ، لا طمثنان النفوس إليها ، وارتياح القلوب لها ، ولما تشتمل عليه من الحجة الباهرة ، والأدلة الساطعة والأحكام الصائبة ، وبحق إنه معجزة البيان ، وآية السماء .

وأما ألفاظه فحسبك جزالتها وقوتها ، مع السلاسة والعدوبة ، ومع البعد عن الوحشي والغريب النافر والسوقي المبتذل والبعيد المعقد ، فوق ما تتحلى به من سحر وجمال ، وما تنطوي عليه من أسرار الفصاحة ، وخصائص البيان والإعجاز .

وأما بلاغة القرآن فهي حديث الدنيا ، والقضية التي سلم بها أساطين البيان ، ولحول البلاغة ، أرأيت هذا التحدى مع العجر الواضح ، ومع الخزي الآليم ؟ وهل سمعت قصة الوليد بن المغيرة ، وقد تردد على محمد خفية وخيفة ، وسمع منه ثم قال لقومه : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي نقول شيئا من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلو عليه . ثم أرأيت هذا الأعرابي وقد سمع قوله تعالى : فاصدع بما تؤمر ، فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته ؟

ولعلك تعلم أن العرب أمة تحب البلاغة ، وتعشقها ، وتجيدها ، ويهزها البيان الجميد ، وفيها مصاقع الخطابة ، ومقاويل الفصاحة ، وأعلام الشعر ، لا تحسب سحر البيان إلا

لها ، وبلاغة الكلام لإلواظاً عليها ، وكانت كما يقول الجاحظ : أكثر ما كانت شاعراً
وخطيباً ؛ وقد دعاهم فمعجزوا ، ثم تحدى به أقصاهم فشدهوا ، ثم حاروا في وصف
بيانه وإعجازه ، وخر والحكمة ساجدين .

أفليس ذلك كله مع ما قدمناه لك أدلة الإعجاز وشواهد وحبته وبرهانه ؟
ألست إذا حاولت أن تبحث عن أثر أدبي خالد على مر الأيام والعصور ، تجد فيه
الإنسانية هداها ، والفضيلة مبتغاها ، والنفوس البشرية رشدتها وسعادتها ، لا تجد
أمامك إلا القرآن الكريم والذكر الحكيم ؟ .

أيها القلم قف ، فبلاغة القرآن وإعجازه في غنى عن الدليل ، ومتى نحتاج الشمس
في وجودها إلى برهان ؟ إن سر بلاغته وإعجازه يستعصى على الفهم ، ويعلو على العقول ،
لأنه آية الله ، والمعجزة الخارقة التي اختص بها رسوله الأعظم محمد صلوات الله عليه .
وإن أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وجلالة الروح وإشراق البيان
وجمال الديباجة وقوة المنطق وعبقورية التصوير والتعبير ، أسلوب جمع بين الجزالة
والسلاسة والقوة والعذوبة وحرارة الإيمان وتدفق البلاغة ، فهو السحر الساحر ،
والنور الباهر ، والحق الساطع ، والصدق المبين .

نزل الذكر الحكيم في أسلوب لا هو شعر ولا هو سجع ، ولا هو مزاج ولا هو
نثر مرسل ولا خطابة ، إنما هو نظم رائع والفاظ عذبة ومعان سامية حسيمة ،
وجلال وروعة ، جمع بلاغة جميع أساليب البيان وفصاحة شتى خصائص النظم ،
واستوفى كل عناصر الإعجاز . تحدى الله به العرب فمعجزوا ، فتحدهم بسورة منه
فبهروا ، فتحدهم بأقصر سورة ، ثم بعده آيات فخرسوا ، ولما سمعه فصحاؤهم وأرباب
البيان فيهم سجدوا له خاشعين ، وما إيمان عمر حين سمع « طه » ، وما فزع عتبة بن
ربيعة وقوله : « والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر » حين سمع « فصلت » ، وما
تردد بلغاء العرب على الأماكن التي يتعبد فيها محمد ليلا ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة
خفية ، وما عجزهم بعد التحدى ، ما كل ذلك إلا دليل الإعجاز وعظمة البيان وجلال
الأسلوب .. يقول أبو بكر الباقلاني في فصاحة الذكر الحكيم : إن نظم القرآن على
على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المألوف من نظام كلام العرب ومباين
للألوف من ترتيب خطابهم ، وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة
والتصرف البديع والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب

في البلاغة والتشابه في البراعة ، على هذا الطول وعلى هذا القدر ، وإنما تنسب إلى حكمهم
كلمات معدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحيانا الاختلال
والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف . وقد جاء القرآن على كثرة
وطوله ، متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال : « الله نزل أحسن الحديث ،
كتابا متشابها ، مثاني ، تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم
إلى ذكر الله » . « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

وبعد فإنك تجد في كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك في منظر بهيج
ومعرض رشيق ، ونظم أنيق ، غير متعاص على الأسماع ، ولا ملتو على الأفهام ، ولا
مستكره في اللفظ ، يمر كما يمر السهم ، ويضئ كما يضيء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ؛
طموح العباب ، جموع على الطارق المنتاب ، كالروح في البدن ، والنور المسيطر في
الآفاق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
تنزيل من حكيم حميد .

محمد بن محمد بن القرآن

- ١ -

كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر ، تحبها وتعشقها وتجيدها ، وترفع منزلة الشاعر المفلق والخطيب البليغ ، وتنوّه بهما ، وكانت أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وأديباً ، فاذا نبغ في القبيلة شاعر ، أو ظهر فيها فصيح استبشرت وافتخرت ، وأقامت الموائد واحتفلت بذلك الشيء العظيم ، وأنت القبائل الأخرى فهنأتها ، وباركت شاعرها أو خطيبها .

كان ذلك فطرتها ، لحياة التأمل والاستغراق والخيال في الصحراء ، ولل فراغ الكثير الذي كانوا فيه ، ولحياة البادية التي تثير العاطفة وتستفز المشاعر ، وتلهم الشعرية ، وتوقظ الخيال والبلاغة ، وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستمرة ، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء على أشدها تكون ...

ومن ثم فقد رأينا شعراء يلقي اليهم العرب القياد ، يصغون لقولهم ، ويسيرون وفق رأيهم ، ويمضون ما يحكمون به بينهم . يضعون الشريف النابه ، ويرفعون الخامل الوضيع ، فكان أمرؤ القيس لشعره الساحر زعيماً ، وكان النابغة سفيراً للعرب في قصور المناذرة والغساسنة ، وحكماً بين الشعراء في سوق عكاظ ، وكان الأعشى يغير شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب ، ويفد على كسرى وملوك الحيرة وبني غسان ويسافر إلى الحبشة ، وكان قس بن ساعدة الإيادي الخطيب يفد على قيصر والغسانيين .. إلى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب للبلاغة والبلغاء ، والشعر والشعراء ، وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب . ويضع الهدنة . فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه .

- ٢ -

فلما بعث محمد الرسول الأعظم صلوات الله عليه برسائله إلى الناس كافة ، نزل عليه كتاب مطهر من السماء . هدى ونور وبشرى ، فيه دعوة إلى التوحيد ، والطهر

- ١٣٠ -

والخير والحق ، وفيه ما شاء الله أن يبلغه للبشر ، من شئون الحياة وأخبار الأمم ، وقصص دعاة التوحيد : من المرسلين والأنبياء ، وفيه كل ما يسعد الناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم : من تشريع وعبادات وأخلاق وفضائل وآداب وتوجيه كامل إلى المثل العليا .

نزل هذا الكتاب الكريم ؛ والنور الخالد ، والوحي الصادق ؛ والدستور العظيم ، فكان في أعلى درجات البلاغة ، ومنازل الفصاحة ، لا يدانيه بيان ، ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من : شعر ، وخطب ومحاورات ، ومفاخرات ومنافرات ووصايا ومثل ، وحكمة ، وكهانة .

وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم فخرُوا ساجدين لفصاحته ، مدعنين لبلاغته ، مقرين بانه نسيج وحده ، وعلم مفرد في طباقته في البيان ؛ بهر الشعراء منهم ، فخرست ألسنتهم ، وسكنت شاعريتهم ، وضاع إلهامهم ، كما يضيع السراب في الصحراء ، وعجبت الخطباء فيهم ، فخرست مقاولهم ، وصمتت ماكاتهم ، وفقدوا مواهب البلاغة والقول ، وذهبت كل بلاغة في تياره ، وضلت الفطر الأدبية العالية ، وفرت أمام أضواء نهاره .

ولكن زعماء الشرك أبوا الإذعان للدين ، والإيمان برسالة سيد المرسلين . فأخذوا يحاربون الحق بالآوهام ، ويؤلبون قوى الشرك على دعوة الاسلام ، فقالوا في القرآن : هو شعر ، هو سحر ، وهى أساطير الأولين ، ولو نشاء لقلنا مثل هذا ، وإن هذا إلا اختلاق ، ورموا محمداً بالجنون .

فتحدهم الله عز وجل ، ورسوله محمد صلوات الله عليه ؛ بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة ، بالقرآن الكريم ، والكتاب العربي المبين . قال الله تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين (١) » ، وقال تعالى : « أم يقولون : افتراه ، قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وإن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ » (٢) وقال تعالى : « أم يقولون : تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ، إن كانوا

(١) للبقرة : آية ٢٣ و ٢٤ - وهى مدنية (٢) هود : آية ١٣ و ١٤ - وهى مكية

ضادقين ، (١) ، وقال تعالى : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، (٢) ، فسجل عجز البشر كفاة وبين أنه لا يستطيع الإنس والجن - ولو تظاهروا - الوقوف أمام هذا التحدى ، ولا يقدرّون على مثل هذه البلاغة ، التي هي فوق طاقتهم . لأنها بلاغة خالق البشر ، ومصور الإنس والجن ؛ الملك القادر والمدبر الحكيم : الله جل جلاله ، وعلت قدرته ، وعظمت حكمته .. ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر ، وبرأ رسوله من أن يكون شاعراً وساحراً ، ومن الافتراء والجنة ، ومن الكذب والخيال ، « والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو الا وحى يوحى » . وقال تعالى : « إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فإمنكم من أحد عنه حاجزين وإنه لتذكرة للمتقين ، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين » .

وهكذا رد الله عز وجل عليهم ، وبين كذبهم وافتراءهم ، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به ، وبين أنه منزل من السماء ، وأنه معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ، وتحداهم - إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين - إلى الإتيان بمثله ، أو بعشر سور مفتریات من مثله ، أو بسورة واحدة . فعجزوا أمام التحدى ، وباءوا بالخزى والهوان والذلة ، وصغرت نفوسهم وأقدارهم ، فلم ينطقوا بقول ، ولم يجاروا بلاغة القرآن في آية أو آيات أو سورة أو سور . واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة ، لا فرق بين خطيبهم وبلغهم وشاعرهم ، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم .

— ٣ —

ثم امتدت الأجيال ، وتوالى العصور ، والقرآن يتردد صدهاء في المشارق والمغارب ، فلم تر رجلاً وقف يتحدى بلاغة القرآن ، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان ، ولم تر مفكراً يؤلف كتاباً أو شاعراً ينظم قصيدة ، أو خطيباً يلقي خطبة أو كاتباً يحبر رسائل ومقالات ، ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنوهذه الفصاحة ، أو شبيه ذلك السحر ، وفي تاريخ العربية فحول وفحول : كابن المقفع والجاحظ

(١) الطور : ٣٣ و ٣٤ = وهي مكة (٢) الاسراء : ٨٨ = وهي مكة

وابن العميد والبدیع، وكجرب والفرزدق وبشار وأبي نواس وأبي تمام والمتنبي
والمعري، ولكن أين بلاغاتهم من هذه البلاغة؟ وأين منازلهم من هذه المنزلة؟

وهل منهم إلا من أذعن وبهر، وخشع وسحر، وخضع وأخذ، وأيقن أنه وحى
السماء... وفيها كتب ومؤلفات في أعلى ذروة البلاغة: كنهج البلاغة ورسائل
الجاحظ، وكليلة ودمنة، ومقامات البديع الخ،

ولكن ما هذه وغيرها من المؤلفات؟ وما مكانتها وما قيمتها؟ وما أثرها
وما خطرها في البلاغة الأدبية، أمام كتاب الله المعجز، وكلامه الحكيم... بل أمامك
الحديث النبوي الشريف، وهو في الدرجة العليا من الفصاحة، ولكن أين يقع نظمه
من نظم القرآن، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسي البيان؟

واقراً إن شئت بلاغات البلغاء، وفصاحة الفصحاء، ثم انظر — بسكون طائر،
وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل — في ذلك، فسيقع لك الفضل بين كلام
الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن القرآن يخالف نظم كلام الأدبيين (١)،
وأراد مسيلة الكذاب — فيما يروى — أن يقول كلاماً، فخرى وعجز، وبأن عليه
اللعى والحصر، وبأن بالخسران وسوء المنقلب، وأين يقع قوله «والليل الدامس،
والذئب الهامس، ما قطعت أسيد» من رطب ولا يابس، وقوله: والمبديات
زرعا والمحاصدات حصدا والذاريات قمحا، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً،
والثاردات ثرداً، واللاقات لقماً، إهالة وسمناً، وما سبقكم أهل المدر، وغير ذلك
من كلامه، من ذلك السحر والنظم القرآني العجيب المعجز، الذي لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد (٢)؟

— ٤ —

وفي الأمم الكبيرة فلاسفة ومفسكرون ومشرعون، وأدباء وكتاب وشعراء
وخطباء، ولكل منهم كتب وآثار أدبية.
ولكن هل هناك من هذه الآثار، ما يعادل في أثره وخطره ومنزلته القرآن
الكریم، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة، وتحديد واضح للثقل الإنسانية

(١) الإعجاز للباقلاني ص ١٢٨ . (٢) آية ٤٢ سورة فصلت .

العليا ، ورسم لأهداف الأفراد والجماعات والشعوب ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة والمدنية والعلم والعرفان ؟ وهل من بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدسونه ، ويعدونهم دستورهم في الحياة ، يقتبس الأدباء والبلغاء والعلماء منه ثروتهم الأدبية والعلمية ؟ وهل من بينها أثر قام به دين ، ونشأت عليه دولة ، وحضارة استظل العالم برأيها أجيالا طوالا مثل القرآن الكريم ، والكتاب الحكيم ؟ وهل للقرآن — بربك — شبيه من الكتب ، وحد لغة وحفظها وأذاعها في العالم ، ورفع شأنها وهذب ألفاظها وأساليبها ، وأحيا فنونا جديدة من الأدب ، وتأثر الناس ببلاغته وعذوبته وسحره ، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة . . كالقرآن الكريم ، وما أحدثه من آثار أدبية وبيانية وفكرية في لغة العرب ، فوق آثاره في حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية ، وفي حياة العالم والإنسانية كافة ؟

— ٥ —

ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم ، يؤمنون بإيماننا صادقا ، بأن لاسبيل إلى الوقوف في تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه ، وأنه شيء انفرد به وحده ، وأنه كلام الله وكتابه ، وأن نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إنما بنيت على هذه المعجزة ، وذلك الكتاب الحكيم المبين ، الذي عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله ، وستمضي وتتوالى الأجيال ، وهو يضيء كما يضيء الفجر ويزخر كما يزخر البحر ويفتن الآلاباب والعقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته ، وصدق الله العظيم : **« الله نزل أحسن الحديث ، كتابا متشابها ، مثاني ، تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد »**

العرب في عهد النبوة

ورايهم في إعجاز القرآن الكريم

— ١ —

في هذا البحث نذكر آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول : في القرآن الكريم وإعجازه ، ونحيط بموقفهم منه ، وإقرارهم بالعجز حيال تحديه ، ليعرف القارىء ما يتصل بالقرآن الحكيم وقضية الإعجاز .

روى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ، فقرأ عليه القرآن ، فكانه رقى له . فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، لئلا تأتى محمداً . انعرض لما قاله : وقد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولا يبلغ أنك كاره ، له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا باشعار الجن ، والله ما يشبه الذي نقول شيئاً من هذا . والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة . وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله . وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليعظم ماتحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر ، ثم قال : هذا سحر يؤثر . يأثره عن غيره ، (١) .

وروى أن الوليد بن المغيرة لما سمع من النبي : « إن الله يامر بالعدل والإحسان .. الآية » قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة . وإن أسفله

(١) ص ٢٢٣ ج ١ الشفاء للقاضى عياض ، ١١٧ ج ٢ الاتقان للسيوطى ، ٣٥٧ .
إعجاز القرآن للرافعى .

لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر (١) .

وجاء في رواية أخرى (٢) أن الوليد قال لبني مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آتفا كلاما ، ما هو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفل لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ، فقالت قريش : صبا والله الوليد ، والله لتصبأن قريش كلهم ، فقال أبو جهل : أنا أ كفيكموه ، ففقد حزيناً ، وكله بما أحماه ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمد أجنون ، فهل رأيتموه يخفق ؟ وتقولون : إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتسكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ؟ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ، فقالوا في كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر ، فقال : ما هو إلا ساحر ، أمارأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، وما الذي يقوله إلا سحر يآثره عن مسيلة وعن أهل بابل ، فارتج النادى فرحا ، وتفرقوا معجبين بقوله .

ويروى أنه لما اجتمعت قريش عند حضور الموسم ، قال لهم الوليد : إن وفود العرب ترد . فأجمعوا فيه - بعني النبي - رأيا لا يكذب بعضكم بعضا ، فقالوا : فنقول كاهن . قال : والله ما هو بكاهن ولا هو بزمنته ولا سجعه . قالوا : مجنون . قال : ما هو بمجنون ولا يخنقه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه ، ما هو بشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده ، قالوا : فما نقول ؟ قال : ما أتم بقاتلين من هذا شيئا إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق ، وإن أقرب القول أنه ساحر ، وأنه سحر يفرق به بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجته ، والمرء وعشيرته : فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس (٣) . فأنزل الله تعالى فيه : ذرني ومن خلقت وحيدا ، - الآيات (٤)

وقال صاحب الطراز : قال الوليد بن المغيرة في القرآن ما قال ، حين جاء إلى

(١) ص ٣٢٠ ج ١ الشفاء طبعة ١٣١٢ هـ .

(٢) ص ١٥٨ ج ٤ السكشاف للزحشرى .

(٣) ٢٣٣ ج ١ الشفاء ، ٣٥٧ و ٣٥٨ إعجاز القرآن للرافعي

(٤) آية ١١ - ٢٥ سورة المدثر

الرسول ، وقال له : أتلى على يا محمد ما أنزل إليك ، فأسرع الرسول إلى ذلك طمعا في الانقياد ، فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته ، إلى آخر السورة ، فقال : ان أعلاه لمورق ، وإن أسفله لمغروق ، وإن له لحلاوة (١) .

ويروى أن أبا جهل قال في ملا من قرش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلوا التسم لنا رجلا عالما بالشعر والسمكة والسحر ، فكلمه ثم أتانا بديان عن أمره . فقال عتبة : والله لقد سمعت الشعر والسمكة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى على ، فأناؤه فأسمعه رسول الله أوائل سورة فصلت فلما بلغ قوله . « صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » ، أمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قرش ، فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا وقد صبا ، فانطلقوا إليه ، وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبات ؟ فغضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابني بشيء ، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ « صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » ، أمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم . وقد علمت أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، فخفت أن يزل بكم العذاب (٢)

وقال عتبة حين سمع القرآن : يا قوم قد علمت أني لم أترك شيئا إلا وقد علمته وقرأته وقلته ، والله لقد سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالسمكة (٣) . . . ويروى ذلك عن النضر بن الحارث .

ويروى أن أبا بكر سأل أقواما قدموا عليه من بني حنيفة عن كلام مسيلة وما كان يدعيه قرآنا ، فقصوا عليه بعض كلامه ، فقال أبو بكر : سبحان الله ، ويحكم ، إن هذا الكلام لم يخرج عن آل - أي عن ربيعة - فأين كان يذهب بكم (٤)

ويقول السيوطي في الإتيان : وكانوا مرة يجهلهم يقولون : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ، مع علمهم أن صاحبهم أمي ، وليس بحضرته من يملأ أو يكتب في نحو ذلك من الأمور التي أوجبها العناد والجهل والعجز (٥)

(١) ٢١٨ ج الطراز.

(٢) ٣٨٧ ج ٣ الكشف ، ٢٣١ و ٢٣٢ ج ١ الشفاء (٣) ٢٢٣ ج ١ الشفاء

(٤) الباقلائي وهامش ٢٦٩ و ٢٧٠ الرافعي وكلام مسيلة تجده في إجاز القرآن

للإتيان ، ويقول حين يتحدث عنه صاحب الطراز : خرافات مسيلة (١٧٣ ج ٣)

(٥) ١٢١ ج ٢ الإتيان طبعة ١٩٣٥

ويقول حسان بن ثابت في شعره فيما قال عن القرآن الكريم :
 الله أكرمنا بنصر نبيه وبنا أقام دعائم الإسلام
 وبنا أعز نبيه وكتابه وأعزنا بالضرب والإقدام
 ينتابنا جبريل في أبياتنا بفرائض الإسلام والأحكام
 يتلو علينا النور فيها محكما قسما لعمرك ليس كالآقسام
 فتكون أول مستحل حلاله ومحرم لله كل حرام (١)

ويروى أن القصائد الجاهلية كانت معلقة على السكبة ، فأزلتها العرب لفصاحة القرآن لا معلقة امرئ القيس ، فان أخته أبت ذلك عنادا ، فلما نزلت آية در قيل يا أرض ابلعي ماءك ، قامت إلى السكبة فأزلت معلقة أخيها (٢) ، وإن كانت هذه الرواية مما لم يسلمها العلماء لأنها غير صحيحة .

وفي حديث إسلام أبي ذر وصف أخاه أنيسا فقال : والله ما سمعت بأشعر من أخى أنيس ، لقد ناقض اثني عشر شاعرا في الجاهلية أنا أحدهم ، وإنه انطلق إلى مكة وجاءني بخبر النبي ، قلت : فما يقول الناس ، قال : يقولون . شاعر ، ساحر ، كاهن ، لقد سمعت قوله السكينة فما هو بقولهم : ولقد وضعته على أقرام الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شاعر ، وإنه لصادق . وإنهم لسكاذبون (٣) .
 وأخرج ابن هشام عن ابن شهاب الزهري أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل ابن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رأيكم بعض سفهائكم لا وقعتم في نفسه شيئا ... ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس ابن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال : يا أبا حنظلة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ، قال الأخنس وأنا الذي

(١) ٣١٨ الديوان (١) هامش ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، الرافعي .

(٣) ٢١٤ ج ١ الشفاء .

حلفت ، قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، قال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ؛ حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفريسي رهان قالوا : من أنبي يأتيه الوحي من السماء ، فمى ندرك مثل هذه ؟ والله لا تؤمن به أبدا ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه . ويقول السيوطي في الإتيان : وقد أسلم جماعة عند سماع آية من القرآن كما وقع لجبير بن مطعم أنه سمع النبي يقرأ في المغرب بالطور . قال : فلما بلغ هذه الآية : « أم خلقوا من غير شيء . أم هم الخالقون » ، إلى قوله « المصيطرون » ، (١) كاد قلبي أن يطير ، قال : وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي (٢) .

وروى أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ : « فاصدع بما تؤمر » ، فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته (٣) . وما يتصل بهذا ما يروى أن أعرابيا سمع آخر يقرأ : « فلما استياسوا منه خلصوا نجيا » ، فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام .

روى أن عمر كان نائما في المسجد ، فجاءه رجل من بطارقة الروم يحسن العربية فأسلم وقال . سمعت رجلا من أسرى المسلمين يقرأ آية من القرآن فتأملت ما فاذا هي قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه » الآية (٤) ؛

وروى عن نصراني أنه مرقارى . ، فوقف يبكي ، فقيل له مم بكيت قال : للشجاء والنظم (٥) . وعن كعب : وهو من أهل الكتاب الذين أسلموا : عليكم بالقرآن فإنه فهم العقول ونور الحكمة (٦) ؛

وروى عن الأصمعي أنه سمع كلاما جارية ، فقال لها : قال لك الله ما أفصحك ، فقالت : أو بعد هذا فصاحة ، بعد قول الله تعالى : وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، الآية ، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين (٧) . ولقد كان مسيلة يعارض القرآن الكريم بخرافات وأقوال سخيفة ، ذكر طرفا

(١) آية ٣٥ - ٣٧ سورة الطور . (٢) ١٢٣ ج ٢ لائقان وراجعته في ٢٣١ ج ١ الشفاء

(٣) ٢١٠ ج ١ الشفاء (٤) ٢٢١ ج ١ الشفاء (٥) ٢٣١ ج ١ المرجع :

(٦) ٢٣٥ ج ١ المرجع . (٧) ٢٢١ ج ١ المرجع .

منها الباقلاني في كتابه ، : إعجاز القرآن ، . وهي معارضات لا يمكن أن توزن بالقرآن في سموه وجلال إعجازه بأى حال ، وقد أصيب مسيلة بالخزى والذل والهوان أمام نفسه وعند الناس :

ويقول صاحب الشفاء : روى أن ابن المفتح طلب معارضة القرآن ، ورامه وشرع فيه . فر بصي يقرأ : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » ، فرجع فحى ماعمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض ، وما هو من كلام البشر ، وكان من أفصح أهل وقته . وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الاندلس في زمنه ، فحكى أنه رام شيثام بن هذا ، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وينسج بزعمه على منوالها . قال : فاعترتني منه خشية ورقة حملتني على التوبة والإجابة (١)

ويتهمون المتنبي والمعري وغيرهما بمعارضة القرآن الكريم ، وهذا لم يصح عن أحد منهم .

وما روى من آثار معارضة القرآن لا يوافق ذوق على وضعه في كفة واحدة مع القرآن الكريم ، ويقول الدكتور طه حسين : نستطيع أن نطمئن إلى أن القرآن لم يجد له مقلداً ، ولم يجد له تلميذاً . هو واحد في بابه ، لم يسبق ولم يلحق بما يشبهه (٢) .

ويقولون إن أمية قد وقعت منه في شعره عدة معارضات للقرآن الكريم . وحاش لله أن يوزن شعر أمية الديني الذي تظمه بعد بعثة الرسول ببلاغة القرآن الكريم ، ولقد نظم أمية قصصاً دينية كثيرة ، كقصص مريم ، وقصة إبراهيم ونوح وغيرهم : ولكن أين هذه القصائد من هذا الإعجاز وذلك السحر القرآني العظيم؟ والكونيات في شعر أمية والأساطير وقصص خلق العالم ، وقصص الأنبياء ، كل ذلك لا يقبل ذوق أن يعده معارضة للقرآن ، وأين الثريا من الشرى كما يقولون ؟ وفي شعر أمية يبدو تأثيره الواضح أحياناً ببلاغة القرآن ومعانيه وأمالبيه ، كما تجده في هذه الأبيات :

عند ذى العرش يعرضون عليه يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتيه وهو رب رحيم إنه كان وعده مأتيا

(١) ص ٢٣٢ ج ١ الشفاء للقاضي عياض طبعة ١٣١٢ هـ

(٢) ص ٣٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين

يوم نأتيه مثل ما قال فرداً لم يذر فيه راشداً وغويا
أسعید سعادة أنا أرجو أم مهان بما كسبت شقيا
رب كلا حتمته وارد النا ر كتابا حتمته مقضيا

وقد كان الشعراء في أول عهد النبوة طوائف ثلاثا :

فطائفة كانت تعارض رسالة محمد وتحاربها أشد حرب ، ومنهم : عبد الله بن
الزبيري ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمر بن العاص ، وضرار بن الخطاب ،
وهؤلاء جميعا أسلموا بعد حين ، وبعد أن بهرتهم بلاغة القرآن .

وطائفة أخرى كانت مسع الرسول وأصحابه ؛ تدافع عن الدعوة والرسالة :
كحسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وهؤلاء إعجابهم ببلاغة القرآن
وتأثرهم به معروف .

وطائفة ثالثة كانت تعيش في نجد بعيدا عن مكة والمدينة ومواطن نزول الوحي ،
ومن هؤلاء : الخطيئة ، وكعب بن زهير وغيرهما . وقد ظل شعرهم جاهليا حتى
أسلموا وسمعوا القرآن وتأثروا بفصاحته وبيانه .

وأتم تعلمون قوة شعر حسان في الجاهلية ولينه في الإسلام ؛ انبهارا بجلال
القرآن وروعته . وتعلمون شموخ شعر أمية بن أبي الصلت في الجاهلية واستخذه
في الإسلام ؛ عجزا أمام هذا السحر الساحر ، والبلاغة المتدفقة ، والإعجاز العجيب .
ويروون أن لبيدا لم يقل شعرا في الإسلام إلا بيتا واحدا :

ما عاتب المرء الكريم كنفه
والمرء يصاحبه المجلس الصالح

وقيل قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى
حتى اكتسيت من الإسلام سربالا
وقال له عمر ؛ أنشدني من شعرك ، فقرأ سورة البقرة ؛ وقال : ما كنت لأقول
شعرا بعد إذ علمني الله سورة البقرة ، فزاد عمر في عطائه (١)
ويروى أن عمر كتب إلى عامله : أن سل لبيدا والأغلب ما أحدثا من الشعر
في الإسلام ، فقال الأغلب :

أرجزا سألت أم قصيدا ؟ فقد سألت هينا موجودا
وقال لبيد : قد أبداني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران ، فزاد عمر

(١) ص ٨٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وكما تأثر الشعراء بالقرآن وبلاغته ، فكذلك تأثر الخطباء والكتاب والبلاء في عصر الرسول وبعده ، يقول ابن خلدون في مقدمته في بيان السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلا طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية ، ومنشورهم ومنظومهم : السبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث . والذين عجز البشر عن الإتيان بمثلها ، لكونها ولجت في قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ، فنهضت طبائعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ، ممن لم يسمع هذه الطبقة ، ولا نشأ عليها ، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم ، أحسن ديباجة ، وأصفى رونقا ، من أولئك ؛ وأرصف مبنى . وأعدل تشقيفا . بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة (٢) .

وقد ظل تأثر الأدب العربي واللغة بالقرآن الكريم واضحا جليا في كل عصر من عهد النبوة حتى اليوم : فهل بعد ذلك كله تحتاج إلى دليل على الإعجاز : وإقرار العرب بهجزهم أمام تحدى القرآن ، واعترافهم بقصور ملكاتهم ومواهبهم عن معارضته ؟ اللهم لا : وما أصدق ما يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله أنزل هذا القرآن أمراً وزاجراً ؛ وسنة خالية ؛ ومثلاً مضروباً : فيه نبؤكم ، وخبر ما كان قبلكم ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم : ولا يخلقه طول الرد ، ولا تنقضي دجايبه ، هو الحق ليس بالهزل ، هو الذكر الحكيم والنور المبين ، والصراط المستقيم . وحبل الله المتين » . وفي الحديث : قال الله تعالى لمحمد : « إني منزل عليك توراة حديثة : تفتح بها أعينا عميا وآذاناً صماً وقلوباً غلغا . فيها ينابيع العلم وفهم الحكمة ، وربيع القلوب » .

(١) طبقات الشعراء لابن سلام . (٢) ص ٥٨٠ مقدمة ابن خلدون

مناهج المعرفة

في القرآن الكريم

يقول الله تعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد (١) » ، ويقول : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير؟ (٢) » . ويقول : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني عطفه ، ليضل عن سبيل الله ، له في الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد (٣) » .

في هذه الآيات الكريمة تحديد واضح لمناهج المعرفة ، ومذاهب التفكير والفهم عند البشر . وقد عنى القرآن الكريم في هذه الآيات ، وفي سواها مما لم نذكره ، أن يوضح للبشر دون لبس منابع الحقيقة واضحة بيّنة ، حتى لا يضلوا في بيداء الحياة ، أو يتشعب بهم الظن في مجال البحث واليقين ، وحتى يبنوا عقائدهم وآراءهم على أساس سليم مستقيم .

والقرآن الكريم يذكر في الآية الأولى صنيع بعض المشركين المتمردين على عقيدة التوحيد ، الدائنين على الحجاج والجدل في الله ، دون أن يرتكز جدلهم على دعامة من العلم والبرهان والمنطق ، ودون أن يخضع نقاشهم لحكم العقل والإنصاف ، وإنما يخبطون خبط عشواء ، ويسيروا في صحراء ظلمات ، لا يفرقون بين حق وباطل ، ولا يحاولون الرجوع إلى الحق أو التزامه أو الدفاع عنه .. فهم ينازعون في ذات الله وفيما يجوز عليه وما لا يجوز من صفات وأفعال ، ويقولون من الأباطيل ما يقولون ،

(١) أي متمرد متجرد للفساد والإضلال — آية ٣ سورة الحج .

(٢) آية ٢٠ و ٢١ سورة لقمان . (٣) الآيات ٨ و ٩ و ١٠ سورة الحج .

ملا بسين للجهل ، ويتبعون في أقوالهم وأعمالهم وعقائدهم كل شيطان عات ضال مضل عن سبيل الله . وذلك من أشباه ، أبي جهل ، والأخنس بن شريق والنضر بن الحارث وسواهم ، وكان النضر يقول : الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ، ويقول « إن ما يأتيكم به محمد هو ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية » ، ويقول : « الله غير قادر على إحياء من بلى وصار تراباً » ، وكان يذهب إلى فارس فيشتري كتب الفرس وأساطيرهم فيحدث بها قريشاً ، ويقول : « إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة » . والآية عامة في كل من أمعن في الجدال دون علم أو برهان ، ومن يضل ويضل بذلك عن سبيل الله ودينه وشريعته .

وكذلك الآيتان الأخريان من سورة لقمان تؤكدان هذه المعاني ، وأن من الناس من يدأب على الجدل في ذات الله وصفاته ، أو في دينه وشرائعه ، دون علم واستبصار ويقين مأخوذ من دليل عقلي ، ودون هدى وإرشاد مستفاد من هاد ومرشد من الرسل والأنبياء ، ودون كتاب منير واضح جلي هاد لا خفاء في هديه ، منزل من الله عز وجل إلى رسول من رسله المسكرمين ، فهو لا يؤمن بالدين ، وإنما يؤمن بالآوهام والتقاليد والعادات الموروثة والأساطير الكاذبة ، يتخذها منهجاً له في التفكير والبحث ، ويهمل عقله إهمالاً ، ويفسد فطرة الله في نفسه إفساداً شديداً ، وهل هناك ما هو أضر على الإنسانية من ذلك التقليد الأعمى ، والاتباع المردول ، وهل حارب القرآن الكريم شيئاً كما حارب التقليد وصنيع المقلدين ؟ ولذلك ذهب الأئمة إلى أن التقليد في أصول العقائد غير جائز ، حتى قال الرازي : « وأكثر العلماء على أن التقليد لا يكفي في أصول العقائد » ، ويؤكد القرآن أن مثل هؤلاء إنما يتبعون سبيل الشيطان وأن الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير .

أما الآيات الثلاث الأخيرة وهي من سورة الحج ، فهي كذلك تؤكد لهذه المعاني الشريفة وتقرير لها ، وتوضيح لصنيع هؤلاء الناس ، الذين يتخذون الجدل بالباطل وسيلة للضلال والإضلال عن سبيل الله ، لا يرجعون في جدلهم في الله إلى العلم أو الهدى أو الكتاب المنير ، وهنا يفسر المفسرون العلم بالعلم الضروري ، والهدى بالاستدلال والنظر الذي يهدي إلى المعرفة ، والكتاب المنير بالوحي ، وإن كنا لا نرى مانعاً من تفسيرها بما فسرناها به آنفاً ، أو بما فسرنا به المفسرون هنا ،

أو بتفسير آخر نذهب إليه ونرجحه ، وهو أن المراد بالعلم الحقائق التي تستقر في النفس ، ويرشد إليها التفكير والبحث والدليل والتجربة ، والهدى المراد به الإلهام النفسى الذى تمده فطرة الله في النفس الإنسانية التي فطرها الله على التدين والإيمان . والكتاب المنير هو المنزل من السماء على رسول من الرسل يدعو إلى مبادئه ، ويدشر بشريعته ، وتكون أقواله وأفعاله تفسيراً لما تضمنته من أحكام وآداب ، وشرائع وشعائر وعقائد ومثل . . ويؤكد الله عز وجل هنا أن الإعراض والاستكبار عن المبعث من الرسل ، هما ديدن هؤلاء الناس الذين حاربوا الرسالات الإلهية ، وضلوا وأضلوا عن سبيل الله ، وأن لهم خزيًا وهو أن في الدنيا ، وعذابًا أليمًا في الآخرة ، بما اجتروا من سيئات وما اقترفوا من آثام في حق الله والعقل والإنسانية والشعوب والجماعات ، والله عادل في عقابه لا يظلم أحداً . ولا شك في أن مثل هؤلاء يستحقون هذا العذاب ، فقد صدوا عن الله ودينه وتوحيده ، وجادلوا في الله مجادلة عن جهل وعناد واستكبار ، دون أن يخضعوا في جدلهم وحججهم لأصول العقل ، أو برهان العلم ، أو هداية السماء ، فإذا ما حاولت إقناعهم وإرشادهم وهدايتهم أصروا واستكبروا واستكباراً ، وجادلوا بالباطل وقالوا زوراً وبهتاناً ، وأخذوا يثرثرون بما لا يعقله العقل ، ويهرفون بما يزينون من الشرك والضلال والإضلال .

وهنا نجد القرآن الكريم يبنى صرح الحياة الإنسانية المثلى ، ويقدم دعائم المدنية والحضارة ، على أساس رائع عظيم ، من الفطرة والعقل وهداية السماء .

فهذه الآيات ، وإن تضمنت في عمومها بيان جزاء الصادين عن دين الله ، الذين يضلون ويضلون ويلوون رؤوسهم عناداً واستكباراً ، في الدنيا والآخرة ، كما تضمنت التحذير من الجدل والمناظرة في العقيدة بالهوى والقياس لأن في ذلك الضلال والابتداع والتحذير من التقليد الأعمى المرذول ، وتعطيل حكم العقل بالسير على منهج الآباء والأجداد في كل شيء ، حتى فيما يؤدي إلى الضلال والبهتان والشرك ، ومع أنها تضمنت كذلك نفي الظلم عن الله ببيان أن الإنسان هو الذى يجنى على نفسه بعناده واستكباره ومشايعته للباطل . . فهى كذلك تقرر أصول المعرفة الثلاثة : العلم الفطرى المركوز في طباع الناس كافة الذى يرشد إلى الخير والفضائل والتوحيد والإيمان ، والعلم النظرى المستفاد من الحججة والاستدلال والبرهان والبحث والتجربة ، والعلم الإلهى المستفاد

من الوحي والكتب السماوية المبرزة على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . وتبين الآيات أن المعرفة لا يمكن اقتباسها من غير هذه المناهج الثلاثة ، وأن جميع طرق المعرفة توصل إلى الإيمان والتوحيد ومعرفة الله .

فليس اتباع الوهم والخيال والأساطير ونزعات الهوى والشيطان ، مما يرشد إلى معرفة ، أوحق .. وليس كذلك التقليد ومحاكاة الناس واتباع مناهج الآباء والأجداد دون تحكيم المنطق والعقل والتفكير مما يوصل إلى نتيجة يطمئن إليها العقل والقلب جميعا .. وليس هناك شيء ما يقود إلى حظيرة الحقيقة المقدسة سوى المناهج الثلاثة ، التي تؤدي إلى الخير والهدى والفلاح والفوز في الدنيا والآخرة .

والفطرة الإنسانية في البشر تدعو دائما إلى الإيمان ، وإلى الاعتقاد بالله وبالرسالات ، وهي شاهد صدق على ضلال الماديين والدهريين والإلحاديين وغيرهم من فرق الضلال والعقل السليم يؤدي دائما إلى الاعتقاد بأن مسخر السموات والأرض وما فيهما إنما هو إله عظيم قادر على كل شيء . يستحق وحده دون سواه العبادة ، ولا شريك له في السكون .. وهو يرشد بمعونة الوحي إلى ما غمض فهمه من أمور الغيب والآخرة . ويطول بنا الحديث لو حاولنا أن نشرح هذه الحقائق الأزلية الخالدة التي دعا إليها القرآن الكريم ، وأثرها على الحياة والإنسانية والحضارة ، فلقف عند هذا الحد ، تاركين للعقل المجال ليحكم ويفهم ويبحث ،

البَابُ الرَّابِعُ

من أصول الإسلام الخالدة

الإسلام شريعة التقدم والنهضة

— ١ —

جمع الإسلام وكتبه بالحكم شتى أصول التقدم الأدبي والروحي والمادي والاجتماعي ، ودعا إلى مختلف المقومات العالية لمدينة فاضلة كريمة مهيبة ، غايتها سعادة الفرد الجماعة والأمم والإنسانية ، وأحكام الإسلام وآدابه هي نمط رفيع المثل العليا التي سعدت بها البشرية ، واستقامت بها حال الاجتماع ، وفاءت إلى ظلها الظليل الشعوب . ولقد كان نزول الإسلام على محمد بن عبد الله حدثاً فكرياً ودينياً وإنسانياً خطيراً ، فقد قلب الأوضاع ، وبدل النظم ، وغير مجرى الحياة ، وقضى على ما توورت من جهل وحق وسفه ووحشية ، وضلال وطمع وبهتان ، وأحال ذلك كله حضارة وعلماء وأدباء وديموقراطية صحيحة ، واشتراكية عادلة وأمناء وحرية وسلاماً ورفاهية في كل مكان .

خففت الراية الإسلامية على شعوب كثيرة ذات حضارات قديمة ، وعلى أمم بدائية لم تعرف نواويس التقدم والرقى من قبل ، فوحد الشمل وبدد الفرفة وساوى بين هذه وتلك ، وحارب التفرقة العنصرية الكاذبة ، وقاد الجميع بكلمة الله إلى حيث العمل والنظام والاتحاد والجهاد لأداء رسالة الدين ، والتبشير بحياة فاضلة بين الناس ، وصارت العربية هي لغة العالم الجديد ، والقرآن دستور الحياة في هذه الرقعة الشاسعة من الأرض ، والإسلام هو عقيدة الجماعات والطوائف والأفراد ، جاء الإسلام يبشر الجماعات والشعوب بحرياتها ، ويدعو إلى أكرم ما في الحياة من مبادئ ، وإلى أسمى ما تتطلع إليه الإنسانية من مثل وغايات وأهداف ، ويشعر شرائع الإسلام لم يشرعها من قبل ولا من بعد مذهب من المذاهب ، ولا عقيدة من العقائد .

كفل ديننا الخالد الحريات ، وهدم الفروق الظالمة بين الناس ، وسوى بينهم في الحقوق والواجبات ، وجعل الرئيس والمرءوس مسئولين عن أعمالهما ، ووسع باب العدالة حتى لا تنتمى فيه عند حد ، ولم يستثن من أحكامها إنساناً ولا طائفة ، ولم يقف في طريقها حتى اعتبارات الفتح والغلبة والسيادة .. يقول عمر من وصيته للخليفة من بعده : اجعل الناس عندك سواء . لا تبال على من وجب الحق ، ثم

لاتأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والآخرة والمحابة ، فيما ولاك الله .. والحكم في الإسلام أساسه مشيئة الشعوب وإرادتها ، ورعاية حقوق الإنسان في الحياة والحرية والكرامة والعيش ، وإطلاقه للحريات إلى أبعد مدى معروف ، فحرية الفكر والرأى ، وحرية التصرف والعمل ، والحرية الشخصية ، والحريات العامة ، وحرية الإنسان في مسكنه وفي اختيار لون الثقافة التي يريد لها لنفسه ولآبائته ، والحرية السياسية ، كل هذه الحريات قد قررها وحماها الإسلام وكتبها بالحكيم . وليس للحاكم - في شريعة محمد بن عبدالله - طاعة مفروضة إلا في حدود القوانين والدين ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وعلى الشعب أن يقومه إن زاغ ، ولذلك قال عمر : « من رأى منكم في عوجا جأ فليقومه » ، وقال : « إن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فقوموني » ،

ولنشر السلام في الأرض دعا الإسلام إلى المساواة الكاملة بين الناس جميعا الصغير والكبير ، والمحكوم والحاكم ؛ والفقراء والأغنياء ، وبين جميع الطبقات والجماعات ، وهي مساواة لا تعرف معنى للعنصريات والأجناس والألوان ، حتى لقد كان الخليفة عمر يمشى وعبدته راكب ، وولى رسول الله بلالا على المدينة وفيها سادة المسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وأبطل الإسلام التفاخر بالأحساب والأنساب والأموال ، وجعل العمل وحده هو محور التفضيل والاكرام : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ولذلك ألغى الإسلام الفوارق والامتيازات ، ودعا إلى عدالة اجتماعية حكيمة مبنية على الأخوة والتكافل العام بين الأفراد والجماعات . أساسها التحرر الوجداني والضمير البشري الحى والتشريع الإسلامى المحكم .

ويقرر الإسلام أن الناس أصلهم واحد ، وأنهم إخوة في الإنسانية ، وأن علاقات الأمم بعضها ببعض يجب أن تنبنى على السلام والمحبة والتعاون في الأرض ، ولذلك حارب الاستعمار والاستغلال والطغيان والفساد ؛ وحرم شن الحرب للسيطرة والنفوذ والسلطان ، ودعا إلى الرحمة والخير والإيثار والإخاء والمحبة بين الناس ، وحطم الشرك والوثنية حتى لا يستعبد أحدا في الأرض ، وألغى الرق البشرى ، وهدم عروش الطغيان والجبروت ، واعترف بحقوق الفرد الأساسية ، ورعى حقه في العيش وفي التأمين الاجتماعى ، وفي المنزلة الأدبية ، حتى لا يوجد شيء يعكس أسباب السلام بين الناس . .

شرع الإسلام كذلك الديمقراطية الصحيحة التي تركز على أصول قوية ، ودعامات ومبادئ مثلى ؛ فهي تؤمن بمبدأ حكم القانون ، وبأن حكم الشعب للشعب ، وبأن الحكومة وجدت لخدمة الشعب والعمل على رفاهيته ، وتؤمن كذلك بروح التسامح والحرية الاجتماعية وحرية الرأي للأفراد والجماعات ، وبالحرية الاقتصادية التي تهدف إلى تحقيق الرفاهية للناس كافة ، والتي تؤدي التزاماتها كذلك للفقراء وللجمتمع والدولة ، ثم هي تحارب كل لون من ألوان التمييز بين الناس .

وأقام الإسلام كذلك أصوله على اشتراكية مثلى ، دعائمتها العدل والتعاطف والتكافل والمحبة بين الناس ، والإيثار والتضحية وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، والالتم لشقاء الناس ، وبذل ما في اليد ومساعدة كل محتاج ؛ اشتراكية لا تدع لذى ألم ألما ، ولا لذى حاجة حاجة ، ولا لذى كربة كربة . اشتراكية يرفعها الله ورسوله وشريعته ، ويدعو إليها الضمير الإنساني ، وهي من الناحية المعنوية تدعم الحرية الفردية الصادقة ، ومن الناحية الاقتصادية تنزع إلى مقاومة الاستغلال في مختلف ألوانه ، ومن الناحية السياسية تدعو إلى الشورى والإخاء بين الناس ، ومن الناحية الاجتماعية تقاوم الفقر وتجعل الغنى وظيفة اجتماعية ناطقة بحقوق والتزامات ، ومن حيث الوسائل تنسكرك الثورة والنرد وصراع الطبقات ، وتحرص على الأمن والسلام بين الناس . ولا تجعل الملكية وسيلة للامتياز والنفوت بين الناس ، وغايتها إشاعة الخير والرفاهية بين بنى البشر عامة ، وحماية حقوق الإنسان والعامل والمرأة وتقرير التأمين الاجتماعى للفقراء والمعوزين ، وفرض الزكاة ضريبة يخصص إيرادها لمحاربة الفقر وسد حاجة المنكوبين من الناس ، وتحريم الربا والاستغلال والاحتكار في شتى صوره ، ورفع شأن العامل وفتح أبواب العمل أمامه والحض على العمل وعلى وعلى إيجاده للعاطلين : بما يشرعه الإسلام من نظم اقتصادية سليمة ، كالزراعة والمساواة والمضاربة والشركة والإجارة وعقد العمل وسوى ذلك ، ومن ثم حرم ديننا النرف والإسراف وحد من غلواء الرأسمالية . وكره التمييز بالنفارت المادى بين الناس ؛ وأوصى بالصدقة والإحسان وفرض نفقة الأقارب المحتاجين على ذويهم من الأثرياء أو القادرين على الكسب ، وشرع نظام الوصية والقرض والوديعة والإعارة والهبة وفريضة الميراث . وأوصى بالتكافل الاجتماعى بين المسلمين عامة .

وهكذا نجد أصول الإسلام ومقومات شريعته ودعائمه ميراثه الروحي ، تنزع نحو حماية الحريات وإشاعة السلام والخير بين الناس ، وتجعل من هذه الأصول الكريمة أساسا لحضارة إسلامية مشرقة ، ومدنية روحية مزدهرة ، قامت ونمت وترعرعت في الأرض ، واجتمعت عليها الأمم والشعوب ، متعاونة متحدة يسودها العدل والأمن والطمانينة والنور والعلم ، والإخلاص لله ولرسالة الإسلام السامية المخلاة فإين هذا من صنع الحضارات المادية السائدة في عالم اليوم ، ومن آثار مبادئ المدنية الغربية المجللة بالخزى والعار والكرهية على أرض الشرق؟ أين هذه الأصول السمحة العالية الكريمة من الأصول التي تبنى عليها دول الغرب سياستها المدمرة المخربة في مراكش وكينيا وفلسطين وفي كل إقليم وطئه الإستعمار الخبيث الذي يهدم صروح الحرية والسلام في كل مكان ؟

إن الإنسان الذي يعيش اليوم في غمار مدنية القرن العشرين لاولى به أن يرجع إلى حياة الغابة من أن يعيش في ظلال القلق والخوف والطغيان والدماء .. وإن المدنية التي ترفرف على شعوب العالم الآن لخرى بها أن تنسكس الإعلام خزيها وحياة من أن تنسب إلى المدنية الفاضلة ، وإشفاقا من أن توازن بمدنية المسلمين التي شملت العالم كله حقبا من الزمن فشمله الخير والنور والسلام ، وسعدت بها أمم كانت ترسف في قيود الطغيان ، فاستعادت حريتها ، وعاشت تسكافح من أجل رفاهية البشر وتقدمهم ، ونشر رسالة الله والإسلام بين الناس .

مَنْ مَفَاخِرِ دِينِنَا الْإِسْلَامِ - ١

أكثر المذاهب القديمة والحديثة قامت على الدماء والأشلاء ، وكل النظم التي سادت - وتسود اليوم - العالم قد ذهب ضحيتها ملايين البشر .. أما الإسلام ، وأمره في قيامه وفي ذبوعه في العالم كله ، فعلى العكس من ذلك : يقول هانوتو :
« لما بعث الشرق من مرقد عاش في الإسلام ، وانتصر بالإسلام ، ولا يزال يحيا اليوم وغدا في الإسلام .

وأضيف إلى ذلك أن الإسلام إنما قام على السلام والحرية : حرية الدين ، وحرية التملك والكسب الحلال ، وحرية الطمأنينة على النفس والمال .
إن الإسلام رسالة إلهية ، لا مبدأ اخترعه بشر ، وهو رسالة الحرية والإخاء والمساواة والعدالة والإصلاح والمدنية ، إلى العالم كافة ، والبشرية بجميع طبقاتها .
ليس الإسلام ثورة طبقة على طبقة ، وصراع جماعة لهدم أخرى .. ولم يكن قيامه وانتشاره إلا لما حواه من مبادئ القوة والحق والخير والجمال .

لقد جمع الإسلام إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة ، وتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربي وجدران الصين في أقل من قرن واحد .
وكان قيامه في الجزيرة العربية أثراً للدعوة إليه ، واقتناع العرب به ، إذ لم يفرضه محمد على العرب بقوة السلاح ، ولا بتأييد من عصبية أو سلطان أو ثروة . ولم تكن حروب محمد وخلفائه إلا دفاعاً عن حرية العقيدة التي كان الشرك والوثنية والاستبداد تريد القضاء عليها وعلى نور الله الذي أنبثق من الصحراء بآخر رسالات الله ، وكانت مبادئ الإسلام نفسها ، وروح العدالة المطلقة والمساواة والإخاء التي سادت المسلمين الأولين بإيحاء قوى من دينهم ، هي السبب الأكبر في انتشار الإسلام بين الأمم ؛ وكانت حرية الأديان محرمة إلا في بلاد الإسلام . إن سرعة انتشار الإسلام وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة إنما كان لسهولة تعقله ،

ويسر أحكامه ، وعدالة شريعته ، وبالجملة لأن فطر البشر تطلب ديناً ، وترتاد منه ما هو أس بمصالحها ، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها (١) .

ولاداعي للإفاضة في هذه الحقيقة التاريخية فإنها معلومة مشهورة ، ولكنني أقصد من ذلك الرد على مفتريات المبشرين ودعاتهم ، الذين يضلون عقول الجماهير ، ويقولون : إن الإسلام قام بالسيف ، وإن الجنود المحاربين هم الذين حملوه إلى جهات الدنيا ، وهذا افتراء على الحقائق ما بعده من افتراء ، فدعوة الإسلام هي التي كانت تدعو إلى نفسها بنفسها ، والإسلام معناه السلام ، وهو حامى الحريات ، وحرر الشعوب والجماعات ، والتاريخ الإسلامي شاهد صدق على أن مبادئه هي السر الأكبر في انتشاره ، وإن كان المسلمون حملوا السيف ليدافعوا به عن أنفسهم ، وليحموا العقيدة من عدوان المشركين والوثنيين ، ولم تهاجم الجيوش الإسلامية امبراطوريتي الروم والفرس إلا للقضاء على المناورات العسكرية الخفية التي كانت تريد أن تمهد للإطباق على الجزيرة العربية وواد الدين الجديد فيها .

إن كثيراً من المذاهب الحديثة والقديمة على السواء قامت على الثورة والحرب والكفاح وصراع الطبقات ، ولكن الإسلام لم يكن في حاجة إلى شيء من هذا ، والمسلمون كانوا دعاة خير وعدل وإنصاف ورحمة وبر وتعاون ، ولا شك في أنه لا سبيل إلى التوفيق بين مؤمن بحرية الفكر والعقيدة ، وكافرها لا يرحب مثله بمبادئ الخير والتكافؤ والسلام ، بل يحق عليها ويبغضها .

وإذا أردنا أن نوازن بين الإسلام والمذهب الشيوعي - مثلاً - في قيامهما وشأنهما ، هالنا الفرق بين دين شعاره الإخاء والوحدة والأمان ، ومذهب يصطنع العداء بين الناس ويعتمد على التفاوت بين الطبقات ، ليثير الحقد والبغضاء في نفوس بني البشر ؛ وليقول لهذا أنت غني ولذا أنت فقير ، والغني شر والفقير موت ، وليدفع الفقير إلى أن يقاتل بالسيف أخاه الغني ليستحوذ على ماله وثروته ، يدلك على ذلك التاريخ ، فقد بدأت الشيوعية في روسيا لأول مرة عام ١٨٨٣ حين شكل بليخانوف الجماعات الماركسية ، ومنها جماعة تحرير العمل التي تعتنق آراء ماركس وإنجلز الداعية إلى أن تسير الطبقة العاملة إلى أهدافها بالقوة والثورة ، وقد سبق

(١) رسالة التوحيد ص ٢١٧ - محمد عبده - طبع المنار سنة ١٣٦١ هـ بمصر .

ذلك صدور قانون تحرير رقيق الارض عام ١٨٦١ فى عهد القيصر إسكندر الثانى بتأثير كتابات المفكرين ودعوتهم إلى الإصلاح ، من أمثال تولستوى وجرركى وبوشكين .

وفى عام ١٨٩٨ نشأ حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى فى روسيا داعياً إلى تعاليم ماركس ، وفى ١٩٠١ قام الحزب الاشتراكى الثورى . وفى عام ١٩٠٣ أنشأ لينين الحزب الشيوعى البولشفى ، ومن ذلك الحين ظهرت البولشفية مدرسة فكرية وحزباً سياسياً ينادى باستخدام القوة والعنف لخدمة أغراضه . . . وخلال الحرب العالمية الأولى - وكانت روسيا تقاسى أهوال الحرب وويلاتها - أخذت الشيوعية تستخدم السخط العام لإثارة حرب الطبقات ، فقامت فى أوائل مارس ١٩١٧ ثورات وحروب أهلية مدمرة بين الطبقات ، وفى منتصف مارس قبض الشيوعيون على القيصر نقولا الثانى ، وفى اليوم الثانى أعلنوا الجمهورية ؛ وأخذوا بعد ذلك فى ذبح الأغنياء ، واستصفاء أراضى كبار ملاك الأرض ، وتسليم المصانع والمناجم إلى العمال ؛ وقامت الديكتاتورية الشيوعية الطاغية فى روسيا ، وأخذوا يسلبون الملاك ومحاصيلهم ومتاجرهم ومصانعهم باسم الثورة ، حتى المنازل فى المدن ، ونفذوا مشاريعهم الاقتصادية بقوة السلاح والإرهاب ، وعاملوا طبقة الفلاحين الأثرياء «الكولاك» بدون شفقة أورحة كما يقول المؤرخون الروسون (١) ، فحكوا عليهم بالموت أو بالتشريد فى سيبيريا وغيرها . وقامت المذابح الهائلة - باسم الإصلاح - فى كل مكان مما انبعث عن فكرة آمن بها الشيوعيون إيماناً عميقاً ، فكرة صراع الطبقات واستخدام القوة المسلحة للقضاء على خصومهم فى الرأى ؛ ويصور هذه الفكرة زعماء الشيوعية الروحيون والسياسيون ، ويقول ماركس وإنجلز : إن تاريخ كافة الجماعات الحاضرة هو تاريخ الصراع بين الطبقات (٢) ، ويقول ماركس : إن صراع الطبقات يقود بالضرورة إلى ديكتاتورية الطبقة العاملة التى هى وسيلة لالغاء جميع الطبقات (٣) وبحاربها الاسلام حرباً شعواء ، لأنها تفسد الأمن والسلام ، وتقضى على الإخاء الإنسانى ، وتجعل بعض الناس أعداء بعض ،

(١) ٢٥ و ٢٤ الدستور السوفيتى لفؤاد محمد شبل - طبع القاهرة .

(٢) ٣٨ المرجع السابق . (٣) ص ٤٦ المرجع نفسه ، و صفحة ٧١

نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين طبع القاهرة ١٩٤٨

وتدعو إلى نهب بعضهم بعضا ، وتولد الشحنةاء والحقد في المجتمع ، والنصوص على ذلك كثيرة من القرآن الكريم وكلام الرسول ؛ بل إن صراع الطبقات لم تؤمن به أية جماعة في عصور الجاهلية الأولى ، ولا يدعو إليه اليوم إصلاح ، فهذا هو الإصلاح العام في الديمقراطية يسير بتلك الأمم إلى المساواة والعدالة الاجتماعية دون وجود صراع طبقي ؛ على أن مصالح الجماعات الإنسانية لا تعارض بينها على الحقيقة ، وإنما بينها التعاون والانسجام ، والإسلام يوجب أن يعيش الفقراء والأغنياء بعضهم بجوار بعض إخوة متحابين ، وقد دعا إلى التعاون التام بين الطبقات .

ولقد أعلن المؤتمر الشيوعي الأول الذي عقد في موسكو في ٧ مارس ١٩١٩ تأليف الدولية الشيوعية الثالثة (الكومنترن) لنشر الشيوعية في العالم . وتحويل العمال فيه إلى شيوعيين ، وإثارة الاضطرابات ، وإيجاد القلاقل في المحيط السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الدول ، تمهيدا لثورة الطبقة العاملة وسيادة الشيوعية بين الشعوب ، وقد ألغت روسيا الدولية الشيوعية في ٢٢ مايو ١٩٤٣ ، تقربا إلى الحلفاء ، ولكن الدولية الشيوعية الثالثة استعادت نشاطها الآن ، وهذا ما يبدو بعد إنشاء مكتب الاستعلامات الشيوعي (الكومينفورم) في أكتوبر ١٩٤٧ ، وآثار ذلك واضحة في إثارة الطبقات في الشرق والغرب .

وكتاب « مشاكل اللينينية » ظل المرشد الأعلى في شئون المبادئ والأفكار الشيوعية ، ولا يترك هذا الكتاب أثرا للشك في اعتقاد « ستالين » ، مؤلفه ، في أن من حق الكتلة العاملة المضطرة — الكتلة الشرقية — بل من واجبها المقدس أن تستخدم القوة في إشعال نار الثورة في البلاد الأجنبية إذا ما لاحت الفرصة لإشعالها ، وأن تستخدم القوة العسكرية إذا لزم الأمر ضد الطبقات المستقلة والدول التي تناصرها .

وحكم العقل والأديان عامة والإسلام خاصة على مبادئ ونظرية صراع الطبقات واستخدام التوة الثورية لإرهاب الشعوب المسالمة ، لا يخفى على إنسان .

إن الشيوعية لم تكن لتقوم لها قائمة في بلادها لولا هذه المجازر الهائلة ، وعدد

الضحايا الضخم لها في بلادها ، ولولا سجون الاعتقال والنفي إلى مجاهل سيبريا ،
والبطش بخصوصها في الرأي ، والتنكيل بمعارضتها في الفكرة ، ثم لولا الدعاية
والأموال الضخمة التي تبذل لنشرها .

أما الاسلام فلا يمكن أن يشك عقل في أنه إنما قام على السلام والمحبة والرحمة
والخير والتعاون بين الناس ، وعلى الصدق في المبادئ ، والاقناع بالحجة ، وسمو
مبادئ الدعوة وأهدافها ، واتجاه هذه الرسالة الإلهية إلى غرس بذور الوثام
والوحدة بين جميع الأمم والشعوب ، وعملها لنشر الرفاهية والسعادة بين بني
البشر كافة .

الإسلام والسلام

إن السلام - في رأى الإسلام - ضرورى للإنسانية ، وتلك قضية لا ريب فيها ، فالسلام هو أنشودة البشر ، وأمل الإنسانية ، لأنه ضرورى لتقدمها .
هو الذى يساعد على الإنتاج ، وعلى رفاهية الناس وتقدم التجارة والصناعة والزراعة ، وعلى نشر العلوم والفنون والآداب ، وعلى سير الحضارة والمدنية والرقى .
أما الحرب فتهدم ولا تبني ، وهى وسيلة للتدمير والتخريب ، تبعث على الذعر والخوف والاضطراب ، وتدع الملايين من بنى البشر فى شقاء وظلام ، وتحط من مستوى التفكير والعمل والنشاط بما تنشره من فزع وأحزان ، وتوقف سير المدنية وتعوق تقدم بنى الانسان .

وأنت ترى المفكرين ينادون بتحريم الحروب وتوطيد دعائم السلام بنزع السلاح ، وتحريم شن الحروب ، وبالعمل على توثيق الروابط الفكرية والاقتصادية بين أمم العالم ، وعلى إيجاد أخوة عالمية وزمالة إنسانية ، بل بإيجاد حكومة عالمية السلام هو المدنية والحضارة ، والحرب هى الدمار والخراب ، والسلام هو أهم عامل يساعد الإنسان فى الحياة على التقدم ، والحرب أفضع ماشه الانسان وخاصة فى العصر الحديث الذى كشف القنبلة الذرية الصاروخية وسواها من وسائل الافناء .
ولقد دعا الإسلام إلى السلام ، وحث عليه ، أوجب السلام فى المجتمع ، كما أوجبه بين الأمم والشعوب ، وحمل المسلمون رسالة السلام إلى الأمم والشعوب وبشروا بها الإنسانية داعين إلى الرحمة والمحبة والتعاون والخير العام .
وفكرة السلام الاجتماعى جزء من العقيدة الإسلامية ، وأساسها أن المجتمع مهما كبر أسرة واحدة ، والناس إخوة فى الله والإنسانية ، وعلى كل فرد أن يعمل على نشر الأمن والسلام والمحبة والتعاون بين الناس ، وأن يؤمن بالإيثار والبذل وبالتكافل الاجتماعى .

والإسلام يدعو إلى السلام العالمى وإلى أن تقوم العلاقات بين الأمم والشعوب على التعاون والإخاء والتعارف ، وألغى العصبية وفوارق الألوان والأجناس .
فالدین الإسلامى فى جوهره ، شريعة السلام والوئام ، ودين الحرية الشخصية

والأمن الاجتماعي والإخاء البشري ، وهو من أجل ذلك يحارب الفوضى والاضطراب
والشقاء ، ويحارب الظلم والإرهاب وكل ما يحول دون تمتع الفرد بحريته
والمجتمع بأمنه والبشرية بالسلام والإخاء المنشودين .

والدين الإسلامي في اشتراكه كيته العادلة ، ومبادئه السمحة الواضحة ، وفي عمله
على النوض بالمجتمعات والشعوب في ظلال التعاون والمحبة ، وفي رعايته لمصلحة الفقير
والغني جميعا ، وفي وضعه للمبادئ العامة التي تسكف للإنسانية الأمن والتقدم
والرفق ، هو في ذلك كله يعزز مبادئ السلام ، ويعمل على خلق جو جديد ترفرف
فيه أجنحة السلام والإخاء والحرية والحضارة والنور والعرفان .

مقومات الإصلاح في الإسلام

رسالة الدين في الحياة هي السمو بالعواطف والمشاعر ، وتهذيب الأخلاق والضمائر ، وتطهير النفوس والعقائد ، ورعاية كرامة الإنسان خليفة الله في أرضه ، والدفاع عن حقوق الأفراد والجماعات والشعوب ، هي النهوض بالمجتمع البشري ، والسير به قدما نحو النور والهدى ، والطهر ، والخير ، والعزة والحرية ، والأمان والسلام .

الدين هو شريعة الإصلاح ينظمها قانون سماوى له في النفوس الحب والتقديس ، وهو الناموس الخالد لدعوة التجديد والبناء والنهضة والحضارة ، والنبع الأزلى للحقيقة والإيمان والعدالة ، فليس هو بخدراً للشعوب كما زعم كارل ماركس وأنصاره من دعاة المادية والإلحاد ومحاربة الدين باسم المدنية ، ومن الذين يغالون في إنكار الروحيات ووجود الله ومعاداة كل ما يمت بصلة إلى الدين ، ويزعمون أنه يحافى العقل والعلم والتقدم .

إن الأديان السماوية عامة ، والإسلام من بينها خاصة ، لا تعترف بأية وصاية أو حجر على العقل ، ولا تقر ظلماً أو عدواناً ، ولا تلبس الأهواء والشهوات مسوح الدين ، ولا تشرع ما يناهى ناموس الارتقاء .

ولقد جاء الإسلام ، فأيقظ الشعوب ، وعزز فكرة الإصلاح ، وحمى الحرمات والحريات وكرامة الإنسان . لم يترك حقاً إلا شرعه ، ولا عدلاً إلا فرضه ، ولا فضيلة إلا أوجبها ، ولا خيراً إلا دعا إليه . حارب الاستغلال في شتى صوره ، واعترف بشخصية الإنسان المعنوية ومكاته الأدبية في الحياة ، فجعل له حقوقاً كفلمها ورعاها ، وحذر من يعتدى عليها من سخط الله وغضبه وعذابه الآليم . لم يقاوم الإسلام رغبة جماعة في الإصلاح ، بل أنكرته الجماعات المتأخرة لما تدعو إليه مبادئه من تجديد وتنظيم وإصلاح ، وهذه المبادئ المثلثية التي كانت تدعو بنفسها إلى الإسلام في شتى الأنظار والأمصار ، وهي التي مهدت لقيام حضارات زاهية مشرقة كانت نواة الحضارة الحديثة ، ولا عجب فللإسلام مآثره الرائعة في تحرير الشعوب ،

والذياد عن الحقوق ، وتنظيم الواجبات ، وفرض العدالة والمساواة والإخاء ،
وحماية الفكر ورعاية الثقافة .

ولا ريب أن في اتباع مبادئ الدين والسير على منهاجه ، والإيمان بما يدعو إليه
من مثل : عصمة من الزلل ، ومنجاة من العثار فالمبادئ القوية لا تخلق الجماعات
القوية إلا إذا آمنت بها ، واتبعتها ، واتخذت منها ناموساً كريماً ونظاماً قوياً ،
يقيها عواصف الأهواء وزيف العبث والعدوان والشهوات .

وإذا كان هناك من يتجر بالدين في عصور التأخر الفكري والاجتماعي ، فليس
ذلك ذنب الدين نفسه ، إنما هو ذنب من يريد أن يحيل النور نارا ، والهدى ظلاما ،
ويعلم الحق ويكتمه ، ويحامل فيه ، ويحاول أن يطفى نور الله : ولقد حذر الله
تعالى من هؤلاء ، وأنذرهم بعقاب شديد .

وبعد فليس أدل على ضلال خصوم الدين من إنكار كثير من الفلاسفة والمفكرين
لآرائهم المادية الأحادية ، وجهرهم بأن الدين شيء مقدس لا تستغنى عنه الإنسانية
ولا الحياة . . ففكرة الدين ، وعقيدة الله الذي ليس له نهاية ، وقضية الروح ، وتنظيم
العلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت في الضمير البشري الخفي الذي ليس له
نهاية ، وإن الإنسان لا يستطيع أن يعيش على الأرض إذا فقد الإيمان بالدين
والعقيدة في وجود الله ، ومن آمن بالمادية فقد كفر بالخالق الأعظم ، وأسلم نفسه
للحيرة والضلال : « أفغير دين الله يبغيون ، وله أسلم من في السموات والأرض :
طوعا وكرها ، وإليه يرجعون » .

المادية حرب على الأديان

المادية أخطر المذاهب الحديثة ، وأشدّها حرباً لفكرة التدين في الإنسان ، ولفطرة العقيدة التي فطر الله البشر عليها . وقد شن دعايتها في الغرب الحرب على الأديان ، وأقاموا حكومات تؤيد مذهبهم الإلحادي ، وتحمل الناس عليه بقوة القانون ، وتطارد دعاة الأديان والمؤمنين بها أينما كانوا .

والمادية في جملتها تذهب إلى أن المادة في كافة صورها هي المؤثرة في كل شيء ، وإلى أنها في الوجود أسبق وأن لها - لا للبعنويات - القدح المعلى في مصائر الشعوب والإنسانية .

وكان المادية دعايتها في القديم ، ومن آمن بها الفلاسفة دهيرقليطس ، وليوسيس وديمقريطس . ومن دعا إليها في الحديث : بيكون ، وهوبز ، وقد ذهب الأخير إلى أن المادة والحركة هما وحدهما الحقيقة المطلقتان وأن المعرفة الإنسانية تأتي عن طريق الاحساس . وقد أيده في ذلك تولاند الذي رأى أن المادة هي القوة ، والحركة والحياة والعقل بعض خواصها ، وأن التفكير هو وظيفة العقل ، وكذلك نهج بريستلي وهارتلي ، ودارون ، وبلاماتري ، وسواهم ممن استغنوا عن الروح واطرحوها وفسروا الحياة تفسيراً ميكانيكياً مادياً محضاً . وألف ديجتر ، كتابه « القوة والمادة » . الذي ظل حيناً دعامة قوية من دعائم المذهب المادي (١) ، وأعظم الماديين هو كارل ماركس اليهودي المادي المتطرف ، وقد ورث الروح المادي عن أستاذه إنجلز الذي كان يقول : « إن العالم المادي الذي ندركه بحواسنا ، والذي نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة ، وليس الإدراك والتفكير إلا نتاجاً لعضو من أعضاء جسمنا ، وهو المخ ، فليست المادة من إنتاج العقل ، بل إن العقل نفسه ما هو إلا اسمى إنتاج للمادة . وتفسير ماركس للمادية هو الأساس الأول الذي يبنى عليه الشيوعيون مذهبهم ، فمنجد لينين وستالين يقرران أن المادة والطبيعة والوجود

(١) راجع ص ٢٦ وما بعدها من كتاب نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال

الدين طبعة ١٩٤٨ .

حقائق موضوعية ، خارج نطاق عقلنا ، ومستقلة عنه ، والمادة تأتي في الصدارة ، ويتلوها العقل ، ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع والوجود المادي له ، لها السيادة على الحياة الروحية التي هي انعكاس للمادة ، كما يقرر أن العالم بطبيعته مادي ، وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة في تحرك ، وأن ارتباط الظواهر واعتقاد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة إلى الروح الشاملة (١) ، وكذلك تؤمن الشيوعية الحديثة بنظرية النشوء والارتقاء التي قال بها دارون ، ومن ثم تصرف على إنكار وجود الله ، وكان إنجلز يرجع كل شيء حتى الدين والأخلاق والفكر والثقافة إلى انعكاسات الأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقة (٢) . ويفسر هو وتلاميذه الأحداث التاريخية تفسيراً مادياً ، وهذا التفسير الاقتصادي للتاريخ ينسكركم الدين ، وكان ماركس شيخ الماديين لا يؤمن بالمثل ، ولا يدين بالمحسوسات ، ويؤثر عنه قوله : « لا إله والحياة مادة » ، وقوله « رسالة الطبقة العاملة هي القضاء على الدين والداعين إليه » ، وكان « هوبز » يقول : « إن الأشياء المادية وحدها هي المحسوسة بالنسبة لنا ، فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله ، ووجودي الخاص هو وحده الأمر المؤكد ، أما ما عداه فخيال لا أصدقه » ، وكان إنجلز يقول : « لا محل مطلقاً لوجود خالق » (٣) .

كل هذا قطرة من بحر من آراء الماديين في إنكار الروحيات ، وجحد وجود الله ، ونبذ فكره الدين ، وحربهم الخطرة على الأديان .

ولا شك أن هذا المذهب الإلحادي على ضلال مبين ، وهو لا يحارب بآرائه الإسلام وحده ، وإنما يشرك معه جميع الأديان ، والذين يؤمنون بهذا الإلحاد هم في رأى الإسلام مرتدون ، يقاثلون حتى يفيثوا إلى دين الله وإلى الحق .

إن الدين عنصر من العناصر التي لا تتم الحياة بدونها ، وهو رسالة الله إلى الإنسانية ، حملها الأنبياء والمرسلون ، وأدوها إلى الناس لخيرهم وسعادتهم في الدنيا

(١) راجع ٨٣ المذاهب السياسية المعاصرة ، ١٤٢ الدستور السوفيتي ؛ ٥٣ الشيوعية في الميزان .

(٢) راجع ٣٠ و ٣١ الدستور السوفيتي - طبع النهضة ١٩٤٩ .

(٣) ١٧ الاشتراكية العلمية والاشتراكية الخيالية لفرديريك إنجلز .

والآخرة ، والفلاسفة والمفكرون الذين لم خطرهم في الحياة الفكرية في العالم القديم والحديث كانوا من خير الدعاة إلى فكرة الدين والإيمان بالله ورسله ، وكان تولستوى يقول : « إن الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة » ، ويقول : « إننى لا أعيش إذا فقدت العقيدة في وجود الله ، ولو لا أننى كنت أتعلم بأمل غامض في وجود الله لفقدت نفسى من زمان بعيد ، عشت باحثاً عن الله وإذا فلن تعيش بدونيه ، وعندما اعتقدت في وجود الله اعتقدت في السكال الخاقى وفي التقاليد التى تحمل معنى الحياة » .

ويقول شوبنهاور : « إن فكرة الإله الذى ليس له نهاية وقدسية الروح ، والعلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار ضعفت في الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ، وهى تلك الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة البقاء بغيرها . ويقول رينان : من الممكن أن يتلاشى كل شىء نحببه إلا التدين فسيفى أبد الأبدى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى . ويثبت ، كريسى موريسون ، الرئيس السابق لأكاديمية العلوم فى نيويورك فى كتابه « الإنسان ليس وحيداً » وجود الله بأدلة علمية لا تقبل الجدل وينتسبى إلى أن الله فى كل مكان وكل شىء . ولكنه أدنى ما يكون إلى قلوبنا ، وأن قول صاحب المزامير : « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » هو قول صحيح من ناحية العلم والتخيل جميعاً (١) ، وأكده عدد كبير من علماء الذرة والفلك وعلم الحياة والرياضة أن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لا حد له ، ويقول الدكتور راين : « إنه ثبت من أبحاثه فى المعامل أن فى الجسم البشرى روحاً أو جسماً آخر غير منظور ، وقال عالم آخر : « إنه لا يشك فى أن الكائن الأعظم وهو ما تسميه الأديان السماوية الله ، هو الذى يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة فى هذا الوجود (٢) » .

وإذا ثبت وجود الله ثبتت الرسالة وفكرة الدين ، وثبت أن محمداً والرسول قبله صادقون فيما يتحدثون به عن الله من عقائد وشرائع وأديان ، وأن علينا واجب الإيمان بها وبخاتمة هذه الرسالات ، وهى دين الإسلام ، وبالكتاب الخالد القرآن . معجزة هذه الرسالة .

وصدق الله العظيم فى قوله : « سنرهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ »

(١) راجع مجلة المختار عدد فبراير ١٩٤٧ - مقالة عنوانها : سبعة أسباب لإيمان عالم بالله . (٢) راجع عدد ٢٣ - ٨ - ١٩٥١ من جريدة المصرى .



العدل الإلهي أمر بدهي تجزم به الفلسفات الدينية عن يقين وإيمان لا يجد الشك إليهما سبيلا ، وهو مع ذلك من الضروريات في عالم التفكير الفلسفي الحديث ، أو من الأبجديات في قاموس العقل البشري المنظم ، ولا يستسيغ مفكر أن يتصور مصير الحياة الإنسانية وحاضرها ، وحياة البشر ونظامهم في عالم مقفر من عدالة السماء ، بل لا تستطيع أن تفهم كيف كانت تقوم الحياة البشرية ويستقيم نظام الوجود كله بدون هذا العدل السماوي الشامل . ونحن لا نؤمن بأن الله عادل لحسب ، بل بعدله ورحمته جميعا ، فبالعدل يسير العالم الإنساني إلى أهدافه العظيمة المنشودة ، وتستمر نوااميس الوجود تؤدي عملها كاملا في سبيل خدمة البشر وسعادتهم ، وبالرحمة - التي لا تتنافى مع قوانين العدل الإلهي العظيم - تسعد الإنسانية ، وتحيا حياة كريمة متجددة فيها الأمل والرجاء .

والذين يشيرون مشكلة الشقاء الإنساني يجب عليهم ألا يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن العدل الإلهي ، لأن هذا العدل هو الآن وقبله فوق مشار الشكوك والأوهام ، وخاصة بعد أن نضج العقل البشري هذا النضوج الباهر في عصر الكهرباء والذرة . أما هؤلاء المفكرون الذين تثير مظاهر الشقاء في الحياة الإنسانية شكوكهم في رحمة الله ، فيجب عليهم أن يفرقوا بين نوعين من الرحمة : رحمة تتنافى مع هذه النوااميس المنتظمة المسيطرة على الكون والحياة والتي فرضتها عدالة الخالق العظيم ، وهذا النوع لا يصح أن يقال له على الحقيقة رحمة بل هو ظلم جائر يسير بالحياة إلى التخبط ، لا إلى السعادة والرفاهية المنشودتين ، والنوع الثاني من الرحمة هو ما لا يتنافى مع هذه القوانين التي تحكمها العدالة ، وهو في قانون المدنية الحديثة أول واجب على الإنسان المهذب ، وأكرم صفات الإنسانية الكاملة في الرجل الذي يتسم بسمات المدنية والخلق الكريم ، فما بالك به إذا في جانب المسيطر الأعم على الوجود والحياة ؟ وكيف يمكن أن يقال إنه من صفات الكمال في البشر دون الله ؟

إذا كانت عدالة السماء قد وهبت للإنسان حريته في الحياة ، وأمدته بجميع

العناصر الأدبية اللازمة لتكوين شخصيته الإنسانية ، ولمساعدته على السكفاح في الوجود ، وعلى الانتصار في معركة الحياة الطاحنة ، بعد أن أمدته بجميع الوسائل التي تساعد على فهم الحياة فهما كاملا ، وعلى أنجح السبل الموصلة إلى السعادة فيها . أفنقول : إن ما يصيب الإنسان - بسبب نفسه أو بسبب المجتمع الذي يعيش فيه - من شقاء وآلام ، نتيجة لهذه الحرية الموهوبة ، هو ظلم وجور من الله ، لأنه حد من قوته ، ولم يعمل بمقتضى قدرته العظيمة القادرة على إسعاد الحياة والناس ؟ كلا فذلك منطق لا يستقيم ولا يمكن أن يقوله إنسان يجب أن يصل إلى الحقيقة الأبدية وحدها .

يمكننا أن نحدد الشقاء تحديدا تاما ، وأن نفهم أسبابه ، وأن نرى إلى أى حد نستطيع التوفيق بين عدل الله ورحمته ووجود الشقاء الكثير في هذه الحياة .

أما الشقاء فقد عرض له المفكرون والفلاسفة من قديم بالبحث والتحديد ، ونحن ان نتوسع في التعريف ، وإن نذهب إلى ما يصح أن نذهب إليه من أنه كل ما يعرض حياة الفرد أو الجماعة الإنسانية أو نظام الوجود الإلهي الذي فطر السكون عليه للخطر والآلام ، وإن نذهب إلى إنكار الشقاء الذي يحتط بالآفراد والجماعات مدعين بأنه تضحية يستوجبها العمل في سبيل حفظ وبقاء الحياة الإنسانية نفسها ، بل سنتواضع جداً في مدلول هذا الشقاء ، ونسير على ماسار عليه صاحب مقالة « مشكلة الشقاء » التي نشرتها الشقاثة (١) ، فنرى أنه السكوارث والآلام التي تحمل بالناس .

وإذا حللنا أسباب هذا الشقاء الإنساني - الذي نرى مظاهره الفادحة كل ساعة ويوم بأعيننا وبصرنا - يمكننا أن نرجعها إلى ثلاثة أشياء :

الأول : ما كان السبب فيه الناس أنفسهم ، كالمقار الذي عرض نفسه للفقر بلعبه القمار ، وكالعا كف على تعا على المخدرات الذي يجلب على نفسه شقاء المرض بعكوفه على المخدرات ، وكالذي يلقى بنفسه في النهر لينتحر من هموم الحياة ، أليس هؤلاء جميعاً ومن شابههم يستحقون هذا الشقاء الذي جروه على أنفسهم بأيديهم ، وكيف يمكننا أن نقول إن هذا الشقاء يتنافى مع عدل الله ورحمته ؟

الثاني : ما يكون السبب فيه المجتمع نفسه ، فالفقر شقاء ، ولكن إذا كان هذا الفقر ناشئاً عن سوء الأوضاع الاقتصادية عند جماعة أو أمة ، أو سببه عدم استغلال هذه

الجماعة أو الأمة لمرافقتها الاقتصادية استغلالاً صحيحاً ، أفلا يكون هذا الشقاء الذي نزل بهم عدلاً من السماء ، بل رحمة من الله بالناس ، لأنه أراهم ما يترتب على مخالفة الدين أو حكم العقل والنفس من أضرار وشقاء ؟

والحياة البشرية وحدة تامة ، ومن ضروريات العدالة أن توزن بموازين عادلة سليمة ، وإلا فكيف يستقيم نظام الحياة ، فإذا لافت جماعة أو أمة نتائج إهمالها أو جهلها أفيكون ما يحيق بها من أثر ذلك من الشقاء ظلماً وجوراً من الله ؟

وكذلك الحرب ، أليست جنائية ما يترتب عليه من شقاء هي من عمل المجتمع نفسه الذي لم يحكم القوانين ونظام الله العادل في العلاقات بين جماعاته وأممه ، فترك شريعة العدالة الانسانية إلى نظام الغابة وشريعتها . وكذلك الشقاء الذي ينزل بالناس نتيجة الأمراض التي يصابون بها ، أليس سره أن هؤلاء الناس أو الحكومة المستولة عنهم قد أهملت في العمل على محاربة المرض وعلاجه والوقاية منه ؟ ومثل ذلك لآلام التي تصيب الأطفال من فقر ومرض وسواهما ، أليس مرجعها إلى إهمال الآباء وجهلهم وتفريطهم في حقوق الأبناء ، ولنفرض أن رجلاً توفي وترك طفلاً صغيراً ، ولم يترك له شيئاً من مقومات الحياة ، أليس الأب مسئولاً عن إهماله الذي كان منه في طفله حين لم ينظم حياته تنظيمياً اقتصادياً كافياً يبعث على الطمأنينة والثقة بأنه أدى واجبه نحو ابنه ؟ ولنفرض أيضاً أن رجلاً سار في الطريق فاخطأ سائق سيارة فقضى على حياته ، أليس هذا الشقاء مبعثه خطأ رجل من المجتمع وعدم حذره في سبيل المحافظة على حياة الناس وفي سبيل أداء واجبه كاملاً ؟ وقوانين الوراثة تعمل لنا تعليلاً واضحاً كيف تنتقل الأخلاق والأمراض وغيرهما من الآباء إلى الأبناء على مر العصور .

وإهمال المجتمع أو خطؤه لا يستلزم أن يكون كل إنسان في المجتمع قد صدر منه الإهمال أو الخطأ ، ولا يكون مسئولاً عنهما ، بل يكفي أن يجحد فرد عن السبيل فيحقق الشقاء بكثير من أفراد المجتمع جميعاً ، لأن الحياة قائمة على التعاون والعمل المشترك لخدمة الانسانية والجماعة البشرية والسير بها قدماً في سبيل الخير والأمن والسلام والرفاهية . فما يصدر عن فرد قد تشقى به أمة .

الثالث : ما لا يمكن معرفة السبب فيه ، كسفينة هبت عليها أدهار عاتية ففرقت بركابها . وكبركان ثار فدمر مدينة ، وكصاعقة نزلت من السماء فقضت على جماعة ، وغير ذلك من مظاهر الشقاء الذي لا تفهم الحكمة فيه ، ولا أسبابه المحيطة به .

ومن البدهى أن عقولنا أقصر في هذه الحالات عن إدراك كنهه وإرادة الله وحكمته
ورحمته وعدالته ، فقد يكون السبب في بعضها حكمة بعيدة لا يلمها إلا الله ، كما ترمز
إليه قصة الخضر مع سيدنا موسى ، وقد يكون السبب في بعضها الآخر حفظ الكون
نفسه والعمل على بقاء الحياة ، فتضحى عدالة الله بفرد في سبيل مجتمع ، أو بالجماعة
في سبيل الوجود نفسه ، فقد تدمر المواد الملتهبة المتصاعدة من فوهة البركان قرية
ولكنه ربما لو لم ينفجر البركان لو قعت نكبة أرضية تقع ضحية لها فارة بأسرها .
والحياة نفسها مجموعة من التضحيات ، فنحن نموت ليحيى جيل جديد ، وبعض
الكواكب الكونية تتلاشى ليبقى نظام الوجود سليما ، وكرات الدم في حرب شعواء
يفنى بعضها في سبيل بقاء البعض الآخر القادر على تزويد الجسم بالحياة ، وهكذا تضحي
إرادة الله بالضعيف ليبقى القوى فيعمر الكون ويكون خليفة الله في أرضه ،
وتزدهر حياة البشر . ويصبحوا أهلا لأن يعيشوا في هذا العالم .

وفلسفة الدين تقوم على بعث الرضا الروحي والطمأنينة النفسية في قلوب المؤمنين
وعلى أن يفوض الناس أمورهم في مثل هذه الأحوال لله ، وعلى الإيمان الكامل
بعدالته ورحمته وبالحياة الآخرة التي يجازى فيها على ما عملوا من حسنات أو سيئات ،
وفي مثل هذا يطيب المفسكين أن يقرؤا بعجز عقولهم عن فهم حكم الله العظيمة في
الحياة ، وإلا كانوا كالطفل الذي يحكم على أعمال الفيلسوف .

لنؤمن بعقولنا وقلوبنا جميعا ، فالعقل وحده قديبعث على الشقاء الروحي ، وقد
لا يوصل الإنسان إلى الهدف المنشود ، كالرجل الذي يعتمد على رجله وحده في
السير على سطح الماء ، والقلب وحده قد يكون مثار الطمأنينة والغبطة واليقين ،
ولكن ليس بما لا يليق بكرامة الإنسان الأدبية وهو خليفة الله في أرضه ، أن يلغى
عقله وفكره ، وأن يفهم الحياة ونواميس العدالة الإلهية العظيمة فهما آليا محدودا
لا يتعدى نظرات الحيوانات السائمة إلى الكون العظيم ؟

وكيف نفهم الحياة ، وشخصيتها فيها ، والرسالة العظيمة التي خلقنا لأدائها كاملة
في سبيل السير بالحياة قدما إلى المثل العليا ، والأهداف العظيمة المرتجاة ، إذ لم
نفهمها على أنها وحدة تامة ، أو جسم واحد يتحرك في تعاون وانسجام ودقة نظام

لغاية مشتركة ، وللتجديد المستمر في سبيل الإنسانية وحضارتها وتقدمها
وسعادتها ؟ وهل يمكن أن نقول : إن المرأة قد شقيت حين خلقت امرأة ولم تخلق
رجلا ، وإن مجارى البول في الانسان تشقى وكان الأولى بالله أن يسعدها بأن تكون
مكانا طاهرا ! يجرى فيه دم الحياة كالقلب تماما ، كلا إن شقاءها سعادة للجماعة التي
تعيش فيها ، وإن تفسيرنا المحدود لبعض مظاهر الشقاء في الحياة الإنسانية قد
يكون صوابا لو أعطينا قوات أخرى تساعدنا على فهم ما خفي وراء عقولنا من
مظاهر الوجود . . .

البشرية

بين الإسلام ودعوات الإصلاح

إن الإسلام لا يمنع قيام دعوات إصلاحية جديدة ، ما دامت تهتدى بهداه وتترسم خطاه ، وتستضيء بنوره ، وتعمل على النهوض بالإنسانية ، والسمو بها إلى آفاق الحق والخير والنور والسلام

فالدعوة التي تسود العالم الآن ، وترمى إلى نشر السلام في أرجائه ، والقضاء على الحرب التي تهدده كل حين ، والتي قامت على أسسها هيئة الأمم المتحدة أخيراً ، هي إذا صحت النيات فيها ، وأخلصوا لها القلوب ، دعوة نبيلة ، تتلاقى وأهداف الإسلام العالية ، ولكنها ليست جديدة ، وكيف تكون جديدة وقد سبقها الإسلام في هذا المضمار بنحو ألف وأربعمائة عام ؟ .. وكذلك الشأن في كثير من الدعوات الاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية التي قامت في العصر الحديث إنما يجب أن تقوم الدعوة على سلامة المبادئ ، ومواءمتها لأصول الخير والعدالة والحق ، وعلى سمو الغاية والوسيلة ولا أدراك الصحيح لحاجات البشرية الرفيعة . وإن كانت شخصية الداعي ، وقوة إيمانه بدعوته ، وإخلاصه لوجه الله والإنسانية فيها ، وبعد إدراكه لآداب الدعوة وأصولها ، أهم عامل في نجاح الدعوة وانتشارها

إن الإسلام - وهو العقيدة الرفيعة الكاملة ، وفيه خير البشرية وسعادتها وآمالها ليس في حاجة إلى كثير من الدعاة ، بل هو في حاجة إلى داعية واحد ، يحدد الأمة روحها ، ويبعث من عزيمتها ، ويسير بها إلى الآمال العظيمة والغايات المرجوة . والبشرية ليست في حاجة إلى دعوات كثيرة ، بمقدار ما هي في حاجة إلى مبادئ الإسلام الخالدة ، التي طبقت في كل مكان ، فأثمرت الخير والأمن والسلام والرفاهية ، والحضارة والعمران ، والعلم في كل مكان

الإسلام

دين الرقي

بدأ الأوروبيون بعد الحرب العالمية الأولى ، يطبقون مبدأ الضمان الاجتماعي في بلادهم ، على الكحول والمرضى والعاجزين عن الكسب واليتامى والأرامل ، وبعد الحرب العالمية الثانية بأكثر من خمس سنوات بدأنا نحن ننفعه بقدر ضئيل في بلادنا وعلى وجه التدريج ، ونخجلنا أن يكون هذا المبدأ الاجتماعي العادل قد دعا إليه الإسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، ونفعه الرسول الكريم وخلفاؤه الراشدون بعده ، وخاصة عمر ، تنفيذاً صحيحاً عاماً ، ثم ندعى نحن المسلمين تعاليم ديننا وقرآننا . ونعود بعد أجيال لنقتبس من أوروبا مبادئ دعا إليها ونفعها الإسلام .

وفي عهد الرسول بدأ مشروع محو الأمية في المدينة ومكة ، وفرض على المسلمين عامة طلب العلم ، ونصب الرسول صلوات الله عليه وخلفاؤه الدعاة والمرشدين والمعلمين في شتى الأقطار والأمصار ، لتثقيف الناس وتهذيبهم ، ووضعيت مجانية التعليم ، ولكننا نحن المسلمين ، بعد أجيال مديدة ، نقتبس هذه النظم وتلك المبادئ من الغرب والغربيين ، مفتخرين بأننا بدأنا نعمل في طريق الخير والديمقراطية والعدالة الاجتماعية وما كان أحرارنا بأن نقيم على ديننا وتعاليم القرآن الحكيم ، إذن لسكننا أول الصاعدين في مدارج الحضارة والرقي والمدنية الصحيحة .

وحقوق العامل والفلاح والخدام والمرأة والطبقات الاجتماعية ، كل هذه قد كفلهما الإسلام ، وحافظ عليها ، ودعا إلى رعايتها ، وأنذر من يعتدون عليها بالوعيد الشديد ، ولكننا قد تناسيناها ، ثم عدنا نأخذها قليلاً قليلاً عن أوروبا ، ونطبقها تطبيقاً أعوج ، لا يحقق شيئاً مما نتوخاه من عدالة وحق وخير للناس عامة ، ومع ذلك فأننا نزهو معجبين ، وندعى أننا أخذنا نطبق قوانين الأمم المتحدة - التي أمثلتها الإنسانية النبيلة - في بلادنا العريضة ، وأننا يجب أن ننال تقدير العالم كافة ، لأننا نهجنا منهج الأمم المتمدينة في إصلاح الحياة الاجتماعية ، وتهيئة وسائل العيش للطبقات الفقيرة !

والعلاج المجاني الذي لا نزال نحلم به هو أصل مقرر في الحياة الإسلامية من قديم . ونحن بعد أن حرمانا منه أجيالاً مديدة ، نعود فنقتبسه من الغربيين .

والنظام الديمقراطي الشورى أليس هو مبدأ من مبادئ الإسلام الكريم ،
نقذه الرسول وصحابته وخلفاؤه . ثم انصرفنا عنه ، حتى عدنا إليه قريبا ، نأفلن
له عن الدول الغربية ، نطبقه بقشوره لا بروحه وجوهره .

ومسئولية الحاكم في الإسلام مبدأ معروف ، ولا تزال الدول التي تزعم ركب
المدنية في العالم اليوم تتجاهله وتنأى عنه وتنكره .

ومحاربة الجشع الاقتصادي والاحتكار والربا واكل مال الناس ظلما ، والاستغلال
بشتى ألوانه ، ونهب الحقوق العامة للشعب ، كل هذا هو روح لإسلام ، وجوهر
مبادئ الإنسانية المقدسة .

والغاء الفوارق والامتيازات بين الطبقات والعناصر والألوان ، وإقامة العدل بين
الناس كافة ، ونشر الإخاء والمساواة ، وتقديس الحريات ، كل أولئك هو مذهب
الإسلام في الإصلاح ، والنهوض بالطبقات والشعوب ، ولما كنا لانزال ننكر هذه
المبادئ ونحاربها في روحها وجوهرها ، وإن كنا ندعى ولا نزال ندعى بأننا أول
الدعاة اليها ، والمحافظين عليها ، والساعين لنشرها بين الناس . . إلى غير ذلك من
الحقائق الخالدة التي نبعت من الإسلام ، وتفجرت من ينابيع دستور العظيم .
كتاب الله الحكيم ، ومع ذلك كله فلا يزال يبتاع من يفهم الإسلام على أنه دين رجعية
وجمود ، وأنه عبادات فحش ، وأن لاصلة له بالمجتمع والدولة ، وأنه يجب إنقاذ
الناس من حجره على الحريات .

وكذبوا وأيم الله ، وافتروا على الإسلام ، إن يريدون إلا الهدم ما استطاعوا ،
يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .



رسالة جديدة حقاً ، غيرت مجرى التاريخ ، وبدلت نظام الحياة ، وسمت
بالإنسانية التي كان يهوى بها الجهل والفاقة والذل والاستبداد ، وارتفعت بكرامة
فرد والمجتمع والامم إلى المسكان اللائق بها ، حيث السمو في العقيدة ، والعظمة
في النظام وروح الجماعة ؛ ووادت الكثير من المبادئ الضالة الضارة ، سواء في
العقيدة أم في التفكير أم في الاجتماع ؛ وبعثت شعوراً جديداً في العالم كانه ، يقوم
على إيمان وطيد بمبادئ الحق والعدالة والحرية والمساواة والأخوة العامة والزمانة
الإنسانية المشتركة ؛ وقادت العالم إلى مجال الطهر والفضيلة ؛ والشرف والكرامة
والصفاء الروحي ، والطمأنينة النفسية ، والثقة بأن الانسان خليفة الله في الأرض ،
وأن عليه واجبا أدبيا محتوماً : أن ينشر الأمن والسلام والحب والرحمة والتعاون
والإحسان بين الناس جميعاً ، وأن يعمل على النهوض بالحياة والبشرية ، ليسعد الفرد ،
وتحيا الجماعة ، وترقى الأمة وتتقدم الإنسانية ، لأنه مسئول عن ذلك كله أمام ضميره
وأمام إلهه خالق الأرض والسموات .

وما تكون هذه الرسالة غير رسالة محمد صلوات الله عليه ، رسالة الإيمان ،
ودعوة القرآن ، التي أشرقت بنورها الأرض ، وادتزت لعظمتها السماء ، وكانت
حدفاً فاصلاً بين عهود بغيضة من الهمجية والوحشية والظلام والاستعباد وعصور
كريمة سمتها الايمان والعلم والحضارة وتقديس كل ما هو حق وخير وجميل ؟
لقد كان بدء نزول هذه الرسالة حدثاً تاريخياً عالمياً دوى صدها في الآفاق ،
فبدأ نزول القرآن منذ نحو أربعة عشر قرناً ، هدى للناس وبينات من الهدى
والفرقان ، نزل للتحرير الانساني العام ، فقد حرر الإنسان من الأوهام ،
والجماعة من الهوان والذلة والاضطهاد وبطش الطغاة ، والبشرية من الخرافات
والضلالات والجمود ومعاودة النظام وكرامية التقدم ومحاربة الفضائل
والأخلاق الكريمة .

وأخذت روح الفردية تتضائل لتخلفها روح الجماعة ، ومبادئ الطغيان الديني والاجتماعي والمادي تتلاشى لتقوم على أسسها مبادئ الإيمان بالعدالة والمساواة وحرية الناس وكرامتهم ، فانتهى إلى غير رجعة عهد الكهان والمتكهنين ، وعهد الضلال والمضللين ، وانقضت التقاليد المرذولة التي كانت تحمل الخمر والميسر والربا ، وترى القتل والإسراف في الثأر عملاً مجيداً ، وتبيخ وأد البنات وعقوق الأمهات وارتكاب المنكرات ، وتنظر إلى الظلم والغش ونقض العهود وإلى النفاق والرياء والوشاية والنميمة والإفساد بين الناس كأنها أعمال مألوفة معروفة .

بدأت الدعوة تسرى إلى الآفاق ، فارتفعت في أحضانها الناس والجماعات والأمم ، واكتسح أبطال هذه الدعوة الحصون والمعازل والممالك ، ونشروا راية الإسلام والسلام في شتى الأرجاء والبقاع ، وبدأت مواكب الحضارة والعلوم والفنون والآداب تسير ، ويسير وراءها الخير والرفاهية والمجد والعزة والعظمة للإسلام والمسلمين وللناس كافة .

رسالة جديدة هي رسالة الإيمان والروح والإنسانية الكريمة .. فلينهض قادتها ودعائها لنشرها من جديد ، بعد أن شقيت الحياة والأحياء برسالات الكفر والطغيان والاستعمار ، والجشع المادي : الذي بعث الفوضى ، وقضى على النظام والأمن والسلام ، وأشعل الحرب في الأرض ؛ وأورث العداوات بين الأمم ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ،

لينهض الشرق من جديد ليؤدي رسالته ، وينشر دعوته ، ويزود عن حماء ؛ ويدافع عن عرينه ، ويقضى على الذئاب والمتنذبين بين ربوعه ، ويحارب ما يراد به من الهوان والتحكم والإذلال .. ليعود إلى الله وإلى دينه وكتابه وشريعة رسوله ، يكتب الله له النصر والظفر والغلبة ، فالله ولي الصالحين ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» .

الإسلام حامى الحريات

— ١ —

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام تتعثر بين وحشية ضارية ، وممجية ضالة ، واستبداد مروع ، ومذاهب وعقائد باطلة ، وتقاليد وعادات بالية ، وكان الجهل والجور والاضطهاد والاستعباد واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان سنة الحياة ، خيما وليت وجهك فثم الطغاة المستبدون ، والرؤساء الذين لا يؤمنون بحق الشعوب فى الأمن والحرية والحياة ، والباطرة الذين يعيشون فى الأرض فسادا بالغزو والنهب والاستعمار .

فى جانب امبراطورية الفرس بعقائدها الوثنية ، ونظمها الاستعمارية ، وسياستها المتعسفة ، وحكامها المتجبرين . وفى الجانب الآخر امبراطورية الروم الشرقية تثير الرعب والفزع فى الأرض ، وتنتشر الفساد بين الناس ، والحرب مستمرة مستعرة بين الجانبين ، يصطلى بحميمها الرعايا الحائرون الممزقون . . فاذا تنقلت فى الأرض وجدت فى كل مكان وقطر الشقاء والخوف والفقر والظلم والطغيان . . ولم تجد حكمة الحكماء ولا فلسفة الفلاسفة شيئا ، لأن الحكم كان للشهوة ، والسيادة كانت للضلال ، والحق كان للقوة ، والرأى لم يكن يستمع إلا من رئيس أو حاكم .

ولقد كان أرسطو وأفلاطون يقرران حرمان العمال والصناع من حقوقهم المدنية ، وكان الساسة والمفكرون فى روما يؤمنون بسيادة أمتهم وأن من الواجب عليهم إخضاع الدول لجبروتهم وحكمهم بالعنف والقسوة ، وكان المشرعون فى أثينا ينظرون إلى الرقيق نظرتهم إلى الحيوانات العجماء ، وكانت المرأة تعيش مسلوطة الإرادة والحرية والاختيار فى كل مكان .

ورغم انتقال الإنسانية من مرحلة الوحشية إلى مرحلة البربرية ، ثم إلى مرحلة الحضارة ثم إلى عصور الرق فالإقطاع ، ورغم الديانات والشرائع السماوية والكتب الإلهية المنزلة ، فإن الحياة ظلت كما هى لا تتبدل ، والظلام ظل كثيفا كما كان ، والذي بدل وغير وحرف إنما هو الحق وشرائع السماء .

في هذا الجو الخائق ، والغيوم المكفهرة ، والضلالات والأباطيل والوثنيات ، أرسل محمد صلوات الله عليه ، وأمر أن يبشر الناس كافة بالإسلام ، وأنزل عليه القرآن الكريم هدى ونورا ورحمة ، فأخذ يذيع الدعوة ويتلو الكتاب ويدعو إلى الحرية والسلام والمساواة ، ويسفح آراء الوثنية والشرك والبهتان ، ويحارب الاستعباد والاستعمار ، واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، ويأمر بكل ما هو حق وخير وعدل ، ويناهض الأقبال المتعجبين والسادة المتكبرين ، والرؤساء المستبدين ، وينادي بحق العامل والفقير والمحروم والرقيق والمرأة ، ويحرم السلب والنهب واللموصية والربا وأكل مال الناس بالباطل والفساد ، ويؤاخى بين الناس ، ويحبب في التعاون والمحبة ، ويحطم العصبية وحمية الجاهلية الأولى ، ويلغى الفوارق بين الشعوب والجماعات . . . ونألب دعاة الوثنية والباطل على الدعوة الجديدة ، يحاولون وأدها بقوة السلاح ، فانتصر عليهم محمد وأنصاره في بدر ، وفتحت مكة فدان العرب للإسلام ، وعرفوا أن لا طاقة لهم بحرب الرسول وعداوته ، وكثرت الوفود في السنة التاسعة للهجرة ، وبعث محمد صلوات الله عليه رسله إلى ملوك الأرض يدعونهم لدين الله ، فسار دحية الكلبي بكتاب إلى عظيم بصرى ليسله إلى هرقل فقيصر ، وسار عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ، وعمر بن أمية إلى النجاشي ، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس حاكم الإسكندرية ، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين . وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ، والمهاجر بن أبي أمية إلى الحارث ملك اليمن .

ثم مات محمد بعد أن أدى رسالة الله ، ورفع راية الإسلام في الأرض ، وبلغ القرآن الكريم إلى الدنيا ، وبذر غرس الحرية والسلام والأخاء والمساواة بين الناس ، وأقام حكما صالحا لا يمحى من الأرض ، وجمع الأجناس والعناصر والألوان والشعوب في ظل دولة اتتمرت بأمرها الحياة والوجود .

وكان خلفاء محمد مثلاً عالياً في احترام الحقوق والحرىات وحمايتها والدفاع عنها ، أذاعوا كلمة الله والحق والهدى بين الأمم كافة ، ووضعوا أصول حضارة زاهرة باهرة عاش العالم في ظلها أجيالا مديدة .

— ٢ —

وفي القرآن الكريم دعوات عالية ، وأحكام مثلى لتخليص الإنسانية من الظلم

والاستبداد والظلم ، إذ يقول الله تعالى في كتابه الحكيم : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، ويصور السادة الطغاة المفسدين في الأرض تصويرا صادقا فيقول : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما في قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ولبئس المهاد » . ويدعو إلى أخوة الجماعات الإنسانية لتعيش في ظلال السلام والوئام ، فيقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » ، ويؤكد أخوة المؤمنين فيقول : « إنما المؤمنون إخوة » ، ويطالب بالوفاء بالعهد واحترام الحقوق والجنوح إلى السلام ، إلا إذا نكث غير المسلمين في عهدهم فيقاتلون ويشردون في الأرض : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم ، لعلهم ينتهون » . ولم يحارب الرسول اليهود في خيبر وغيرها إلا لأنهم خانوا عهده ، وأرادوا قتله ، وحزبوا الأحزاب عليه .

وكان الرسول صلوات الله عليه مثالا أعلى في المحافظة على حريات الناس وحمايتهم ، وكان يأمر عماله باحترام حقوق الناس في الحياة والأمن والكرامة ، ولو كانوا مخالفين لهم في الدين ، حتى قال صلوات الله عليه : « من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقتة أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة » .

وكان عمر بن الخطاب يأمر عماله أن يوافقوه بالموسم ، فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فيشكم بينكم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم . وكان يقول : من ظلمه عامله بمظلة فلا إذن له على إلا أن يرفعها إلى حتى أقصه منه .

وقال لعمر بن العاص واليه على مصر : « متى تستعبدون الناس وقد ولدتهم
أمهاتهم أحرارا ؟ » .

وكان يوصي ولاته على الأمان بالعدل بين الناس ، واحترام حقوقهم
وحرياتهم .

وخطب مرة فقال : « أعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضا على
أن تحاكموا إلى ، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة » .

ولطم جبلة بن الأيهم ملك غسان رجلا من المسلمين في الحج لأنه داس على إزاره ،
فشكا الرجل إلى عمر ، فطلب عمر القصاص من جبلة ، فقال جبلة : كيف ذاك
وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : إن الإسلام جمعكما وسوى بين الملك والسوقة ،
ففر جبلة والتحق بالروم .

وكان عمر بن عبد العزيز يبطل أحكام ولاته إذا رأى فيها ظلمًا للشعوب المحكومة ؛
خاصم عجم أهل دمشق إليه في كنيسة كانت أخذت منهم ، فأخرجها عن المسلمين ،
وردها إلى النصارى .

وشكا نصارى دمشق أن الوليد هدم كنيسة يوحنا وأدخلها في المسجد فهم أن
يعيدها إليهم ، لولا أن المسلمين صالحوهم .

وكتب إليه عامله على العراق : إن الناس قد كثروا في الإسلام حتى خفت
أن يقل الخراج ، فكتب إليه : والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون
وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا .

وكان ينوى أن يستدعى المسلمين من أرض الروم ، وأن يجلي العرب من الأندلس ،
وكتب إلى عامله يأمره بإعادة من وراء النهر من المسلمين فأبوا ؛ وكتب إلى ملوك
الهند يدعوهم إلى الإسلام على أن يظلوا ملوكا ، ولهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ،
فأسلموا ؛ وكتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى دين الله فأسلم بعضهم .
ووفد عليه قوم من سمرقند فشكوا إليه أن ابن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها
المسلمين ، على غدر ، فحكم عمر قاضيا ، فحكم القاضي باخراج المسلمين . . . إلى
غير ذلك من احترام الحرية ، وحب العدل والعمل بشريعة الله .

— ٣ —

إن المسلمين لم يفتحوا البلاد للاستعمار والسيادة ، والغزو والنهب ، فقد رأيت
كيف كانوا يعاملون غيرهم ، ويحترمون حقوقهم ، ويحافظون على حرياتهم . وإنما

دخلوا هذه البلاد هادين ، ودعاة مرشدين ؛ يقيمون العدل ؛ ويضعون الموازين القسط بين الناس ، ويحاربون الوثنية ، ويحطمون الضلال . . . وكانت أهم كثيرة ترسل إلى قواد المسلمين ، ليدخلوا بلادهم ، وينقذوهم من الظلم والاستعباد والشقاء . وكتب عامل لعمر بن عبد العزيز على خراسان : إنه لا يصلح لهذه البلاد إلا السيف ، فأنكر عمر عليه ذلك وعزله .

وكانت البلاد التي يحكمها المسلمون مثلاً في النظام والأمن وانتشار العدالة والرخاء والرعاية وحرية الفكر والعقيدة والرأى . . . ولم يكن المسلمون يمسون مرافقها الاقتصادية أدنى مس . . . فأين هذا من استعمار اليوم ، الذي يحجر على الحريات ، ويعصف بالحقوق ، ويضيع الحرمات ، وينهب أموال الأمة بطرق مباشرة وغير مباشرة ، ويحاربها في قوميتها ودينها وأخلاقها ؟

— ٤ —

الإسلام هو حامى الحريات في كل مكان ، وشرائعه أعظم ضمان لحق الناس في الطمأنينة والإنصاف والمساواة والحياة .

وهو يحرم الحرب ولا يبيحها إلا لدفاعاً عن دين الله ، بل إنه ينهى عنها ولو كانت بقصد نشر الدين ، ويحبب في السلام والمحبة والتعاون والوئام .

وهذا الاستعمار الغربي الحديث إن هو إلا لصوصية ونهب وفساد ، وقتل للشعوب ، وإفناء للجماعات ، وحرب على السلام ، وإجاعة للناس ، وبسط للنفوذ والسلطان على حساب الضعفاء ، وهذا كله هو ما لا يعرفه الإسلام ؛ بل إنه ليحاربه ، ويطالب بتحطيم كل من يعمل له أو يساعد على نشره .

والمسلمون لهم العزة والكرامة والسيادة في الأرض ؛ وهم الذين نصبهم الله حماة لأشريعته ، وأهلاً لخلافته ، وأحقاء بكرامته ، ولم يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ، فهم أجدر الناس بحياة الحرية والكرامة .

وكل قضية من قضايا الحرية في الأرض ، هي قضية الإسلام ، الذي يدافع عنها ؛

ويؤيد حقها ، ويدود عن حياضها ، فما بالننا إذا كانت هذه القضية هي
قضية المسلمين .

إن المستعمرين خارجون على القانون السماوي في نظر الإسلام ، وهم أولى
الناس بحرب المسلمين لهم ، وصددهم إياهم ، مادام هؤلاء المستعمرون يحملون
السلح لتأييد باطلهم ، ونشر سلطانهم . أما الذين يقيمون بيننا في ظل حمايتنا من
الشعوب ، فلهم الأمن والسلام والرحمة .

رسالة الإسلام

إنسانية وعالمية

قامت على مبادئ الإسلام دولة عظيمة ، ونمت على أساسها حضارة مشرقة
هي نواة الحضارة الأوربية الحديثة ، ولها الفضل كل الفضل في نقل حضارات
الأمم القديمة إلى العالم الحديث ، ولولا جهود المفكرين المسلمين لضاعت آثار
المدنيات والحضارات القديمة وعلومها ومعارفها .

قامت هذه الدولة وتلك الحضارة ، على المعرفة والحرية ، وعلى الديمقراطية النبيلة
التي بلغت على يد الفاروق عمر بن الخطاب أسمى ما تبلغه الإنسانية الراقية ، وقامت
على تقديس حرية الفكر . . . ومبادئ محمد ودعوته ورسالة ما هي إلا صدى
لهذا الدستور الخالد ، والكتاب الحى الباقي : « القرآن الكريم » .

وتقرأ في القرآن فتجد حرباً لا هوادة فيها على الشرك والوثنية . وتحزير العقل
الإنسانى من أوهام التعصب والجهود والضلال ، وإيماناً لا يشوبه شك بقيمة المعرفة
والثقافة ، وغرساً للفضائل الإنسانية والمثل العليا في نفوس الناس كافة ، ومحاربة
الردائل والمنكرات والشرور والآثام والفوضى الاجتماعية في كل شيء وكل ناحية

وتجد أول هدف له هو نشر التعاون بين البشر جميعاً ، فلا فرق بين جنس
وجنس ، ولا فضل لامة على أمة أو قبيلة على قبيلة ، أو إنسان على إنسان ، إلا بالآخلاق
السكرية والأعمال الصالحة ، وتقوى الله وطاعته « يا أيها الناس إنا خلقناكم من
ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ،
وهكذا فبر الإسلام ورسوله الجود والتعصب القبلى والوطنى المحدود ، وأحل محل
ذلك الإنسانية والعالمية بأوسع معانيها ، ولقد بدأت أوربا بعد أن ضلت الطريق
تعمل لهذه الغاية التي عمل لها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .

وهكذا غرس محمد صلوات الله عليه بيديه السكرى شجرة الحرية والتعاون
والإنسانية والمساواة والإخاء ، ووضع أساس حضارة روحية من أعظم

الحضارات التي شهدتها التاريخ وعاش في ظلها العالم أجيالا وقرونا ، ينعمون بعدلها وحكمها ، ويشاهدون آثارها الخالدة في السياسة والاجتماع والاقتصاد والآداب والفنون .

وهل الحضارة إلا آثار الرقي الإنساني ومظاهر التقدم البشرى في شتى نواحي الحياة ؟

وإذا قست ذلك بآثار محمد ورسائله في الحياة على الناس والإنسانية كافة ، وجدت أياديه العظيمة ، لا يكاد يعيها العد ، ويبهت الفسك حين يجد أن هذا الأسمى العربي قد بدل سير التاريخ ، وحول مجرى الحضارة ، ويقف العقل والبيان حائرين لا يدريان وكيف يشكران ، فضل هذا الرسول العظيم .

إن ميلاد محمد ميلاد الحضارة ، وبحق ما أقول ، فلم تكن الحضارة القديمة من صينية ، وهندية ، وفارسية ، وفرعونية ، وإغريقية ، ورومانية ، إلا مجتمعا خاليا من الروح ، وبدء نواة لحركة التقدم والرقي الإنساني .

على أن هذه الحضارات مع ما قامت عليه من شتى المبادئ والأسس والنظم الخاطئة لم تستطع أن تحارب الجهل والفقر والهمجية والوثنية إلا في بقع صغيرة محدودة ، أما أغلب أرجاء العالم فكانت تعيش في ظلام دامس ، وضلال شامل ، وخوف مفرع وفقر ووحشية .

أما الحضارة الإسلامية التي غرسها محمد فقد نظمت الحياة في كل ناحية من نواحيها وهذبها ، وسارت بالإنسانية إلى غايتها النبيلة ، ومثلها الرفيعة ، وحررت الفكر الإنساني من قيوده وأوهامه ، وامنازت بروحانياتها المشرقة ، وإيمانها المطلق بمبادئ الخير ، واشترأ قيمتها العادلة التي جعلت الفقير أخا للغني والغني أخا للفقير ، والتي سارت بين شتى الطبقات والجماعات والعناصر .

الإنسانية والإسلام

بدأ الإنسان حياته غريبا على هذه الأرض ، حائرا في فهمها وكيف يعيش فيها ، مسخرا للأوهام وما هو أقوى منه من حيوان وإنسان ، وأخذ يتنقل من مرحلة إلى مرحلة ، ويرقى بحياته وبنفسه خطوة خطوة ، وبعث الله إليه المرسلين والأنبياء يرشدونه ويهذبونه ، ويجعلونه أهلا لأن يكون خليفة الله في أرضه ، وختمت الرسالات برسالة محمد صلوات الله عليه ، وهى الرسالة التى كان لها أثرها العميق فى الحياة والحضارة والرقى البشرى العام .

على أن المفكرين كانوا يتجهون بعقولهم إلى هدف مشترك هو التمكين للإنسانية والحضارة فى الأرض .

وهكذا أظل العالم حضارات متعددة خلال الأجيال القديمة ، فمن حضارة صينية إلى حضارة هندية وفارسية وفرعونية ، إلى الحضارة الأغريقية ، والرومانية ، ثم كانت الحضارة الإسلامية ، التى قامت على أساسها الحضارة الأوروبية الحديثة .

ولكل حضارة من هذه الحضارات ميزاتها وخصائصها ، وإن كان الطابع البارز للحضارة الإسلامية هو تقديس حرية الفكر ، وإعزاز حرية الإنسان وكرامته ، وتشجيع المعرفة والنظام ، والمساواة بين الناس جميعا ، فى ظلال إخاء شامل وعدل تام ، وروحانية جميلة ، واعتزاز بالمثل العليا والقيم الأخلاقية السامية .

ولقد استمدت الحضارة الأوروبية الحديثة من الحضارة الإسلامية أصولها الفكرية والعلمية العامة ، وسارت على ضوئها فى ميدان الفنون والآداب والعلوم ، ثم بذلتها فى ميدان الابتكار والاختراع وكشف أسرار الكون وما أودعه الله فيه من قوى وخصائص ، مما شمل أثره العالم جميعه ، وأدى الى اكتشاف البخار والكهرباء والذرة وسواها من معجزات العقل البشرى ، التى غيرت مجرى الحياة والحضارة ..

ومع هذا التقدم الإنسانى العظيم فقد تنسكت الحضارة الحديثة للبداية والاختلاق والدين والفضائل الإنسانية واملل الرفيعة ، واعتزت بماديتها الطاغية ، وحاربت الأمن والسلام ، وجعلت بعض الناس أعداء لبعض . وقوت نزعات الطمع

والاستبداد والاستعمار في نفوس الناس والأمم ، حتى أصبح الغرب موطن الماديات بألوانها وعنقها . كما كان الشرق موطن الروحانيات بسحرها وجلالها حين كان منبع الحضارة العالمية ، ومهبط الإنسانية الأولى .

قضت الحضارة الأوروبية على التعاون الإنساني ، ومزقت الناس طوائف وأحزابا وجماعات ، وجعلت بعضهم حربا لبعض ، واستباححت في سبيل التنافس على الاستعمار أن تبيد بعض دولها البعض الآخر في حروب مظلعة بالغة من الفظاعة والعنف والقسوة ما لا يتصوره إنسان ، واستخدمت العلم سلاحا جبارا للفنك والتدمير .

وهكذا رأينا في الحربين العالميتين الماضيتين أن الإنسان يدمر آثار الحضارة بيده ، ويحيل المدن والمصانع والمتاجر والقصور ودور الثقافة ونواحيها أطلالا هالية ، ويحرق بقنابله دور الكتب والآثار والمخطوطات والمتاحف ، ويهوى بيده أرواح الملايين من شبان الجامعات وخريجها . ومن المفكرين والباحثين وأقطاب النهضة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والأدبية . ويحتمل هذا الإنسان خلال الحرب إلى شرائع ونظم ومبادئ هي أقرب إلى نظام الغابة وشرعيتها . وأصبح التراث الإنساني العالمي للأمم والحضارة مهددا بالدمار والفناء . بعد أن ساهمت في تشييده وبنائه جميع العناصر والشعوب خلال الأجيال الطويلة . . ووقفت الحضارة بين مذهبين مختلفين .

الأول : مذهب متفائل بمجد هذه الحضارة الراهنة . ويرى أنها ثابتة قوية ، تسير في طريقها لأداء رسالتها من إسعاد البشر والحياة .

والثاني : مذهب متشائم . مشفق من مصير الحضارة ، راث لها ولمستقبلها . . وبين التفاؤل والتشاؤم . تقف الحضارة نفسها حيرى ترتقب المستقبل في خوف وجزع وإشفاق . فلما تقدم يرضى المتفائلين والممجدين . ولما تقهر يصدق قول المتشائمين الذين يرون أن الحضارة قد تفرقت في موج لحي في المستقبل القريب خلال عاصفة هوجاء من الحرب الذرية المدمرة .

ولست من المتشائمين المشفقين على مستقبل الحضارة . فسيعيش العالم . وسينعم بالعيش في ظلال حضارة مشرقة زاهية . وسشكون هذه الآثار الدائمة التي شهدتها الحياة نتيجة لإسراف الحضارة الحديثة في ماديتها وعنقها وطغيانها وتجردتها من كل مقومات الحياة الروحية والأدبية . سيكون ذلك كله باعنا للمفكرين على أن يحولوا

سير الحضارة ، وأن يتجهوا بها وجهة جديدة لتؤدي رسالتها العظيمة في خدمة الحياة وإسعاد الإنسانية .

فالحضارة باقية ، ولكنها ستتحول وتظل في تبدل مستمر ، حتى تصل إلى أسمى غاية ينشدها المفكرون والمصلحون .

وهذه الترجات الشديدة التي امتحننت بها الحضارة الحديثة . هي نذير للناس كافة بأن يتجهوا وجهة سامية نبيلة في حياتهم وتفكيرهم وعيشتهم وألوان اجتماعهم ، وهي مذكرة لهم بخطتهم الذي استعصى إصلاحه والنجاة منه . والذي جعل الحياة جحيماً لا تطاق : فخرم قتل فرد وأباح قتل أمة ، وخرم سرقة جنبيه ، وأباح نهب الملايين من أموال الشعوب المتأخرة بطرق غير مباشرة ؛ وناذى بالمساواة ثم قسم الناس إلى ألوان وأجناس وشعوب متقدمة وأخرى متأخرة ، وأحاط حرية الإنسان بهالة من التقديس ، ولكنه أنكرها على الأمم ، بل على الأفراد حين يهب شعب يطالب بحريته .

بل إن هذه المحن الشديدة التي نكبت بها الإنسانية على يد الحضارة الحديثة هي التي أبانت أفضل إجابة عن قيمة الحضارة الإسلامية وميزاتها في تاريخ العالم وأثر مبادئها الحية في قيادة الإنسانية وتوجيه الحياة وإسعاد الناس والشعوب .

وبعد . فلا بد من بقاء الحضارة ، والإنسان مصمم على بقائها ، ولأنه مع ذلك لا بد لها من أن تتحول إلى أهداف أسمى ، وتعمل لمبادئ أعظم ، وتؤمن بغايات أشرف من هذه الغايات التي سارت عليها خلال القرون الماضية والحاضرة . والحضارة من غير شك في تحول مستمر ، وتقدم مطرد .

وإذا أردنا أن نتصور بعض الأهداف التي ستدركها الحضارة البشرية خلال المستقبل القريب ، كان لنا أن نقول إن العالم سيتحرر من كل ما قيد حريته وحد من نشاطه ، وسيتلافى أخطائه الماضية ، وسيكمل النقص الذي شعر به وأحس بأثره وضرره عليه وعلى الناس :

(أ) فسيصبح بعد حين السلام العالمي حقيقة واضحة لا يجزؤ لإنسان أو زعيم أو أمة على أن يشن حرباً أو يعلن العدوان ، وسيخفت صوت القوة والسلاح ويحتكم الناس إلى مبادئ العدالة والحق والمساواة والحرية ، وهذا أول هدف سعى إليه الإسلام ومحمد رسوله الكريم .

(ب) وستتلاشى الروح القومية لتحل محلها العالمية والإنسانية ، ويعيش الناس في ظلال تعاون وتعارف كاملين ، ويتحقق أحد الأهداف العظيمة للإسلام ديننا الخالد وهو إلغاء العصبية والفراق بين الأجناس والطبقات والعناصر ، والإيمان بزمامة إنسانية عامة ، وبالأخوة البشرية السكاملة .

وليس ذلك بعجيب بعد ما سمعنا عن فكرة « الحكومة العالمية » التي يدعو إليها بعض المفكرين .

(ج) وستتحول المبادئ الاقتصادية المتنافسة المتحاربة إلى تعاون اقتصادي عام شامل ينظم جميع أمم العالم وشعوبه ، وذلك لخير الناس ومصلحة الشعوب ، ولرفع مستوى الحياة في الأمم المتأخرة ، وذلك مما يحقق أهداف القرآن الحكيم ، ويوافق روحه واشترأ كيته العادلة .

(د) وستنبثق النهضة العلمية في جميع أمم العالم وثبة عظيمة ، وتشترك فيها جميع العقول والافكار متساندة متآحية متحابية ، هدفها الحقيقة والبحث والكشف والابتكار والتجديد في بناء الحضارة وعناصرها وتنظيمها والسمو بها ، وذلك أحد المقاصد السامية التي سارت إليها الحضارة الإسلامية .

(هـ) وستبنى الحضارة المبنية على القيم الروحية والمثل العليا الحققة والفضائل الإنسانية السكرية ، قريبا مما جاء به الإسلام ، ووفق ما شرعه من مبادئ ومثل وفضائل ، لا تزال موضع انتزاع للإنسانية ونورها وكبرياتها .

(و) وستصبح حرية الإنسان والأمم وحرية الفكر أمورا مقدسة ، لا يمكن أن يفرط فيها إنسان أو يجترى على العبث بها أحد ، وهذا هو أحد النوااميس العظيمة التي جاء بها الإسلام وكتابه الكريم .

وبعد ، فسيجد العالم نفسه في المستقبل القريب يعيش في ظلال ألوان من التفكير والمبادئ هي بعينها ما شرعه الله وأرسل به محمدا رسوله إلى الناس كافة ، ولا يمكن لعقل أن يدرك مدى ما سيطرأ على حياة الناس من تغيير، تبعا لتغير ألوان الحضارة وأسسها وأهدافها ، ولسيرها بأقصى سرعتها في سبيل خدمة البشرية كافة ، فذلك كله سيكون من المعجزات في تاريخ الحضارة والإنسانية .

الإسلام

والأسرة

الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى في الأمة ، والنواة الصغيرة التي يتكون منها المجتمع الكبير .

ولم يغفل الإسلام الأسرة من حسابه ، بل لقد دعمها ، وقواها ، وربطها برابط مقدس شريف ، وبعث فيها الحب والتعاون والمودة والإخلاص .

أساس الأسرة المرأة والرجل ؛ وقد جمعهما الله عز وجل لغرض عظيم ، وفي ظل رابطة مقدسة ، هي رابطة الزواج .

والزواج شركة مقدسة جملة الإسلام قائما على رضا الزوجين ومحبتهم وتعاونهما « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » ، ولا يتم عقد الزوج إلا بعد خطوات دقيقة ، الهدف الأول منها إعزاز المرأة ورفع مكانتها ، منها كفالة الرجل وحده ، والتزامه بمهرها ، ونفقةها ؛ ونفقة أولادها ، وبحسن معاملتها ورعايتها .

فاذا وجد للأسرة بنون أو بنات فعل الزوجين نعهدا ورعايتهما وتأديبهما وتثقيبهما .

وعلى الزوجين أن يتصرفا في مالهما تصرفا سائما ، يقيهما شر الفقر ، ويسكفل لأولادهما قسطا كبيرا من الرفاهية والحياة الطيبة .

وعلى المرأة أن تكون أمينة على مال زوجها ؛ وأن تحافظ عليه بحفاظتها على مالها .

وعلى الابن متى كان قادرا أن يقوم بشئون أبيه وأمه وأخواته الصغار ويعول أقاربه ويحسن إليهم جميعا ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

فاذا مات الزوج أو الزوجة ورث كل منهما الآخر في بعض ماله ؛ ووزع الباقي على من يستحقه بفريضة الميراث ، وفق شريعة الإسلام .

ونهى الإسلام عن الوصية للوارث ، قال الرسول صلوات الله عليه ، لا وصية
لوارث ، . كما نهى عن الوصية لغير الوارث بأكثر من الثلث . وذلك لينتفع أكبر
عدد من الأقارب بالميراث ، ولتنوزع الثروات الكبيرة فتقل الفروق الاجتماعية
بين الناس . فأين هذا من تشريعات أوربا التي تجيز أن تنقل ثروة الميت إلى الابن
الأكبر وحده ، ويترك أخوات هذا الابن عائلة على المجتمع وعلى أخيه ، وتجهز للرجل
أن يوصى بماله كيفما شاء ولمن شاء ؟ .

فإذا كان الزوج قادرا ، ووثق من نفسه العدل والإنصاف أباح له الإسلام أن يجمع
في عصمته بين أربع زوجات .

وإذا تعسرت الحياة الزوجية ، واستحال الوفاق ، ولم يجد التحكيم ، أجاز له
الإسلام الطلاق . . ويحرم الإسلام شتى أنواع العلاقات الجنسية الآثمة ، من زنا
وبغاء ، ومصادقة ، ومتعة ، حفظا للأسرة ولسكياتها المقدسة . . ويكفل الإسلام
حرية الأبناء . ويساويهم في المعاملة ببعض . ويفرض على الآباء القيام على رعايتهم
وتحليلهم وتوجيههم توجيهها صالحا في الحياة .

إلى غير ذلك مما شرعه الإسلام لتكوين الأسرة ، ودعمها ، في المجتمع الإسلامي
لتنظيم الاجتماع ، والسمو به إلى الخير والحق والعدالة والظهور والشرف والإحسان .

الإسلام

وحرية المرأة

كفل الإسلام للمرأة جميع الحقوق المدنية وأطاع لها الحرية في التعلم والتعليم وخدمة المجتمع ، وأعطاه حقوقها المالية والاجتماعية التي حرمتها الشرائع الأخرى منها . واحتفظ لها بحريتها الشخصية وكيانها المعنوي ، وسارها بالرجل في الحقوق والواجبات ، وأباح لها تولي القضاء ، وأعطاه حقوقها في الميراث : للأنثى نصف الذكر ، بقدر أعبائها المادية في الأسرة .

وجعل للمرأة الحق في أن تملك وتبيع وتشترى وتهب وتقبل الهبة وترهن وتوصي وتمتد باسمها العقود ، وتتصرف في مالها بسائر ألوان التصرف ، دون حاجة إلى إذن زوجها أو ولي أمرها . ولا يوزن الإسلام في ذلك بأي تشريع حديث ، فإن حالة المرأة في فرنسا لا تزال حتى الآن أشبه بحالة الرق المدني ، فقد نزع القانون منها صفة الأهلية في كثير من الشؤون المدنية ، فلا يجوز للمزوجة بيع ولا شراء ولا هبة ولا رهن ولا وصية ولا أي عقد من هذا اللون إلا بإذن زوجها وتصديقه وفي أغلب القوانين الحديثة تفقد المرأة بمجرد زواجها اسمها واسم أسرته ، وتنسب إلى زوجها وأسرته زوجها . وفقدان الاسم رمز وعنوان لفقد الشخصية المدنية باندماجها في شخصية الزوج كما يقرر علماء القانون .

وإسلام يفرض نفقة المرأة على أبيها أو ولي أمرها ، والزواج ، وعلى زوجها بعده ، غنية كانت أو فقيرة . فإن لم يكن لها عائل فنفقتها ونفقة أولادها من بيت المال .

وجعل شهادة المرأتين مساوية لشهادة رجل واحد ، لأن المرأة أكثر عاطفة وتأثرا وقبولا للأغراء ، فاحتاط الإسلام العدالة وضمائمها أكبر احتياط .

ويقول رسول الله من خطبته في حجة الوداع : أيها الناس إن لكم على نساءكم حقا ، ولهن عليكم حقا . لكم عليهن الأيوطين فرشكم أحدا ، وعليهن الأياتير بفاحشة معينة ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيرا ، لأنهن لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله .

وقد حرم ألوانا كثيرة من رق المرأة : حرم الزنا والبغاء وشتى ضروب المهانة التي تنزل بها ، ورفع كرامتها وجعل صلتها بالرجل مبنية على أساس رباط مقدس أباحه الإسلام وأكده ورعاه وهو رباط الزواج وجعلها راعية في بيت زوجها ومستقلة عن رعيته وأطلق لها حرية الرأي والتعبير حتى قال عمر : « أصابت امرأة ، وأخطأ عمر » .

وأوجب معاشرتها بالمعروف واستوصى بالنساء خيرا . وجعل لها الحرية في الرضا بمن تزوجه ، وفي الصحيحين أن خنساء بنت جذام زوجها أبوها وهي كارهة وكانت ثيبا فأتت رسول الله فرد نكاحها .

إن هذه الحرية التي أعطاها الإسلام للمرأة لا نظير لها في أية شريعة من الشرائع ، وليست الحرية عنده إلا بالشرف والعفاف والكرامة المعنوية .

المساراة مطلقة بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات : والمرأة زميلة الرجل في الحياة ولكن منطق العقل والدين جعل لها البيت وجعل على الرجل تحمل الأعباء العامة وإدارة شؤون الزراعة والتجارة والصناعة وشؤون وطنه العامة والقيام بأعباء السياسة والإدارة والحرب والأمن : .. أما خروج المرأة من البيت ، ومطالبتها بحققها في تولي المناصب السياسية في الأمة ، فهامة لا يقبلها عقل ، وإسراف لا تحمله شريعة ، ومنطق لا يوافق عليه كل ذى عقل سليم .

الإسلام وتعدد الزوجات

وقف كثير من الباحثين الغربيين حيال تعدد الزوجات في الشرق موقف النائم الساخر المنتهم ، وقالوا : لقد ظلم الشرق المرأة ، وهدم الأسرة ، وقوض دعائم الحياة الاجتماعية فيه ؛ بإباحة تعدد الزوجات ، مما كان سبباً في تأخره وضعفه ووقوفه في معترك الحياة الإنسانية جامداً أجيالاً طوالاً ، وكذبوا فيما قلوا .

لقد ذاقَت المجتمعات الغربية الآلام التي لانهاية لها من وراء تحديد الزواج بامرأة واحدة فانتشرت الرذائل الاجتماعية بينهم وقل وفاء الرجل لزوجته وإخلاص الزوج لزوجها ، واتخذ الرجل له صديقات واتخذت المرأة لها أصدقاء . وشقى الرجل بتربية أولاد علم الله أنهم ليسوا بأولاده ، كما شقى بجرمانه من الزوجية الطاهرة السعيدة ، وكان هذا كله مشار أفكار جديدة جهر بها علماء الاجتماع في أوروبا . فنقدوا هذا الحجر الفاسد الذي أفسد الأخلاق ودعوا إلى التحرر من نيره الثقيل .

جاء الإسلام والحياة الزوجية في فوضى جاححة لا تقيد الناس بعدد محدود من الزوجات . فقد يجمعون بين عشرات الزوجات ويجورون في معاملتهم ومعاشرتهم فكان بين خطتين : فإما أن يمنع تعدد الزوجات منعاً باتاً فيفرض الاقتصار على واحدة وإما أن يخفف وطأة هذا العدد الجاهح . وينظم تلك الفوضى العائلية باتخاذ طريق وسط فلا يحرم الرجل من التمتع بأكثر من واحدة ويقطع التعنس والعزوبة . . . وقد آثر الإسلام الاتجاه الثاني فأباح للمسلم الجمع بين أربع زوجات بشرط أن يعدل بينهن ، وألا يجور في معاملتهن .

وكان المشركون قد ألفوا الزواج بعشرات النساء ، ورأوه ضرورة من ضرورات الحياة ، فهل يطالبهم بالاقتصار على واحدة ؟ ذلك نشوز على أوضاع الحياة وضرورات الاجتماع ، وفيه الطفرة التي لا يؤمن معها من الهلاك . ولو فعل ذلك لأوضاعوا خلل المسلمين يبعثونهم الفتنة ليطفئوا ظمأ الشهوة . وكيف يضع الإسلام قانوناً يوقع الناس

في العنت والإرهاق . وهو دين البشرية الخالد وشريعة السماء الباقية ، وما منهجه في التشريع الا التدرج الطبيعي في أمور الدين رفقا بالماس وسعيا بهم إلى السكمال الاجتماعي المنشود .

وحكمة ثانية لهذا التعدد الحكيم هي أن الاسلام يرمى إلى الاكثار من العدد ، وخير سبيل إلى ذلك هو إتاحة التعدد ، وقد تكون الزوج عتيما لانه فلما أزم الرجل بواحدة دون سواها انقطع نسله وذهب أثره ، ولو فلما له طلقها وتزوج سواها لسكننا نائرين على شرعة العدالة والوفاء ، ولاخرجنا المصلحة من حياة الزوجية إلى حياة تعيش فيها كدلا على الناس ، ولو لم نقل بالتعدد لدفعنا بها إلى الفناء البطيء ولحبينا الفاحشة والردائل إلى نفوس المحرومين من التعدد .

على أن عماد الأسرة في الريف وغير الريف على أبنائها ، فهم الذين يديرون حركة البيت ويقومون بأعباء الأعمال ، وكلما كانت الأسرة أكثر عدداً كانت أقدر على تحمل مآسى الحياة ، وكلما كانت الأمة أكثر عدداً تستطيع حماية الوطن والدفاع عنه . . ولهذا نحن في حاجة إلى أن تسند الأسرة المصرية بالأيدي العاملة الكثيرة ولاسبيل إلى ذلك إلا باباحة تعدد الزوجات لمن يريد ، حتى يشعر الرجل بأن من ورائه أيادي تؤيده وسواعد تعينه على حمل أثقال الحياة وشدائد الدهر وآلام الكهولة .

لقد قضت الحرب الماضية على زهرة الشباب في أوروبا فأصبحت الأمم تواجه أزمة خطيرة من كثرة النساء وقلة عدد الرجال ولاسبيل إلى دلاج ملك الازمة إلا بالرجوع إلى مبادئ الإسلام باباحة تعدد الزوجات لحفظ النظام الاجتماعي وتيسير الحياة على الناس .

المرأة والدين والاقتصاد

المرأة جمال البيت ، وملاذ الطفولة ، وعماد الرجل ودعامة الأسرة .
وقد رعى الإسلام المرأة وحققها في الحياة ، وحررها من جور الرجل وجعل
لها ماله من حقوق وواجبات .

إن الإسلام يقرر للمرأة :

- ١ - حريتها الشخصية في حدود القانون .
- ٢ - ويبيح لها أن تتعلم وتدرس وتثقف نفسها وتهذب خلقها
- ٣ - ويساويها بالرجل في الحقوق والواجبات العامة
- ٤ - ويعترف بشخصيتها المدنية ، فأباح لها حق التعامل ، وجعل لها نصيبها
العادل من الحقوق المالية والواجبات
- ٥ - ويبيح لها أن تساهم في الأعمال الاجتماعية والإنسانية العامة ، كخدمة
المرضى ، ومواساة الجرحى ، والتخفيف عن المنكوبين ، والاشتراك في أعمال البر
والترفيه عن الفقراء ، والخروج مع الجيش لخدمة الجرحى والقتلى ولبعث الحمية
في نفوس الجنود

٦ - ويقر لها حق الوعظ والإرشاد والفتيا والقضاء ؛ وإن كان يجب أن
يعرف أنه يبيح لها ذلك إذا عرض أمرا أو وقعت مشكلة ، لا أنه يخصصها لذلك
وفرق بين من يساهم بقسط في السياسة العامة لبلده متى ما احتاج الأمر ذلك وبين
من يخصص نفسه للعمل السياسي . فالإسلام يعتبر المرأة عضوا في المجتمع الإنساني
تخدمه بشتى الوسائل ؛ فتعظ الجاهل ، ونفى المستفتى ، وترشد الضال وتنهى العاصي
واسكن على ألا يكون ذلك وظيفتها في الحياة ، بل تقوم بذلك مع انصرافها إلى
منزلها وبيتها ؛ فلم يعين الرسول « ص » ، ولا الخلفاء بعده امرأة في القضاء أو الولاية
والحباية إلى غير ذلك من الأعمال ؛ وأمر ابنته فاطمة بخدمة البيت وأمر عليا
بكسب العيش وقضاء حاجيات أهله . وإن كان قد قال (ص) : « خذوا نصف
دينكم عن هذه الحميراء » ، يعنى عائشة رضى الله عنها .

أما الأعمال السياسية التي تنادى المرأة بوجود اشتراكها فيها مع الرجل ، كحق

الانتخاب ، وأن تكون نائبة ، وعضوا في مجلس الشيوخ ، ووزيرة ، ومديرة ، وما شابه ذلك كأن يباح لها حق تعيينها قاضية وغير ذلك من الوظائف العامة . كما حدث للنساء أوروبا وأمريكا .

فدار ذلك على نضج المرأة الاجتماعي والعقلي ، وعلى أن يتاح للنساء عندنا حظ من التعليم والثقافة بمقدار ما أتيح للنساء أوروبا وأمريكا ، وإن كان الزمن سيحتم أخذ المرأة حقوقها في وقت ما .

والإسلام يعترف للمرأة بحق اشتراكها في الشؤون العامة ، وبأن تشير وتستشار فيها وإن كان لا يخصصها لهذا العمل ولا يوقف حياة امرأة عليه ، لأن ذلك محاربة للأوثان وواجباتها والمرأة التي ردت على عمر رأيه في تحديد المهور أمرها معروف مشهور . هبوا أن المرأة أصبحت موظفة تقضى في عملها الخارجى بعيدا عن المنزل بضع ساعات من النهار ، فإذا يترتب على ذلك من نتائج ؟

ينترتب على ذلك أن :

- ١ — تزاحم المرأة الرجل فنخلق مشكلة البطالة بأيدينا .
- ٢ — ولا تستطيع أن تقوم المرأة بالأعمال والواجبات التي يستطيع أن يقوم بأعبائها الرجل .
- ٣ — وتعزف الفتاة الموظفة عن الزواج غالبا كما هو مشاهد في أوروبا وأمريكا ولهذا أثره في قلة النسل وفي انحدار هذه الفتاة إلى بؤرة الرزيلة وإلى صداقات الرجال .
- ٤ — ويضيع شباب المرأة العاملة ويذبل جمالها سريعا .
- ٥ — ولا تجد بعد أن تعجز عن العمل بتأثير المرض أو السن من يعولها من زوج أو ولد .

٦ — وإذا كانت للمرأة الموظفة أطفال فستعتمد في تربيتهم على المربيات وبذلك ينشأون نشأة شقية ويفقدون الشعور بعطف الأم ويتعودون فاسد العادات . وسيقال إن للمرأة في ميدان العلوم والآداب والاختراع والفنون ميذا فسيحا فلم لا تكون أستاذة وفيلسوفة الخ ؟

والذين يقولون ذلك ينسون أن المرأة لم تبلغ في نبوغها مبلغ الرجال . وهل سمعنا بجائزة عليية كانت من نصيب النساء ؟ إن الجوائز — وهى من أقيسة النبوغ البشرى — تكاد تكون مقصورة على الرجال ، والنساء العالمات اللاتي يرتفعن إلى

صف الصفوة المختارة من رجال الفكر نادرات جدا . وسواء أكان السبب في ذلك يرجع إلى أن عقل المرأة يغلب عليه الخيال والجنوح إلى العاطفة لا إلى التفكير والاستنباط . أم كان السبب أن قواها العقلية ينف نموها بعد العشرين بينما يستمر نمو القوى العقلية في الرجال ، فما لا شك فيه أن التحصيل العلمي العميق لا نجده عند النساء أو الفتيات ، وفي ذلك يقول أحد المفكرين ، « تحصيل المرأة سطحي دائما ولهذا يجب الاعتماد على الرجال وحدهم » . ولم يشتهر من النساء في العصر الحديث إلا مدام كورى . وتقول مدام دي جيبارد : « وكل الأمور التي تحتاج إلى غريزة وإلهام يتفوق فيها النساء على الرجال ، أما التي تحتاج إلى التدليل والبحث العلمي فيتفوق فيها الرجال عليهن تفوقا هائلا » .

ويقول الفيلسوف الاشتراكي برودون ، « النوع الإنساني ليس مدينا للنساء بأى اكتشاف صناعي ولا بآلة ، والدور الذي لعبته المرأة في الآداب لم ينفع إلا حيث لا يلزم استعمال القريحة » .

وإذا كانت هناك مدرسات وعالمات ، فإن هناك فرقا بعيدا بين التدريس والنبوغ العلمي . على أن أغلب المدرسات يدرسن الأطفال والفتيات اللاتي تتفقد معهن في الطبيعة والعاطفة والخيال .

إننا لو دخلنا المرأة - باسم المساواة - تتخلى عن عملها في البيت ، وتدع حرفة الأمومة ، لتنتقل في ميادين الرجل صانعة أو مهندسة أو موظفة في المكاتب والشركات لو خليناها تفعل ذلك لأنها إنسانة وآدمية فحسب ؛ أكان مثلما مثل من يوجه الرجال جميعا نحو ميدان واحد . فليس هناك فرق بين اشتغال النساء بالمبوت والأمومة واشتغال الرجال بالصناعة والتجارة والسياسة ، إلا مثل الذي أجده في توزيع الأعمال بين العلماء والقضاة والمهندسين والأطباء وسائر طوائف الموظفين والصناع (١) .

لقد أثبت البحث أن :

١ - المرأة أضعف من الرجل عقلا وأقل منه صلابة وأوهن قوة . ويسكنها برهانا على ذلك أن نعلم أن :

(١) ص ٢٨ هلال يوليو ١٩٤٧ من مقال للسيدة بنت الشاطئ . بعنوان « عدل لاخير فيه » .

- ١ — متوسط طول المرأة أقل من متوسط طول الرجل بمقدار ١٢ سم
٢ — وزنها أقل من وزن الرجل ٥ كيلو . فوزنها ٤٢.٥ ك ووزن الرجل ٤٧.٥ ك

- ٣ — يجرعها العضلي أقل منه كالأعزى عند الرجل
٤ — قلبها أخف من قلب الرجل بمقدار ٦٠ جراما في المتوسط
٥ — جهازها التنفسي يحرق في الساعة ٦ جرامات من السكر ، بينما يحرق الرجل ١١ جراما . ولذلك فحرارة المرأة أقل من حرارة الرجل
٦ — وحواس المرأة الخمس أضعف من حواس الرجل ؛ فلا تستطيع إدراك رائحة عطر الليمون على بعد محدود إلا إذا كان العطر ضعفاً المقدار الذي يدركه الرجل أى أن حاسة الشم عند المرأة نصف حاسة الرجل ، وتحتمل المرأة الألم أكثر من الرجل مما يدل على قلة إحساسها به ، ولهذا فائدة عظيمة في حفظ النوع الإنساني فإن المرأة هدف للحمل والرضاع والولادة ، فلو لم تكن أقل إحساسا لما استطاعت تحمل تلك المشاق .

- ٧ — ولاشك أن تعرض المرأة للحيض وفقدائها بسببه جزءا كبيرا من دمها ، ثم تعرضها للحمل والولادة والرضاع يوهن كثيرا من قوتها ، فوق ضعفها الطبيعي
ب — ولا تختلف المرأة عن الرجل باختلاف شكل أعضاء التناسل فقط ، بل إن كل الأعضاء الأخرى التي تظهر أكثر تشابها في الرجل والمرأة تتباين في الحقيقة تبائنا خاصا إلى نوع ما . وهذا الاختلاف الطبيعي هو اختلاف بيولوجي حيوي بين الرجل والمرأة . إذ لا شك أن أعضاء المرأة قد خلقتها لتكون زوجة وأما ومرضها ، وأعضاء الرجل قد جعلته زوجا وأبا وعائلا

ج — ولم يقف الاختلاف بين الرجل والمرأة عند تركيبهما الجسماني فحسب ، بل شمل قواهما العقلية أيضا :

- ١ — فمخ المرأة أقل من مخ الرجل بمقدار ١٠٠ جرام في المتوسط
٢ — ونسبة مخ المرأة إلى جسمها ١ على ٤٤ ، بينما تبلغ نسبة مخ الرجل إلى جسمه ٦ على ٤٠
٣ — ومخ المرأة أقل ثنيات ، وتلافيقه أقل نظاما من مخ الرجل ، ولذلك فهي أقل ذكاء .

٤ — ومركز الاحساس عند المرأة أحسن تركيبا منه عند الرجل وهذا مطابق لمميزات الجنسين ، فان المرأة أكثر انفعالا والرجل أكثر ذكاء .
٥ — وليس النقص في قوى المرأة الجسمية والعقلية امتهانا لكرامتها أو وضعها لها في مكانة أقل من مكانة الرجل ، بل لأن وظيفتها التي خلقت لتؤديها لا تقتضي أكثر مما منحه من القوى .

إن الله عز وجل خلق الجنسين ليتعاونوا في هذه الحياة لا ليتنافسا ، فوهب كلا منهما مميزات توجهه في خدمة المجتمع وجهة خاصة ؛ وهب الرجل القوة والعقل والحزم فكان العامل والصانع والزارع والجندى والقائد ، وهب المرأة الخيال والعاطفة ورقة الإحساس وجعلها أضعف بنية وأقل حزمًا وتفكيرًا وأسرع نسيانًا تعتمد على الذاكرة والتقليد لعل الاستنباط والتفكير فوجب أن تكون زوجة وأما لا وزيرة أو موظفة أو عاملة .

إن مقتضى التكوين الطبيعي اختصاص المرأة بالخل والرضاع وحضانة الأطفال وتربيتهم وتدبير المنزل ، فكيف تحمل مع هذه الواجبات الثقيلة واجبا آخر هو كسب العيش والسكدرح في الأرض فتقتلونها من حيث تريدون لها الحياة .

يقول أحد شعراء الفرس : « إن الله عند ما أراد أن يخلق المرأة جمع رقة النسيم وأريج الزهر ونور الشمس وابتسامة الربيع فخلق منها المرأة ، ويقول لوثر : ليس على الأرض أكثر رافة من قلب المرأة ومكننا للعطف ، ويقول نابليون . « الرجل نثر الخاق والمرأة شعره »
إن نفسية المرأة تتأثر بعاملين :

الأول : تركيبها الجثائي (الفزيولوجي)

والثاني وظائفها الطبيعية (الفزيولوجية)

فيدفعها تركيبها والغريزة الجنسية التي فطرت دليها ، كما تدفعها وظيفتها الطبيعية لأن تكون زوجا وأما متى ما نضجت أنوثتها وتم نموها . . وفي ميدان الزوجية يتجهن على المرأة أن :

١ — تسهر على تدبير المنزل والعناية به

٢ — وتشارك الرجل في أفراحه وأحزانه

٣ — وأن تربي أطفالها إذا ما أصبحت أما لأطفال .

فهل تترك المرأة هذه الواجبات اعتماداً على الخادومات والمربيات ، وهب أنها قضت في العمل بعض اليوم ثم عادت الى البيت لتقوم بواجباتها نحوه ، فهل تعتقد أن ذلك يحاق سعادة زوجية ؟ لا ، فالمرأة التي تعتقد أنها في غنى عن كفالة الرجل قلباً تبذل جهداً في جعل الحياة الزوجية سعيدة ، ولأقل سبب تفصم عرونها المقدسة ، وما رأى هؤلاء إذا نقلت المرأة الموظفة إلى مكان بعيد ؟

والمرأة لا تستطيع أن تناهض الرجل أو تنتصر عليه في ميدان السيامة ، فهو أطول منها في ذلك باعاً ، وأكثر مقدرة ، وأوسع حيلة ودهاء .

وأما المسكات اللاتي تولين العروش ، فلم يظفرن عبقرية ، ولم يستغنين عن الرجال وكمبيوترات وشجرة الدر وكازينو وفيكتوريا تاريخن مشهور معروف . وسيقولون إن أزمة الزواج المنتشرة توجب اشتغال الفتاة بالأعمال حتى تضمن رزقها ومعيشتها ، ما دامت لا تجد الزوج الذي يقوم بذلك .

وهذا اعتراض غير مستقيم ، فأزمة الزواج علاجها معروف ، وقد يكون من أهم أسبابها عدم محافظة الفتاة على شرفها بما أثار الشكوك حولها ، فلواتم المصلحون بعلاج هذه الأزمة وبتحصين أخلاق الفتاة والفتى . لاستقامت الأمور وصحت الأحوال .

والرجل إذا كان قد قام ببعض أعمال المرأة ، فلم يقم إلا بالعسير المردق منها للمرأة نفسها ، كالخبز والطهي والتطريز والحياكة وتربية الأطفال ، وذلك لخدمة المرأة ومساعدتها على النهوض بواجباتها المنزلية ، وتهيئة الوقت الكافي لها لشغل نفسها وترقي مجراتها العقلية والحلقية والأدبية ، ولم نسمع أن امرأة شككت من قيام بعض الرجال بهذه الأعمال .

منطق الحياة :

« إن الطبيعة - التي جعلت في كيان الأنثى مكان الولد وفي ثديها النع الإلهي لغذائه ، وفي حقها الصبر على تكاليف تربيته وحضانه ، وجعلت في الرجل خشونة المقاتل وقوة المكافح وجلد الصياد ، كما تقول السيدة بنت الشاطئ . - هي التي فرقت بين الرجل والمرأة ولم نجعل المساراة بينهما سهيلاً .

« والمرأة بأنوثتها قد كانت منذ الأزل الحبيبة الشائقة والملهمة الغاتنة والسيدة

الحاكمة ، تمنو لها جباه الملوك وترنو إليها أبصار الفرسان ، ويحوم حولها رجال
الفن وعشاق الجمال ، ويتخذها الرجل في بيته حرما مصونا ، لا يمسه غبار ، ولا
تجرحه الأعين ، ولا تناله الأيدي ، ولا تتناول إليه الأعنة كما يقول بنت الشاطئ .
فقارنوا بين حالتها هذه في القديم وحالتها الحاضرة الآن ، حيث انتهت كرامتها ،
وأصبحت شيئا رخيصا مبتذلا ، وضاعت مكانتها الأدبية ، وفقدت كثيرا مما
أكسبتها إياه قوانين الطبيعة الحكيمة الملهمة .

إن القانون الطبيعي الذي يخصص الجنس اللطيف للحياة المنزلية . لم يتغير ،
كما يقول أوجست كونت الفيلسوف . وإن المرأة الحديثة تدمر ملكيتها حين تحاول
القبض على زمامنا كما يقول كانابليس ، والله عز وجل عندما أراد أن يخلق حواء
من آدم لم يخلقها من عظم رجله لئلا يطأها ولم يخلقها من عظم رأسه لئلا يسودها
ولكن خلقها من ضلع من أضلاعه لتكون مساوية له وقريبة من قلبه ، كما يقول
الأوروبيون ، ولا يزال بعض علماء الغرب وفلاسفته وبعض حكوماته يرى أن
تعيش المرأة في بيتها بعيدة عن الأعمال العامة ، وتمسك شوئهم وعدو المرأة بدعاة
مساواتها بالرجل فيقول « أتركوا المرأة حريتها ولا تجعلوا عليها رقبيا ، ثم قابلوني
بعد سنة وأخبروني بالنتيجة » .

إن المرأة حين تخرج من بيتها باحشة عن حريتها تقيد نفسها وحريتها بأوثق
السلاسل والأغلال .

وإذا كان بعض فتياتنا يعملن الآن في الأعمال العامة ، فإنهن ولا شك يجتهدن
أن يوفقن بين ذلك وبين الحياة الزوجية . ومن الواجب على حكوماتهن أن تساعدن
على ذلك ، وأن تضمن لهن السعادة في الحياة .

يجب أن تبقى الوظائف في الوظائف العامة التي لا تستغنى الدولة عن نشاطهن
فيها ، كاللدريس في مدارس البنات وكالتدريس والتطبيب وسواها على أن لا تحول
بينهن وبين الحياة الزوجية . أما الوظائف التي يمكن أن يعمل فيها الرجال فيجب
أن ترد المرأة منها إلى البيت وتصرف لها مكافأة كبيرة نظير رجوعها إلى حياة
المنزل في ظلال الزوجية .

وعلى الفتيات والنساء أن يحافظن في كل مكان على شرفهن ومكانتهن الأدبية .
عليهن أن يتجنبن التبذل والإمعان في اللهو والانصراف إلى الفساد ، وعليهن حفظ
كرامتهن ؛ وأن تدفع لهن مقدارا كبيرا من الثقافة ، ثم تدفع لهن زواجا سعيدا وحياة
زوجية كريمة ، بمحاربتنا لازمة الزواج وبضربنا على أيدي المستهترين واللاادين
والعابثين ، وبغير ذلك من الوسائل .

مِلاد!

الحضارة الإسلامية

بدأ ميلاد الحضارة الإسلامية بعد ميلاد الاسلام بقليل ، وذلك حينما استقر الرسول وصحبه في المدينة ، وأخذ الاستقرار الروحي والأدبي والفكري والاجتماعي ينتشر في جزيرة العرب ، وانتفع أهلها بتوجيههم - بفضل الإسلام - إلى الحق والخير . ثم جاء الخلفاء وملوك المسلمين الأوائل ، فتمهدوا هذا الفرس حتى نما وازدهر وأثمر . وتعددت مراكز الحضارة الإسلامية في العالم الإسلامي ، وهذا هو التاريخ شاهد صدق على مدى ما بلغت دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وسواها من مدنية . ولقد تألفت أضواء الحضارة الإسلامية في شتى أرجاء العالم المعروف آنذاك ، وانتقلت من الشرق إلى الغرب عن طريق صقلية والأندلس وباختر لاط الأوربيين والشرقيين في الحروب الصليبية وسواها .

وصحيح أن الحضارة الإسلامية اقتبست ونقلت عن حضارات الهند والصين وإيران والآشوريين والبابليين والفينيقيين والإغريق والرومان وسواها ، ولكنها بجانب ذلك جددت وابتكرت ، فكان الشرق بحق أستاذًا وإمامًا إبان العصور السالفة ، مما شهد به الفلاسفة والمفكرون في الغرب ، وسجله التاريخ في فخر وتقدير .

وإذا كان لكل حضارة مبادئ وأهداف ، تقوم عليها ولأجلها ، فإن الحضارة الإسلامية تقوم على مبادئ خالدة ، لم يصل إليها العقل البشري من قبل ، ولم يستطع العالم في القرن العشرين أن يجاريها أو يتخذ مما يماثلها دستوراً له في الحياة . وهي مبادئ الإسلام ، وقبس من نور الله ؛ وتراث من حكمته ، والإنسان خليفة استخلفه على الأرض ، وعليه لذلك أن يتجه بروحه وقلبه إلى الله وحده لا شريك له ، يعبدوه ويطيعوه ويعمل بشرائعه ، ويوقن أنه معه في كل مكان وحين ، يعلم السر وما هو الخفي ؛ « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

ولاشك في أن ذلك يكسب الإنسان صفاء في العتيدة ، ونورا في الصدر ،

وطهر في القلب ، واعتز اذا بالنفس والعمل الكريم ، ورضاء باحكام الله وقضائه
له مقابلد السموات والارض ، ببسط الرزق لمن يشاء ويقدر . إنه بكل شيء عليم ،
وينظر الإ-لام إلى المجتمع - بجميع عناصره وطبقاته - على أنه أسرة واحدة
متعاونة تعاوناً وثيقاً في الحياة ، يبطب الغنى على الفقير ، ويحنو الكبير على الصغير
ويدفع كل بالتي هي أحسن ، وهل أبلغ في التعبير عن هذا التعاون المطلق والأخوة
الكاملة من قول الله عز وجل : « إنما المؤمنون إخوة » وقول الرسول الكريم ومثل
المؤمنين في توادهم وتراحيمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر
الأعضاء بالحنى والسهر »

والراعى يقيم العدل ويزن بالانصاف ، ويسوى بين الناس ، ويستشير في أحكامه
أولى العقل والتفكير ، وينشر الأمن والسلام بين الرعية ، لا يقر له قرار حتى يأخذ
كل ذي حق حقه ، ويقضى لكل ذي حاجة حاجته . ويرد عن كل مظلوم ما لحقه
من ظلم وطفيان .

والعالم كله بشعوبه وعناصره وأديانه مجتمع واحد ، يكفل له الإسلام الأمن
والسلام ، في ظلال التعاون والمحبة والإخاء والتبادل الفكري والعقلي والروحي
والمادى ، ويجب أن يعيش الناس أمة واحدة كما خلقهم الله ، كن الناس أمة واحدة
فاختلفوا ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا
إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

هذا فوق ما كفله الإسلام من شتى عناصر التقدم والحضارة الأدبية والروحية
والمادية ، اللازمة لتقدم الجماعات . ورفق الأمم والشعوب ، بما قضى على الهدمية
والوحشية في عصور لم تعرف النور ولا الحضارة من قبل .

والأهداف الأولى لهذه المبادئ كلها في نظر الإسلام ، هي نشر أفكار
الحق والعدالة والحرية والمساواة والإخاء والشورى والتعاون والخير والمحبة والرحمة
والسلام . ليعيش الناس جميعاً في ظلال وحدة مجتمعة في الأفكار والأهداف
والمبادئ والغايات ، ظلال عالم موحد تسوده الطمأنينة والأمن والسلام ، وفي حضارة
مشتركة غيتها الإخاء بين الروح والمادة والعقل والجسم والواجب والحق والإيثار
والأثرة .

فأعز الإسلام ، وشريعة نبي السلام ، وما أروعها مبادئه يجب أن يفهمها
ويعمل بها كل إنسان .

إن حضارة الغرب بألوانها المادية الظالمة ، وروح الاستعمار الجشع الظالم الذي
يسودها ويتفشى فيها ، وبنزعاتها في حب السيطرة والقوة والسيادة ، لا يمكن أن
تكون حضارة إنسانية يسعد العالم بأن يعيش في ظلها ، وينال الأمن والسلام
تحت لوانها .

وإن الذين ينزعون إلى الإيمان بالغرب وحضارته لجد مخطئين .

اهداف الاسلام

لا تجد دينا يدعو إلى الأهداف السكرية ، والغايات السامية ، والأغراض الشريفة ، والمثل العليا ؛ مثل دين الإسلام وشريعة محمد خاتم الرسل عليه السلام ، ولا عجب فالإسلام دين البشرية الخالد ، وخلاصة المثل الإنسانية العالية ، وعقيدة الفكر الحر ، التي ترنو إليها البشرية ، وتهدف نحوها الحياة ، وتتلاقى مع أصول الحضارات والمذاهب الحققة ، وتجتمع مع شتى تيارات التفكير الحديث المنزه عن الهوى .

ولقد جاء الإسلام والعالم يعيش في ظلام دامس ، وجمل مطبق ، ونظم عتيقة فاسدة وعقائد محرفة مضللة . فبدل ظلام الحياة نوراً ، والجمل ثقافة وعلما وعرفانا ، ومحا تلك النظم البالية ، والتقاليد الباطلة الزائفة ؛ وجاء بأصول اجتماعية وإنسانية هي أسس ما عرف في الأديان والمذاهب من مقومات وعناصر .

دعا إلى عقيدة تجمع بين أصول العقائد والأديان السماوية الصحيحة ، وتسير بالإنسان إلى حياة مهيبة كريمة ، توفق بين المادة والروح ، والدين والدنيا ، والأولى والآخرة .

وجه الإسلام الناس جميعا إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، له مقاليد السموات والأرض ، يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، والأرض جميعا في قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه . وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر .. كما دعا الناس إلى دين واحد ، يصدق به العقل والروح ، ويجمع بين خير الدنيا والآخرة ، ويرشد إلى أمثل ما في الحياة من عدالة وخير ورحمة . وجمعهم على كتاب واحدة ، ودستور خالد ، هو القرآن ، كتاب الله العظيم . وعلى رسالة واحدة ، هي رسالة محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وهي الرسالة التي تتفق مع دعوات الأنبياء ، وشرائع المرسلين ، شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما صينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه . . فلم لا يكون الإسلام بذلك كله مثلاً أعلى في العقيدة والإيمان ، وسن لإسلام القوانين الصالحة لكل العصور والجماعات ، والكفيلة برقى الفرد والأسرة ، وتقديم المجتمع والأمة والإنسانية ، على نحو يرضاه العقل ؟ ويطمئن إليه القلب والوجدان . فلم لا يكون بذلك الداعي إلى المثل الأعلى في النظام والتشريع

وحارب الإسلام العصبية وأنكار الجاهلية الأولى ، التي تفضل جنساً على جنس
أو جماعة على جماعة ؛ أو فرداً على فرد . يقول الله عز وجل : « إنما المؤمنون إخوة »
ويقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى »
حاربها الإسلام لأنها تنادى بالتنازع والبغضاء ؛ وتفرق بين الناس وقد جمعهم
أصل واحد : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل
لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

محاربة الإسلام ما كان بين الطبقات من تلك الفوارق الاجتماعية الواسعة ، التي كثيراً
ما تستند إلى الحسب أو الجاه أو المال ، وجعل الفتيار أحداً للفتي ، والغنى أخاً للفقير
ودعا الأغنياء إلى البذل والجود والإحسان وأداء الزكاة وإنفاق المال في كل حق
وخير ومعروف . كما دعا الفقراء إلى الأمانة والعمل والزهد والقناعة والرضا
بما قسم الله ، « أولم يروا أن الله يبدط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إن في ذلك لآيات
للقوم يؤمنون » . فأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون
وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » . وقرر أن المال في أيدي الأغنياء إنما هو مال
الله استخلفهم فيه ، « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جؤم لكم مستخلفين فيه » . وما
ينفقونه على الفقراء من مال إنما هو قرض لهم عند الله يجزيهم عليه خيراً وثواباً
كبيراً ، « وأنفقوا خيراً لأنفسكم ؛ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ،
إن ترضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم . والله غفور حلیم » . فكيف لا
يكون الإسلام بذلك كله ديناً عاماً هو المثل الأعلى في الاجتماع والروح الإنساني
الكریم .

والأصول الأولى في الإسلام تدعو إلى الحق والخير والعدل والمساواة والحرية ،
وإلى التعاون والوحدة والشورى ، وإلى الأخوة العامة ، والزمانه البشرية ، والحضارة
والرقى والثغافة ، وإلى محاربة الأهواء والتقاليد الضارة ، وإلى المحافظة على
الشرف والكرامة وروح الإنسانية في الفرد والجماعة والأمة . كما تدعو إلى السلام ،
وإلى أن يقوم هذا السلام على الحق ، وفي سبيل خدمة المثل العليا التي بدعو إليها الإسلام
وهي فوق ذلك فطرة الله التي فطر الناس عليها ، « وصبغة الله ومن أحسن من الله
صبغة ؟ » . وحسبك أنها تقوم على رعاية شئون الدنيا وأمر الآخرة « واتبع فيما
آتاك الله الدار الآخرة . ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ،
ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » . إلى غير ذلك من الأهداف

والمثل التي يجمعها ويدعو إليها الإسلام وكما به الكريم .

وبعد فقد حرر الإسلام الإنسان من الوهم والتقييد والجمود والجهل والفاقة والاضطهاد والاستبداد . . . وحرر المرأة من استبداد الرجل : فجعل لها حقها في الحياة وسواها به في الحقوق والواجبات المشروعة ، واعترف بأهليتها لتصرف والملك وتدير شؤون المنزل والأسرة ، والمساهمة في أعمال الخير والبر والطاعات ، وفي شتى النواحي الاجتماعية التي لا غنى للمجتمع عن نشاط المرأة فيها . وحرر الطبقات من طغيان العصبية والثروة والحسب . وحرر المجتمعات من الخرافات والأضاليل وأوهام السكمان والمتزعمين ، وحرر الأمم ، فجعل أمرها شوري بينها ، وساسها بالعدل والقسطاس المستقيم ، وبالرحمة والابتر وحب الخير العام ومصلحة الجماعة المشتركة والشعور الصحيح بالمسؤوليات ، وقضى على الرذائل والمنكرات والشهوات التي تضعف الروح ، وتهدم البنيان ، وتفسد نزعات الخير ، وتقف بالجماعة عن السير والنضال في الحياة . . . وحرر الإنسانية عامة من ربة الجمل والوحشية والتأخر والفوضى والاثرة ، ومن جموح الشهوات ، وتقديس الماديات ، والجنوح إلى الشر والفساد في الأرض ، ومن التقليد الضار ، والايان بما كان يؤمن به الآباء والأجداد دون تحكيم للعقل ، أو وزن الأمور بميزان التفكير السليم . . . ورفع مع ذلك كله الإنسان ومكانته في الحياة ، فجعله خليفة الله في الأرض ، ودعا إلى أن يسير إلى أمثل ما في الحياة من حق وخير وسمو ، وإلى أن يعمل على تقدم الحياة الإنسانية بأوسع معانيها .

ولقد أتت الروحية الإسلامية الأولى بالمعجزات ، في الاجتماع والسياسة ، وفي الأدب والعلم والفن ، وفي التفكير والتنظيم ، وفي شتى نواحي الحياة والحضارة ومن أولى بذلك من الإسلام ، دين الله ، وشريعة رسوله محمد صلوات الله عليه ودستوره القرآن ، ومنطقه العقل والحجة والبرهان ، وأساسه الفضيلة والإيثار والخير وروح الجماعة والإنسانية العالية ، والتجرد من الأوهام والرذائل والمادية القاتلة ، ومن كل ما هو منكر وقبيح وباطل . فما أروع الإسلام ، وما أجل شريعة تقوم على هذه المبادئ المثلى ، وتدعو إليها ، وتدفع البشر والبشرية نحوها ! .

استراتيجية عادلة

يقول الرسول الأكرم : « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له . »

ويقول : « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم ، ويقول : من كان عنده طعام اثنین فيذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع وبخامس . »

وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، أى بين الفقراء والأغنياء ، بين المشردين عن أوطانهم وأموالهم والمقيمين في وطنهم ومالهم وأهلهم .

وكان يقول يامعشر المهاجرين والأنصار : « إن بين اخوانكم من ليس له مال فليضم أحدكم إليه الرجلين والثلاثة . »

وعن جابر بن عبد الله قال : « كان لرجال منا فضل أرض ، فقالوا نؤاجرها بالثلث أو الربع أو النصف ، فقال الرسول من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه . »

وقد شرع الإسلام نظام الوقف لتسكون الأرض أو العقار ملكا للمجموع وتصرف في مصارف الخير والإحسان .. وفوق ذلك فقد حرم الاحتكار ، احتكار الأقوات العامة ، وما يشبهها من موارد الثروات العامة .

كما حرم الربا ، حرمة لأنه مظهر الأثرة والأنانية وحب الذات فافقر الذى يقترض منك جنيها لا يصح أن تأخذه منه جنيها وربعا أو ثلثا أو نصفها وإلا كانت نفسك جشمة لا تعرف معنى الدين والايثار والانسانية .

وأوجب الزكاة ، وحارب أبو بكر العرب حين منعوها وجعلهم مرتدين . وفرض الصدقات والإحسان ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، وعن الطمع فيما في أيدي الناس .

وطالب إعطاء الناس حقوقهم ، وإعطاء الأجير أجره ، وبايداع الأغنياء

أموالهم في أيدي الفقراء ليعملوا بها على أي لون من ألوان العمل والتصرف ،
شركة أو مضاربة أو مزارعة أو مساقاة .

وشرع نظام القرض والوديعة والاعادة والوصية والهبة . . وفرض
قرائض الميراث .

أوليس كل ذلك كله خطوة حاسمة لتقريب ما بين الطبقات ومحاربة الفقر وعلاجه
علاجاً حاسماً . ولخلق جو من المودة والتفهم بين الفقراء والأغنياء ، ولنشر روح
من السماحة والأخاء والتعاون ؟

هذا وغيره من مبادئ الاسلام الخالدة هو الاشتراكية بأجل معانيها وأروع
أهدافها وأسمى غاياتها وألوانها .

اشتراكية تحارب الرأسمالية الجشعة المتمرمة ، وتحارب الشيوعية المتلصصة
المتذبذبة ، وتحارب الماركسية المتطرفة الخماء ، وتحارب الفوضى في المجتمع ، وتقتل
بذور الشقاق والخلاف والعداوة بين الناس والطبقات .

اشتراكية هي العدل والتعاطف والمحبة ، وهي الايثار والتضحية ، وهي تقديم
مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، وهي الألم لشقاء الناس والبذل لمسا في اليد
ومساعدة كل ذي محتاج .

اشتراكية لاتدع لذى ألم ألما ، ولا لذى حاجة حاجة ، ولالذى كربة كربة . .
من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة .
اشتراكية مبدؤها : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ود عامل
الناس بما تحب أن يعاملوك به . فأين هذا من قول برنارد شو فيلسوف العصر :
« لا تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » ، ووصيتها : « مازال جبريل يوصيني
بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » ، فأين من هذا قول برنارد شو : « لا تحب جارك
كما تحب نفسك ، فانك إن كنت سعيدا بنفسك فإن ذلك قحة ، وإن كنت على العكس
فإن ذلك ضرر .

اشتراكية ما أجل معناها . وأدق مغزاها ، وأعظم أهدافها وغاياتها .

ولقد آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، وحجز عمر على قريش أن
يهاجروا إلى الأراضى المفتوحة حرصا على امتلاكها حتى لا يضيقوا على عباد الله

فقال : ألا وإن قریشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عبادہ . ألا فأما
 وابن الخطاب حی فلا ، والا یثار وحض القرآن الکریم علیہ معروف : « ووثرون
 علی أنفسهم ولو کان بهم خصاصة ، ومن یوق شح نفسه فأوائک هم المفلحون ، وقد
 جعل الله تعالى فیہ الاغنیاء وحدهم فقال : « ما أفاء الله علی رسوله من أهل القرى فله وللرسول
 ولذی القربی والیتامی والمساکین وابن السبیل ، کی لا یکون دولة بین الاغنیاء منکم ،
 وما آتاکم الرسول فخذوه وما نهاکم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شدید العقاب . »
 کل هذا من مظاهر اشتراکیة الاسلام العادلة ، وشریعته السمحة البرة الرحیمة
 بالناس والفقراء والمجتمع ، ویقول الأستاذ الکبیر الشیخ محمد عبد اللطیف دراز
 من کلمة له : إن الإسلام مکن للحرية يوم غرس عقيدة التوحید فی القلوب ، ویوم
 علم المسلم أن لا یدل إلا الله ، وأن لا یستعین إلا بالله ، وأن لا یتوکل إلا علی الله
 وأن لا یشعر بجلال أو کبریاة إلا لصاحب الجلال الکبیر المتعال ، ویوم حارب
 کل تله کاذب الادعیاء ، الذین ظهروا فی تاریخ الانسانیة ، متألهین متجبرین ،
 وتبعهم الناس جاهلین ، أو مخدوعین : « إن کل من فی السموات والأرض إلا
 آتی الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وکلهم آتیه يوم القيامة فردا ، » ولقد
 کان صاحب الرسالة أکبر معلم للحرية الفکر يوم نادى فی عاصمة الوثنية
 بتوحید الله ویوم صبر علی الأذى فی سبیلہ ، وتحمل العنت لإیلاخ الرسالة ،
 وإزاحة العوائق من طریقها ، وهل كانت دجرتها إلا تقریراً للحرية العقيدة ؟ وهل
 كانت حروبه التي صجبت دعوته إلا دفاعاً عن حق من حقوق الانسانیة العالمیة ؟
 هو حق کل امریء أن یعتقد ما یطمئن الیه من آراء تتفق مع الفطرة السلیمة ، من
 أجل ذلك شرع القتال ، وقال القرآن الکریم : « وقالوهم حتی لا تكون فتنه ،
 ویکون الدین كله لله ، » والفتنة استخدام القوة فی مصادرة الآراء الصحیحة واضطهاد
 المبادئ السلیمة ، وكما أقام الاسلام بناء المجتمع علی الحرية الصحیحة ، جعل
 العدالة أساساً للشریعة لیطمئن إلی برها وسماحتها العدو والصديق ویصل إلی
 حقه فی ظلها القوی والضعیف ، ولقد شرحت فی موقف سابق ، کیف کان عامة
 الناس یقاضون الخلفاء أنفسهم أمام قضاة المسلمین ، فلا یستنکف الخلفاء أن
 یحضروا مجالس القضاء . ولا یترددون فی تنفيذ ما یلزمون به من حقوق .
 العدالة فی القرآن ، تتضامل أمامها روابط النسب مہمها قربت ، وفوارق الدین

« هما بعدت ، « كونوا قوامين بالقسط شهداء الله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، . « الذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، . فانظر كيف سادت العدالة منطق القرآن ، وجمعت للعمود حرمة لا تضعفها وحدة الدين . وقد كان النزاع يقع بين أهل الكتاب وحكام المسلمين ، فيقفون جميعاً في ساحة القضاء ، فلا تعلو إلا كلمة الحق ، وصوت الحجة . ولو كان في ذلك خذلان للمسلم الحاكم وانتصار للكتابي الضعيف . . والقرآن الكريم أول دستور أهدر التفاوت بين الطبقات ، وجعل اختلاف الألسنة والألوان مجرد آية من آيات الله في الخلق ، فليس هناك جنس أفضل من جنس ولا لون أكرم من لون .

وفي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : صهيب الرومي . وبلال الحبشي . وسلمان الفارسي ، وكان الرسول عليه السلام يقول « سلمان منا آل البيت » . نعم علم الإسلام أبناءه ، أن أصلهم واحد ، وأن الحقوق والواجبات موزعة بينهم على السواء ، وأن السوق والعطاء أمام تعاليم الدين ، وموازين الحساب ، وفي ميادين العمل ، لا يفضل أحد منهم أحداً إلا بالتقوى والخلق الكريم .

ومن أروع ما حفل به القرآن ، حفظ التوازن بين الطبقات تأكيداً للنظام الاجتماعي الذي يشد بناء الأمة شداً محكما ، فلا تساطت منه لبنة أو تحدث فيه ثغرة . فالتقى في نظر القرآن وظيفة اجتماعية ، وصاحب المال يحاسب على تصرفه فيه ، وتناط به حقوق الدولة أن تسأله عنها ، وقد فرض الله الزكاة وجعلها من أركان الإسلام : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وهناك حقوق لا تقل في خطرهما عن الزكاة ، وقد قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن في المال حقاً سوى الزكاة وأوضح القرآن الكريم هذا الحق مبيناً حقيقة البر ، وعناصر التقوى ، ودلائل صدق الإيمان ، فقال « وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفي الرقاب ، وأردف هذا بقوله : « وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة . » فإسعاف المنكوبين ، وإغاثة الملهوفين ، حق على من صадفهم في أزمته ولو كان قد أدى زكاة ماله ؛ وهذا من أنواع الماعون ، الذي جعل الله الويل لمانعيه ، واعتبرهم مكذبين بالدين « الذين هم براؤون ويمنعون الماعون » . وقد بين رسول الله صلوات

الله عليه أن إكرام الضيف المنقطع عن أهله وماله ، حق له على من نزل بهم ، وهذا الحكم من دعائم المروءة ، وروافد الخلق الفاضل في المجتمع ، وقد بلغت حساسية الإسلام المرفهة بأوجاع الناس وأحزانهم أن رصد من مال الزكاة ما تسد به ديون الغارمين العاجزين ، وذلك مالا نظير له في شرائع البشر . وإذا عم البلاد قحط جارف ، لم يبق لصاحب مال حق في الأفراد به ، بل تضيع الدولة يدها على الطعام ليستفيد منه الجميع على السواء . إن الأشعرين إذا أملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم في ثوب ثم اقتسموه بينهم بالسوية فهم مني وأنا منهم . حدثوني إذا بعد هذا الذي سمعتم ، ما هي الاشتراكية الحديثة التي ضمنتم للناس ما ضمن الإسلام من سماحة . . ولأنكم لتعلمون مما ذكرنا أن الحقوق التي قيدت بها الملكية ليست في نظر الإسلام هبة ، ولسكنها نظام مفروض يقاتل دونه الإسلام وعصمة الدماء والأموال مقرونة بأداء هذه الحقوق ، كما قررها عليه صلوات الله . آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . . من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وله أجر كريم .

الإسلام

يوجه العقل البشرى

دعا الإسلام العقل البشرى إلى حب المعرفة ، وغذى ضمير الإنسان بحب الخير والرحمة والبر والسعادة والرفاهية لبنى الإنسان جميعا ، ووجهه إلى ما فيه تقدم الإنسانية جمعاء .

دعا الإسلام إلى العلم ، لأنه منذ أقدم عصور التاريخ ولا يزال رافع منار المدنية ومشيد مجد الشعوب ، وغذاء العقول والأرواح ، والدواء الناجع لأمراض النفوس والجماعات ، إن حرصت على استخدامه فى سبل الخير ولتأيد نواهب الله فى السكون والحياة . . وهو الداء المبيد ، والسم القاتل ، إن استخدم أداة للفنك والدمار .

لا عجب فالعلم كاشف أسرار الحياة ، ومغلق السكون ، وأسباب الثروة ، وبه تسعد الإنسانية ، وببسم الأمل للناس . . وما هذه المبتكرات فى الصناعة والتجارة والزراعة والعلوم والفتن إلا ثمرة من ثمار العلم . . الذى قد يصبح وبالاً على الإنسانية والشعوب ، حين يكون وسيلة لاختراع المفرقات والمدافع ، وما لئليها بما يعم شره وهلاكه ولا يخص أحدا من الناس . ومهما كان فإن العلم اليوم - فوق استخدامه وسيلة لكسب الحرب وإشاعة التدمير والهلاك - يوفر الأدوات فى شتى مرافق الزراعة والصناعة والاقتصاد ، وهى تقوم مقام عدد كبير من العمال . . وبذلك يتسبب فى خلق مشكلة البطالة ، وحرمان كثير من العمال من الرزق .

والعلم على أى حال محدود لا يذم ، محبوب لا يكره ، لأنه خير فى ذاته ، وآثاره الخيرة الجميلة لا تعد ولا تحصى ، ولن ينقض من شأنه ما يقوم به العلماء من ابتكار آلات الشر والتدمير والإهلاك .

وإن الإسلام ليقف حارساً للعقل البشرى ، يوجهه ويهديه ، يوجهه إلى الخير ، ويبعده عن الشر ، ويدفعه إلى أن يفكر فى كل ما يعود على الإنسان والإنسانية بالسعادة والرفاهية ، ويحول بينه وبين أن يكون أداة لشقاء بنى الإنسان . إن النور

يضيء، فإذا انقلب نارا أحرق ودمر، وإن العقل يتسكر ويفكر، فإذا اندفع إلى
التفكير في الشر أم لك وأفسد، وإن الله هو صانع الحياة ولا يحب أن يدمرها الإنسان .
ولقد كان المسلمون في جميع العصور يخضعون العقل للضمير، ويوجهون العلم
للخير، ولنفع بني الإنسان، ولخدمة الجماهير، ولإسعاد البشر . . وكانت حروبهم
لا تعتمد على السلاح الغائب، ولكن على الإيمان العميق . . وبذلك لم يسعوا يوما في
التدمير والفساد في الأرض، بوازع من دينهم الكريم .

الإسلام

والمذاهب السياسية الحديثة

الإسلام دين اشتراكي عادل ، وهو أرفع من الاشتراكية الحديثة في مبادئه ونظمه وسلامة الاقتصاد فيه ، وما أصدق ما يقول شوقي في الرسول الكريم :
الاشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء
ولكن الإسلام يخالف الشيوعية ، وهو معها على طرفي نقيض ، يخالفها في مبادئها ونزعاتها وأهدافها كل الخلاف .

الشيوعية مبدأ اقتصادي ينزع إلى السيطرة على الشعوب ، والإسلام يكره السيطرة ويدعو إلى أخوة الأمم .
وهي فوق ذلك تحالف سنة الفطرة والاجتماع في مبادئها وغاياتها ، وذلك ما يأباه الإسلام ولا يحبه .

وهي تثير النزاع بين الناس والطبقات ، وتحرض الفقير على الغنى ، بل هي لصوعية مقنعة غريبة على العقل والمنطق والتفكير السليم .
والشيوعية الحديثة تركز على دعائيتين :

الأولى : هي محاربة الأديان ومن بينها الإسلام حرباً لا هوادة فيها : لأن الأديان عامة تنكر مبادئ الشيوعيين ، ولأن الشيوعية تدعو إلى الإلحاد وعدم الإيمان بدين من الأديان ، وإلى فصل الدين عن الدولة ، وإلى غرس أصول الأخلاق الشيوعية في نفوس الشبان لتصبح هذه الأصول وحدها دون ما سواها هي دين الفرد ، وليقتضوا بهذه الأصول على تراث الإنسان الروحي والفكري وعلى فطرته التي فطر عليها من حب التدين والإيمان بدين سماوي شرعه الله لعباده بل إن المادة الرابعة والعشرين بعد المائة من دستور ستالين تنص على حرية الدعوة اللادينية ، وقانون عام ١٩٢٩ الذي أصدرته حكومة روسيا يفرض قيوداً حاسمة على الهيئات الدينية ويعتبرها عملاً غير مشروع . وقوانين عام ١٩٣٩ تنص على :-

- ١ - ضرورة تسجيل الجمعيات والمنظمات الدينية .
- ٢ - منع الهيآت الدينية من تشكيل انفسها في جماعات تعاونية أو جماعية .
- ٣ - حظر الاجتماعات الدينية الخاصة ، واجتماعات المصلين ، واجتماعات الشباب والنساء والأطفال .

٤ - عدم السماح للهيئات الدينية بالاحتفاظ عندها بأى نوع من الكتب إلا ما يلزم في المراسيم الدينية .

٥ - حظر بناء أمكنة جديدة لممارسة الشعائر الدينية .
ولم تغب نوايا الشيوعيين عن بال الكنيسة الأرثوذكسية الروسية عند قيام الثورة الشيوعية ، فلقد دعا رئيسها البطريرك « تيكخون » في رسالة له بتاريخ ١٩ يناير ١٩١٨ « أبناء الكنيسة الى عدم الاشتراك بأى شكل من الأشكال مع هؤلاء المجرمين - يريد بهم الشيوعيين - أعداء الجنس الإنسانى » .

وقد اضطهدت روسيا المسلمين في تركستان وبخارى وسمرقند وفي كل مكان اضطهادا شديدا ؛ ونفت الكثير منهم إلى سيبيريا .

صحيح أن روسيا أعادت حرية المتدينين الدينية اليهم خلال الحرب الأخيرة وبعدها ، ولكن ذلك إنما كان ذرا للرماد ، وقضاء على دعايات الأمم الغربية ضدها وخوفا من أن يؤلب البابا القوى عليها ؛ وهى وإن أذنت للمسيحية في بلادها بالعودة إلى الظهور ، فإن الإسلام لا يزال غربا في بلادها المترامية الأطراف . ولا شك أن الإسلام يقف سدا متيعا أمام ذلك التيار الهدام المخرب الذى يريد أن يحطم كل شئ أمامه ؛ وأن يعصف بتراث الانسانية الروحية ، وبالمبادئ السامية التى قامت ونمت وازدهرت في ظلال روح التدين وفكرة الايمان العميقة في الانسان .

والدعامة الثانية التى تقوم عليها الشيوعية : هى محاربة الملكية الفردية ، والقضاء على حرية الانسان فى الملك ؛ مما يستدعى إشاعة الاضطراب الاجتماعى ، وقيام الحروب والخصومات بين الطبقات والطوائف ، والقضاء على الأمن الداخلى للأمة وكل هذه أمور يحرمها الإسلام ، ويحاربها بكل ما يستطيع ، والمسلمون كافة يؤمنون بمبادئ الإسلام السمحة الكريمة ، التى من أخصها حرية الإنسان فى الملك ، والتى لا تمنع أن يعيش الفقراء والأغنياء بجوار بعض إخوة متحابين .

يقول الله تعالى في سورة سبأ : « قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده
ويقدر له » ، ويقول عز وجل في سورة الروم : « أولم يروا أن الله يبسط الرزق
لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ، ويقول في سورة الاسراء :
« إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً » ، ويكرر ذلك
في سور كثيرة ، مما يجعل المسلم يؤمن إيماناً جازماً بأن ذلك أصل من أصول الاسلام
ولا شك أن في إطلاق حرية الملكية أمام الانسان تحريراً له من قيود الوصاية
الاجتماعية واعترافاً بشخصيته وكرامته الانسانية ، وإثارة لمواهبه الخاصة ليستغلها
في الحياة لكسب الرزق والمال من طرقهما الثريفة المشروعة وتمشياً مع نظام الحياة
نفسها ، وسموا بالحياة البشرية الخاصة والعامة . وقد دعا الاغنياء إلى البذل والصدقة
والإحسان ، وأداء الزكاة للفقير المحروم ، وجعلها من أركان الدين ، وذلك نظام
سليم يسير مع المنطق والفطرة والحياة وحرية الإنسان ، وبحقق العدالة الاجتماعية
بأسمى معانيها .

إن مبادئ الإسلام والقرآن تنفي عن كل مبدأ ، وترتفع بالانسان ، والانسانية
أكثر مما ترتفع بهما الشيوعية والشيوعيون إلى حد بعيد .

وما أصدق شاعرنا المعاصر الذي يقول :

قل للشيوعيين أو أمثالهم	رفقا بهذا الشرق في مأساته
فوضى المذاهب في بفيه تضارب	لا يستقيم به نظام حياته
عودوا إلى القرآن أعدل مذهبا	وخذوا الحقيقة من لسان دعائه
فأقل ما يدعو اليه سعادة	للعالم الملتاع من ويلاته
فضل الزكاة كفاية لفقيره	لو يسمع المثرى نداء زكاته

الإسلام

والنظم الاقتصادية الجائرة

الجشع الاقتصادي بكل مظاهره شيء لا يعرفه الإسلام ، ونظام الربا الذي أصبح متغلغلا في جميع فروع حياتنا نظام فاسد لا يليق بالإنسانية في القرن العشرين ، وجدير بالأمم أن تفكر فيه من جديد ، وأن تخطو خطوة حاسمة لانقاذ العالم من ويلاته .

والشركات التي تقوم على نظام الربا ، لا تبرز أموال الشعب ، شركات لا يقرها الإسلام الكريم .

إن روح الجماعة ، وتيسير سبل الحياة لكل إنسان ، هما ينبوع الذي تخرج منه كل الأفكار الاقتصادية السليمة في الإسلام .

وأساس النظرية الاقتصادية في الإسلام : اعط المال لغيرك ليهيء لنفسه الفرص الطيبة في الحياة ثم استرده منه .

وعلى هذا الأساس كانت شتى المعاملات الإسلامية الكريمة ، وما أجل ما يقول الله تعالى : وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .

الاسلام

والزكاة

في السنة الثانية من الهجرة فرضت شريعة الزكاة ، وهي جزء قليل يخرج من ماله الكثير ، فيجبر به المولوا كسيرة ، ويسد حاجة من ضعف عن القيام بحاجة نفسه ، ويرفه عن الفقراء والمحرومين ، ومقدار نسبتها في الغالب لا يزيد عن اثنين ونصف في المائة .

وما أجل قول الله تعالى : « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، وقوله في وصف المؤمنين : « والذين هم للزكاة فاعلون » ، وقوله « أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » ؟ إن في ذلك آيات لقوم يؤمنون . فأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ، وما آتيتهم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتهم من زكاة تريدون وجه الله فأنتكهم المضعفون . وقوله تعالى « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » : وفي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيض كثير من تأكيد شريعة الزكاة وتقريرها وإيجابها على الأغنياء للفقراء .

هذا الركن الكبير من أركان الاسلام ، هو رسول السلام ، وداعى المحبة والتعاون والعطف بين الناس ، والمقوى للروابط بين الأفراد والطبقات ، والمسئل لاحقاد النفوس وأضعافها . والمقرب بين القلوب : لتصير الأمة كتلة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . الزكاة أجل لإصلاح اجتماعى أنت به شريعة إلهية ، وأكبر دعوة إلى التعاطف والتساند والتماسك بين الناس ، وهي وما حجب فيه الإسلام من الصدقة والإحسان ، ورعاية الفقير ، وإكرام الجار ، وقرى الضيف وابن السبيل ، أعظم حل عملي لأعظم مشكلة عالمية استفحلت اليوم ، وهي الشيوعية ودعوة الشيوعيين .

ولما مات رسول الله صلوات الله عليه ، كانت القبائل العربية ، لا تزال بحمقة

وجاهليتها غاضبة نائمة على الإسلام وشريعته في الزكاة ، فارتد الكثير منهم عن الإسلام فصمم أبو بكر على محاربة هؤلاء المرتدين مهما كان ، وهو يقول : والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لما نلتهم عليه ، ونهض بنفسه لحرب المرتدين حتى أصابوا الدعوة الإسلام ، وأدوا لأبي بكر زكاة أموالهم التي كانوا يؤدونها لرسول الله .

واليوم تشدد مشكلة الفقر في مصر الإسلامية إلى درجة شديدة ، ويكثر في وسطنا الجائع والعاري ، والمحروم والسائل ، ونجد كثيراً من الناس يعيشون دون أن يكون لهم مورد من المال يعيشون عليه ولو كان قليلاً ، وكثيراً ما يغترش هؤلاء الفقراء الطرق ، وينامون ملتحفين السماء .

وتحاول الحكومة أن تحارب مشكلة الفقر بكل وسائلها ، ولكنها تخفق في هذه الحرب لأن المشكلة أشد خطراً مما تتصور ، ولأن وسائل العلاج الحكومي لا تعدى المظاهر والنقشور ولأن الفقير لا ينطق بلسانه أحد ولا يمثله إنسان ولا يستطيع أن يلج دور الحكومة ليطالب بحقه في الحياة .

ومسألة الضمان الاجتماعي لا تزال إلى الآن - رغم جدواها - في دور التنفيذ ، والمال المرصود لها قليل ، وهي لم تشمل الشعب كله ، وإنما شملت جهات منها ، الناس معذورون لأنهم لم يحسوا بعد بأثرها في علاج مشكلة الفقراء والمحرومين والبؤساء من الشعب ، والفقير لا يمكنه أن يصوم سنوات حتى تصل إليه مساعدة الحكومة ، وحتى تصل ، وعلى ظهر أية سلحفاة تسير ؟ .

وهيئة الأمم المتحدة ، ولجنة حقوق الإنسان فيها تؤلم ضميرها مشكلة الفقر في الشعوب الصغيرة ، فتعترف بحق كل إنسان في أن يعيش ، وأن تحفظ كرامته الإنسانية ، وأن يجد قوتاً كافياً ، وغذاء مناسباً له ولأولاده ، ومسكناً ملائماً وكساء موثقاً . أما في الشعوب الكبيرة فإن الدولة تهمل للفقير فيها كل أسباب الحياة والراحة .

رحمك الله يا عمر ، لقد سبقت العالم المتحضر إلى ما يعملون ، فقد كنت تصرف للفقير من بيت مال المسلمين طعامه وكساءه وغطاءه ، وكنت تحمل على ظهرك القوت لتذهب به إلى من تستطيع الذهاب إليه من الفقراء .

لماذا نسكت ونصمت أمام مشكلة الفقر في مصر . أيتها الحكومة الإسلامية الجميلة ، لم لا تكونين جريئة على إصلاح ؟ ، لم لا تجربين وسائل الشرع لإلحى

في علاج مشكلات المجتمع ؟ لم لا تفرضين الزكاة فرضا ، وتأخذينها بقوة القانون من الأغنياء للفقراء .

إن منظر الفقراء ليروع كل قلب وكل ضمير ووجدان وعاطفة ، في كل مكان في مصر . وإن أغنياءنا - عفا الله عنهم - يبذلون المال بسخاء في أوروبا وفي نوادي القمار والسباق وحفلات الرقص ، وعلى تربية كلابهم وفي شراء السيارات الفخمة والقصور الأنيقة ، والضياع الواسعة ، ولكنهم يضمنون على الفقير ضنا شديدا لا يبالون أن يشبعوا وجاهم جائع ، وأن يحيا حياة الترف وفي الأمة كثير من المحرومين من كل أسباب الحياة .

إننا نطالب الحكومة بأن تفرض الزكاة فرضا ، وأن تجمعها من الأغنياء بقوة القانون ، وأن تصرفها في مصارفها التي أمر الله ورسوله محمد صلوات الله عليه .

يقول الأستاذ الكبير الشيخ حسنين محمد مخلوف : الزكاة ركن كبير من أركان الإسلام ، فيه علاج حاسم لأمراض المجتمع ، وتقريب كبير بين طبقات الأمة ، وتعاون مشمر بين الأغنياء والفقراء ، ورفع لمستوى الأمة الاجتماعية ، ودواء لآلام مشكلة من مشكلاتنا العامة ، ألا وهي الفقر .

وإخراج الزكاة وتقديرها موكولان إلى ضمير المسلمين ودينهم وهم مسئولون عن ذلك أمام الله وأمام المجتمع والناس ... ولما كنا أصبحنا الآن في زمن مادي يتحلل من شريعة الله ، ويهوى أوامر الله ، ويجد الزكاة مغرما ، بعد أن كان أسلافنا الأولون يعدونها مغما كبيرا ، لما فيها من كسب رضا الله وثوابه ومضاعفة الأجر عليها ، ولما فيها مع ذلك من حيازة رضا الملائكة والناس ودعوات الفقير واليتيم والمسكين ، ولما فيها من قضاء على الإجرام والنهب والسرقة والاعتداء على أموال الأغنياء ، وصدق الله العظيم حين يقول : وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ،

وجباية الزكاة فرض على المستواين والحكومة اليوم ، بعد أن أصبح أغنياءنا لا يعبأون بهذا الركن الخطير من أركان الإسلام ، وللحكومة في أبي بكر الصديق رضي الله عنه أسوة حسنة حين حارب الذين منعوا الزكاة حتى أقاموا إلى دين الله وشريعته ، وأدوها كما كانوا يؤدونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكننا لا نوافق بأية حال ، على أن تأخذ الحكومة أموال الزكاة فتضيفها

إلى الإبراد العام للدولة ، لأن ذلك سيحول حتما دون وصولها إلى مستحقيها من
الفقراء والمساكين ، ويترتب على ذلك أن تصرف في ترقية الممثل ، وتشجيع الفن
وفي إقامة الحفلات الساهرة ، وأن تدخل في أموال الدعاية التي تعطى لأبواق كل
حكومة ، أو في المصاريف السرية التي تنفق بسخاء في كل وجه ، وأن تصرف على
غير المسلمين من رعايا الدولة ، مع أن الزكاة لا يجوز باتفاق صرفها إلا للمسلم . . ولا
نوافق على أن تضاف إلى إيراد وزارة الأوقاف أو الشؤون الاجتماعية ، لأن ذلك
سيحول حتما دون وصولها للمعقرات ، وسيأخذها المحسوبون والمحظوظون ولو كانوا
أغنياء ، فضلا عن أن الإدارات التي ستشرف على أموال الزكاة ، وما يستتبع
إنشاءها من درجات وموظمين ورؤساء ، ستستنفد الجزء الأكبر من هذه الأموال .
إنما نرى أن تؤلف لجان في كل قرية ومدينة بقرار وزاري ، من أعيان المسلمين
ومن العلماء في هذه الجهات . . وتتحرى هذه اللجان الحق والصدق في عملها ،
وتشرف على جمع الزكاة بشئ أنواعها من الأغنياء ، وعلى صرفها على مستحقيها من
فقراء المسلمين ، على أن لا يخرج زكاة قرية أو مدينة منها ، بل تصرف فيها على فقرائها ،
وتسكون هذه اللجان مسؤولة عن أعمالها أمام القانون والحكومة .

وبهذا نصمن تحقيق غرضين شريفيين :

الأول : التحقق من أن كل غنى دفع الزكاة الواجبة عليه كاملة غير منقوصة .

والثاني : التأكد من وصول الزكاة إلى مستحقيها من الفقراء والمساكين .

الإسلام يحارب الفقر

يحارب الإسلام عدوا لدودا للإنسانية كافة ، هذا العدو هو الفقر ، الذي كثيراً ما يكون سببه سوء توزيع الثروة بين الناس ، أو الجهل باستنباط الثروة واستغلالها ، أو جذب الأرض وقلة خيراتها .

ولقد نظر محمد صلوات الله عليه إلى مشكلة الفقر باهتمام شديد ، وسعى بنجاح تام إلى القضاء على هذه المشكلة ، بعقل المشرع وحكمة المصالح وإمام الرسول ، مع صعوبة التغلب على الفقر في بيئته كبيشة الصحراء ، وفي مجتمع لا يعرف إلا العصبية والفروق الظالمة بين طبقات الأغنياء والفقراء .

كان الناس ينظرون إلى المال على أنه هو الوسيلة لحياة الرفاهية والترف ، ولاستعباد الفقراء ، وتسخير الضعفاء ، فحارب محمد صلوات الله عليه هذه الفكرة الخاطئة ، وأعلن أن المال إنما هو سبب لعمل الخير والبر والرحمة والمعروف ، ومواساة المنكوب وإغاثة الملهوف ، وإطعام الجائع وكسوة العاري وإسعاد الناس ، وودعة الله في أيدي الأغنياء ، ومال الله استخلفهم عليه ، وجعل من سننه الإيسار المذهب في الحياة لا يثار لا الأثرة ، والإسطاء لا الأخذ ، والقناعة والرضا والشكر ، لا الجشع والطمع والسخط والجحود .

وكان الأغنياء لا يعرفون في المال حقوق الله والفقراء والمساكين ، فطال بهم محمد صلوات الله عليه بما طال بهم به التمرار الكريم في قول الله تعالى : فأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير مما ينريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون ، ونهاهم عن البخل والإسكاف والشح والتقتير ، فقال صلوات الله عليه : إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ، وقال الله تعالى : ومن بوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، ومدح المؤمنين الذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، وفرض حق الضيف وابن السبيل ، وجعل صلوات الله عليه البر واجبا ، والإحسان فريضة ، والصدقة شريعة اجتماعية ، والزكاة أمراً محتوما لمصلحة المجتمع كله . ونظم الوحدة الاجتماعية بين الناس ، وجعل أساسها

الأسرة ، وفرض على الرجل حقوقاً يؤديها من ماله لأسرته وأقاربه وأهله ، وطالبه بأن يعي أبناءه حق الرعاية ، ويوفر لهم بعمله وجده وسائل الحياة الكريمة .
وحدث على القناعة والاقتصاد ، فقال صلوات الله عليه : « طوبى لمن قنع بالإسلام
وكان عيشه كفافاً وقنع به » وقال : « ما عان من اقتصد » .

وشرع الله أنبياه الكرم شرع الزكاة والصدقات ، فدعا إليها الرسول صلوات
الله عليه وحض عليها ونادى بها ، وسن كذلك نشرعات العمل والإجارة والمزارعة
والوصية والهبة والوقف والرهن والوديعة والقرض وعقود الشركات والمضاربة
وسواها . لكي تتداول الأيدي المال ، ويعمل فيه الفقراء والأغنياء قصداً للريح
والكسب الحلال ، ومن ثم حرم الإسلام ورسوله الكريم الربا والاحتكار والاستغلال
وأكل أموال الناس بالباطل ، وقرر محمد صلوات الله عليه حرمة المال فقال :
« كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » ردعاً إلى اكتساب الأموال من
طرقها المشروعة فقال : « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله
النار » . وعمل على حفظ كرامة الفقراء ، ففضل صدقة السر ، وحض على ترك المن
والأذى ، وكره السؤال وحرمة عن غير حاجة ، وجعل اليد العليا خيراً من اليد السفلى ،
وحبس محمد صلوات الله عليه الأموال - التي تؤخذ من الفداء ، والخراج ، والجزية
والغنائم والعشر والركاز وسواها على مصالح الفقراء والتمكين لهم في الحياة والمعيشة
وحرر رقيق الأرض من العبودية ، وطالب باحترام حقوق الرقيق الذي أسر في
حرب مشروعة ، وبالعامل على تحريره ، كما حرر العامل والخادم والمرأة من القيود
والأغلال .

ودعا إلى توزيع الثروة توزيعاً عادلاً بإخائه بين الأنصار والمهاجرين وبما فرض من
حقوق مشروعة للفقراء في أموال الأغنياء ، وبدعوته إلى العمل وحضه عليه حتى
يأخذ الفقير حظه الكامل في الحياة مع رور الأيام وبتمسيمه العادل الميراث بين أولى
الأرحام ، وبغير ذلك من أسباب التمكين للفقير والمسكين والمحروم ، ونهى عن كنز
المال دون أداء حقوقه وكره الاستكثار منه والتكالب على جمعه . حتى قال رسول الله
صلوات الله عليه لبلال : « ألق الله فقيراً ولا تلقه غنياً » .

وحدث على الجود والبذل والسخاء ، وكان صلوات الله عليه كما وصفه على : أجود
الناس كفاً ، وكما وصف في حديث البخاري « فرسول الله أجود بالخير من الريح
المرسلة » وتقول عائشة رضي الله عنها : ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى

ورفاق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا . ودعا الناس إلى التعاون على دفع الضر عن الفقراء فقال : « أيما أدل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى ، ونهى عن المحاباة في كل شئ . حتى في اختيار الموظف ، فقال صلوات الله عليه : « من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمرهم أحداً بمحابة فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله النار . كما نهى عن الخيانة في الأموال العامة فقال : « من استعملناه على عمل ورزقناه فما أخذ بعد ذلك فهو غلول ، أى خيانة . »

ولقد حبيب محمد صلوات الله عليه الناس في الكسب الحلال المشروع ، ودعاهم إلى استنباط المجهول من وسائل الثروات ، وقال لهم : أنتم أعلم بشئون دنياكم . وجعل بيت المال في خدمة الناس ، والفقير من بينهم خاصة ، ولم يكن لرسول الله بيت مال يضع فيه الأموال ، وإنما كان يضعها في بيته وبيوت أصحابه ، وكان الزبير بن العوام وجهم بن الصلت يكتبان له أموال الصدقات ، ومعيقب بن أبي فاطمة وكعب بن عمر يكتبان المغاتم ، وكان حذيفة بن اليمان يكتب لرسول الله صلوات الله عليه خرص ثمر الحجاز . وكان يتخير ولاته وعماله ويقتصد في رزقهم ، فاستعمل عتاب بن سید الاموى واليا على مكة وجعل رزقه كل يوم درهما ، وصالح صلوات الله عليه أهل فدك على نصف ثمارهم وصرفها على الفقراء ، وكان بعمله الشريف ودعوته الكريمة يقوى بذور الرحمة والخير والتعاون والمودة والإحاء بين الناس ، حتى يستطيع المسلمون التغلب على آثار الجذب الذى كان غالباً على جزيرة العرب .

وقد دعا صلوات الله عليه إلى اصطناع الأيادى عند الفقراء ، : « أكثروا من معرفة الفقراء ، واتخذوا عندهم الأيادى ، فإن لهم دولة ، قالوا : يا رسول الله ، وما دولتهم ؟ قال : إذا كان يوم القيامة قيل لهم : انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً ، فخذوا بيده ثم افضوا به إلى الجنة ، وجعل الرسول الأكرم في كل معروف وكل عمل صدقة فقال : « كل معروف صدقة ، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقة ، وما وفى الرجل به عرضه فهو له صدقة ، والدال على الخير كفاعله ، والله يحب لإغاثة اللئمان ، ورفع من منزله الفقراء ، ولم يجعل المال أساساً للحكم على الأشخاص .

ولقد قرر محمد صلوات الله عليه حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة ، وحارب الرق والاستعباد والاستغلال والفوارق الاجتماعية الظالمة بين الناس ، ورفع من

الفقراء والمستضعفين ذوي الكفايات والمواهب حتى بلغوا أعلى المنازل في الدولة الإسلامية ، مما قلب الأوضاع في توزيع الثروات بين الناس وإنصاف الفقراء ، وفتح باب الأمل الواسع على مصراعيه أمامهم يدخلونه بقوة وعزم وكرامة وتفاؤل بالحياة .

وهكذا كان محمد صلوات الله عليه ، الإنسانية في أروع صورها ، والمثل الأعلى في أجد مظاهره ، والقائد المظفر الذي هدى الحياة وأخرجها من الخوف والقلق والفوضى ، إلى الأمن والهدوء والاستقرار . وكانت حياته كلها كفاحاً مجيداً في سبيل الله والحق والمعروف ، رتقير حريات الفقراء وكرامتهم ، وكانت جهاداً صادقا وجهته الخير وإسعاد الناس ، ومن أجل ذلك توج هذا الجهاد بالنصر ، وهزت ذكرياته مشاعر الناس ، والجماعات والشعوب في كل مكان وجيل ، ولا تزال هذه الذكريات حديث الدنيا ، ونشيد الحياة ، وفرقان البشرية الظالمة إلى نبع هذا الوحي المقدس ، والناموس السماوي الحكيم .

لقد استطاع رسول الله صلوات الله عليه أن يجعل الفقراء والأغنياء إخواناً متحابين متعاونين . وأن يقيم في المجتمع الإسلامي اشتراكية عادلة تؤمن بالمبادئ الروحية والمثل العليا ، وتجمعها أساساً من أسس الاقتصاد التعاوني الجماعي في الدولة الإسلامية الناشئة ، واستطاع بما بذره من بذور الخير في الأرض أن يقضي على الفرفة والخصومة والجريمة والثورة ، والاضطراب والقلق بين الطبقات . . وكانت ثورة محمد الكبرى من أهدافها تحرير الإنسان من الفقر والعوز والحاجة والخوف ، وكفالة حريته وحقه في الحياة الهائنة السكرية وهدم كل الصروح التي أقيمت طمأناً وبهتاناً بأيدي الأقطاعية والإقطاعيين الجائرين .

ولا تزال هذه المبادئ السكرية ينطق بها كتاب الله وسنة رسوله ، ويقوم عليها تراثنا الروحي الخالد ، الذي يعد مفخرة من مفاخر البشرية ، في نهضتها وتوئبها إلى الكرامة والحريية .

الإحسان

في شريعة الإسلام

الإحسان بمعناه العام : إتقان الشيء وتجويده ، فإذا أشعرت قلبك بالإيمان العميق فقد أحسنت ، وفي ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه . الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وإذا جودت في عملك وأنقسته فقد أحسنت ، وفي المأثور : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يحسنه ، وإذا أجدت القول وبلغت فيه الصواب فقد أحسنت . ولذلك تسمع كثيراً من الناس يقولون لمن يحسن في مقاله أو قراءته : أحسنت ، وإذا صنعت خيراً بالوالدين أو بالناس فأنت محسن ، قال تعالى وبالوالدين إحساناً . . . والإحسان بمعناه الخاص . هو التوسع في عمل الخير ، وفي البر بالناس ، والعطف على الفقير والمحروم والسائل والمسكين والإكثار من الصدقات ، وصلة الأرحام ، ومواساة المنكوبين ، ومسح دموع المحزونين ، وحمل الكل ، وقرى الضيف . والإحسان بهذا المعنى مظهر نبيل للعواطف الإنسانية المهذبة ، وغاية كريمة اجتمعت الشرائع والأديان على تقريرها ، والتثويه بسمو خطرها ، وبلوغ أثرها .

وهو صورة رائعة لكثير من المشاعر الإنسانية السامية والأخلاق البشرية الكريمة ، من حنان ومروءة تملأ جوانب الصدور ، ومن إيمان وثقة ويقين تهتز بروعتها الأفئدة ، ومن بذل وتضحية وإيثار اشربت حبها القلوب ، حتى أصبحت لها عقيدة مع العقيدة ، وغاية تسمو على كل غاية .

والإحسان في نظر الإسلام أرل لبنة في صرح سعادة المجتمع ، وعظمة الأمة ، ولذلك بالغ الله عز وجل في العناية به والحث عليه ، وجعله ركناً من أركان الدين وقرنه بعبادته وتقواه ، كما قرنه بالإيمان والصلاة ، وجعل للمحسنين الثواب العظيم والجزاء الكبير والأجر الكريم ، وأخبر بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأنهم في عون الله ورعايته ، « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » . . . ولم يشأ الله عز وجل أن تذلل بالإحسان نفوس الفقراء والمساكين ، فجعله حق الفقير والمسكين ، « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون

وجه الله وأرسلتكم المفلحون ، وجعله فرضا يؤدي إلى صاحبه في الآخرة، مغفرة من الله ورضوانا، فقال : « فاتقوا الله ما استطعتم، واسمعوا وأطيعوا، وأنفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأرسلتكم هم المفلحون » ، « إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ، ويغفر لكم ، والله شكور حليم .. »

ثم صور الذكر الحكيم مدى الفجيعة الفادحة التي تحقق بمن أوقى كتابه بشماله يوم الدين ، وبين أسبابها فقال « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » وحسبكم هذه الآية الجامعة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان .. »

الإحسان فوق أنه عاطفة إنسانية سامية ، وغاية دينية رفيعة ، هو أظلم أساس تبني عليه الأمة صرح الفتى ووحدتها ومجدها ، وأكرم سبيل يسير فيه المجتمع الصالح إلى آماله المنشودة ، وغاياته المرجاة .

وعبر التاريخ أصدق شاهد على أن الأمة التي لا يواسى أغنياؤها الفقراء فيها ، ولا يشارك سراتها بمالهم وعظمتهم من فكبتهم الأيام ، وعصفت بهم الأحداث والخطرب من أبنائها ، لمى أمة تسير بخطوات بعيدة نحو النهاية المروعة ، والخاتمة المحتومة .

ذلكم أن المجتمع لا يصلح حاله ، ولا تبرأ أسقامه ، إلا متى كان روحا واحدة وصفا مرصوفا يسير إلى غاياته العظيمة ، مجاهدا في سبيل تحقيق ما يطمح إليه من آمال .

وليس من سبيل لدعم هذه الروح فيه ، مع الفروق الجسيمة الهائلة في المباشرة والحياة ، ومع انصراف المرشرين عن شؤون الفقراء ، وتناسيهم حقوق المنكوبين ، ومع حياة الفقير البائسة الداجية ، التي يرى فيها بعينه حياة الفنى المترفة المرحية ، ثم لا يرى في أفقه قبسا من أمل ، ولا شعاعا من رحمة أو حنان .

إنما السبيل لعلاج جميع مشكلات المجتمع هو الإحسان ، ثم الإحسان ، ثم الإحسان .

فيه تزول الفروق الاجتماعية ، وتهدأ الاحتماد المتوثبة ، وتسكن الثورات المستعرة ويعيش الشعب وجميع طبقاته بنعمة الله إخوانا .

وبجتمعنا حديث عهد بالإصلاح الاجتماعى ، ومشاكل الحياة الاجتماعية أمامه معقدة متشابكة ، ووسائل المعيشة قليلة ضئيلة ، ومرافق الثروة الاقتصادية ما يزال

بعضها في أيد أجنبية ، وبعضها بكر لم تمسه يد الإصلاح ، ولم تفكر في استغلاله
عقربات قادرة أو أيد نشطة ، وذلك سر ما نلسه في كل مكان من مظاهر الفاقة
والشقاء والبؤس والعناء ، ومن شتى الآلام الاجتماعية المزعجة .

فهذا المجتمع أشد المجتمعات فقرا إلى الإحسان ، وأكثرها حاجة إلى البر والإيثار
وأمرها إلى عناية جميع الموسرين — بمن تقلهم أرض مصر وتظلمهم سماؤها — بشئون
الفقراء والبائسين والمساكين .

وهذه هي الغاية البارة ، والماعظة الكريمة ، التي تدفع إلى التضحية بالمال وبكل
غال عزيز ، في سبيل الترفيه عن الفقراء والعطف عليهم ، وإحياء روح الأمل في
صدورهم ، وبعث معاني السلام والسعادة في نفوسهم .

أيها الناس : يجب أن تتناسوا كل شيء . إلا الفقير ، وأن تطرحوا وراءكم ظهريا
كل غاية إلا الغاية السامية التي تعمل للنهوض بالامة .

اذكروا أن وراءكم فقراء ومنكوبين : من عامل أفقده المرض القدرة على الكفاح ،
ومن يتامى لا يسعى لخيرهم أحد ، ومن كهول أرهقهم الكبر من أمرهم عسرا ، ومن
أسر ذهب الموت بعائلها العزيز ، ومن منكوبين تجتثم الأيام فأمسوا لا يملكون
قتيلا ، ولا يجدون إلى الحياة سبيلا . اذكروا هؤلاء جميعا ، فانهم يعلقون عليكم
آمالهم ، وينتظرون ملائكة الرحمة لتمد إليهم يد الخئنان والمواساة ، فتبث في نفوسهم
الأمل ، وتذيقهم برد السلام والسعادة .

فاعملوا ، واعملوا في سبيل هؤلاء ، وحسبكم أن ترضوا بهذا الجهاد نفوسكم
وطنكم ودينكم ، وأن تفوزوا برضاء الله . وأن يكون لكم بذلك أوفر حظ من
نعيم الدنيا وثواب الآخرة .

الإسلام

يدعو إلى العلم والتهديب

والإسلام يدعو إلى العلم والتعلم بكل وسيلة يستطيعها الإنسان ، ويحض العقل على التأمل والتفكير ، ويفرض على العالم إرشاد الجاهل ، وهو بحق دين العلم والمدنية والعرفان ، . وقد صحبت الثقافة الإسلام في كل مكان . وكانت العواصم الإسلامية الكبرى تموج بالعلم والعلماء ، ومنها انبعث نور المعرفة إلى أقاصى الدنيا ، وكان الخلفاء والأمراء والملوك يشجعون العلماء والأدباء ورجال التربية والثقافة والفن تشجيعاً مستمراً .

كل هذه حقائق لا يستطيع أن يتنكر فيها إنسان .
أما التربية الإسلامية الصحيحة ، فهي مفروضة ، فعلى الآباء تربية أبنائهم وإرشادهم في المنزل والمسجد وفي المدرسة ، وفي مجالس العلم والعلماء . وعلى الحكومة أن تتيح الفرصة لكل إنسان أن يتعلم ، وأن يصل إلى أقصى درجة من المعرفة .
وأساس التربية تنبيه الضمير ، وتقويم الوجدان ، وتهذيب السلوك ، وتنمية الإدراك ، وعلى المعلم أن يكون قدوة للتعليم في آدابه وأخلاقه وسلوكه .
ولا فرق بين المرأة والرجل والفتاة والفتى في مجال التربية والثقافة : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، وكان النساء يحضرن مجالس رسول الله ويسمعن إرشاده وتوجيهه ، وكانت عائشة أم المؤمنين تفتي الناس ، وفيها قال رسول الله : « خذوا نصف دينكم عن هذه الخمر » .

كما أنه لم يكن هناك فرق بين العناصر ، والألوان والأجناس في هذا المجال : مجال التربية والتعليم والثقافة ، وكان كثير من أعلام العلماء في الأمة الإسلامية من أصول وعناصر غير عربية . . فأين هذا مما يحدث الآن في أمريكا من حرمان الزنوج السود من مساواتهم بغيرهم حتى في ميدان الثقافة . ولملك قرأت قصة الطالب الزنجي « پرس لی جوانان » الذي كان متفوقاً طول حياته في دراساته حتى نال درجة أستاذ في الكيمياء ، فرفضت جامعة هارفرد أن تعينه فيها معيداً ، بحجة أن الجامعة تخشى أن يأبى البيض أن يقبلوه معلماً لهم .

إن الإسلام الذي حرر العقل البشري من كل قيد ، هو الذي حرر الشفاعة
وميدان التربية من كل الأغلال القديمة والحديثة على السواء .
وأساس التربية الإسلامية لإنسان محض : إشعار الإنسان بأنه مسئول عن
الإنسانية جميعها ... اقرأوا إن شئتم قوله صلوات الله عليه : « ما من مسلم يفرس
غرسا ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة
أو قوله : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ؛ أو قوله : « إن الله تعالى
كتب الإحسان على كل شيء » ، أو قوله : « إذا قتلتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم
شفرته ، وليرح ذبيحته » ، أو قوله : « دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي
أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » أو قوله لأعرابي أجهد بعيره
فلما كل من العمل أراد أن ينحره : « إن بعيرك يشكوك ، أكلت شبابه حتى إذا كبر
تريد أن تنحره » . . فستجدون الصانع الإنساني واضحاً كل الوضوح في كل كلمة وكل
عمل وكل مبدأ وكل تشريع في الإسلام عامة ، وفي التربية الإسلامية خاصة .
يبني « أمانول كانت » مذهبه في الأخلاق على أن حسن النية هو الأساس الأول
في الأخلاق . . وأعلمكم أتذكرون قول الرسول الأعظم : « إنما الأعمال بالنيات
وإنما لكل أمرىء ما نوى » ، وتعلمون أن محمد بن عبد الله سبق الفلاسفة كما سبق
المشرعين والمفكرين إلى كثير من النظريات العامة في الأخلاق والاجتماع والتربية .

البَابُ الْخَامِسُ

الإسلام وحقوق الإنسان

هقوق الانسان

في الاسلام

تمهيد

رسمت الإنسانية في أغلال ظالمة من الاستعباد ، خلال الحضارات القديمة التي غمرت موجتها العاتية الحياة البشرية ، قبل أن تسطع شمس الإسلام المشرقة ، ويذشق نوره ، وتشابهت جميع الحضارات التي استظلت بها الإنسانية في ذلك العهد السحيق ، في أفكارها ومبادئها وغاياتها ، فقامت جميعا على أسس الطفيلان والديكتاتورية والروح المادى البعيد عن السمو الإنسانى المنشود ، وكانت غاياتها المشتركة بحقد الأشخاص لا بحقد الشعوب ، ورفاهية فرد وإن شقيت به أمة ، وكان كل ما تطمح إليه وتفكر فيه ، استعباد الناس وتسخيرهم ، في سبيل تحقيق ما يصير إليه الحاكمون من عظمة وكبرياء ، وما ينشرونه من روعة المجد ومظاهر الساطان ، وجمدت جميع هذه الحضارات حقوق الأفراد وحررياتهم ، وناوأت حياة الديمقراطية وحرريات الشعوب ، وتنكرت لكل ما تقدسه الإنسانية المهيبة من عدل وإخاء ومساواة ، ثم خلعت على هذا الاستبداد الجائر صورا مزيفة من القداسة والحق الإلهى المزعوم وأن الحاكم يتلقى الحكم هبة من السماء ونفحة من العناية الإلهية : وليس للشعوب حق لديه ، ولا شخصية في رأيه ، وما هم إلا عبيد مستخرون ، فسكن لهذا الطفيلان الثرون ، وآمن به الحائرون ، وصار عقيدة مع العقيدة ، وسورة من كتاب البشرية المضللة البؤسة .

وبزغ النور الإلهى في أفق الحياة البشرية بين هذه الظلمات القائمة فترات قصيرة ، ليبدد ظلام الاستعباد السياسى والرق الفكرى والطفيلان الاجتماعى ، بيد أنه لم ينفذ إلى أعماقها ، ولم يتغلغل في طواياها ، واجتمعت شياطين الضلالة وأعداء الإنسانية على أن يحولوا بينه وبين قلوب الناس وعقولهم ، فلم يرن إليه بصر ، ولم يخفق به فؤاد ، ولم ترفع له الشعوب رأسا .

وعلى حين غفلة نزل الوحي إلى الأرض من جديد ، يبلغ الرسالة ، ويذفق في روع محمد وأصحابه روح القوة والبطولة ، ويدعوهم إلى التضحية والجهاد ،

لتحرير الإنسانية من أغلالها ، والسمو بها إلى حياة الحرية والديموقراطية والسلام ،
فأخذ محمد وأصحابه يدعون للدين الجديد ، ويبشرون الناس بحياة بشرية أخرى ،
ويضمون أساس الحياة الإنسانية الجديدة .

دعا محمد صلوات الله عليه إلى وحدة الإنسانية ؛ أممها وجماعاتها ، وإلى محو جميع
الفروق الطائفية والعنصرية الظالمة ، التي فرقت بين الإنسان والإنسان ، وبين الجماعة
والجماعة ، وبين الأمة والأمة ، وإلى المساواة التامة بين الأفراد والجماعات ، وأهدر
جميع الموازين التي ألف الناس تقدير قيم الأشخاص على أساسها ، من الحساب والجاه
والمال ، إلا ميزانا واحدا هو ميزان الكفاءة الشخصية والعمل الصالح والخلق
الكريم . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكروا أنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا
إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ، ويقول الرسول الكريم : يا أيها
الناس إنما المؤمنون إخوة وربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لأدم وآدم من تراب
ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأنكر
عليه زعماء قريش هذا المبدأ الكريم ، قالوا كيف نجلس إليك يا محمد وأنت تجلس
إلى مثل بلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وعمار ، وسواهم من العبيد
وعامة الناس ؟ اطردهم ونحن نحضر مجلسك ونسمع دعوتك ، فأبى رسول الله صلوات
الله عليه . فقالوا : فاجعل لنا يوما ولهم يوما ، فسكاد أن يجيب رغبتهم ، فنزل
عليه الوحي من السماء يرتل في أذنه هذه الآيات السكرية : ولا تطرد
الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ،
فقطر دم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله
عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل
سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة .

كفّل الإسلام حريات الأفراد والجماعات ، وناوأ الاستعباد البشري في جميع
صوره وشتى مظاهره . حتى قال عمر فيما بعد لأحد ولاته وقد اعتدى على رجل من
الرعية : وكيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، إفرج الإسلام
العبيد المسترقين ، إلا من كان مأسورا في حرب شنها أعداء الإسلام ، ليطلقوا بها
نور الله ، ووضع الحدود لمعاملة هؤلاء الأرقاء ودعا إلى تحريرهم من رق العبودية ،
كما أحرر المرأة من عبودية الرجل ، وحرر المجتمع من ديكتاتورية الزعماء والطفة ،
وحرر الشعب من جور الرأسماليين المستبدين ، فأحل البيع وحرم الربا ، ودعا

الى اسمى المعاملات وأنبلها .

وكانت أول كلمة في دين لإسلام هي الدعوة الى وحدة العقيدة ، والابشرك الناس بالله شيئاً ، وبذلك رفع كرامة الإنسانية ، من أن تتمتع بالوجود لغير الخالق العظيم ، ورفع كرامة الناس من أن يذلوا للطغيان السياسى ، الذى يسبغ عليه أصحابه لونا زاهيا من القداسة لك وتأيد العناية الإلهية ، وقل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شئ . ؟ ،

ودعا إلى السلام المشترك فقال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » .

ووضع أساس الديمقراطية السامية ، ومبدأ الشورى الكريم ، « أنشد جاكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ، « إن الله يرضى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم . وقرر مبدأ النصيحة لأولى الأمر : « الدين النصيحة ، لله ولرسوله ولأولى الأمر » ، والأطاعة للخلق في معصية الخالق « لا طاعة للخلق في معصية الخالق » .

وأخذ رسول الله صلوات الله عليه ينظم في تؤدة وتدرج حياة الفرد والأسرة ، وشئون المجتمع والامة ، على اسمى وجه تنشده الإنسانية ، ويصبو اليه المصلحون ودعى الناس إلى غاية مشتركة هي العمل على سعادة الإنسانية ورفاهيتها وتقديمها ، والتسكين لحياة التعاون والديمقراطية بين الناس والجماعات والامم ، وسار على نهجه الكريم خلفاؤه الراشدون ، فكانوا المثل الأعلى لملوك الديمقراطيين والحكام العادلين .

وبذلك استعاد الفرد كرامته ، والمجتمع سعادته ، والشعب حريته ، والإنسانية طمأنينتها ، وعاش الجميع بنعمة الله إخوانا .

أليست الديمقراطية هي المساواة التامة بين الناس ، وتهيئة الفرص للرقى أمام كل فرد ، ونشر العدالة الاجتماعية بين الأفراد والطبقات ، وكفالة حريات الناس جميعا ، واشتراك الفرد في شئون المجتمع والامة ؛ يديرها ويسوسها ويسير بها لمصلحة الجميع حتى يتعاون الخاكمون والمحكومون جميعا في سبيل الخير العام ؛ والمصلحة المشتركة ؟

ثم أو لم يقرر الإسلام هذه المبادئ جميعاً قبل أن تقررها الحضارات الأوروبية الحديثة بأربعة عشر قرناً من الزمان ؟

إنها لعقيدة جديدة وثورة إنسانية عامة ، ودعوة لتسكين الديمقراطية في الأرض بين الناس ، وما أروعها من عقيدة وما أعظمها من ثورة على الطغيان والاستعباد ، وما أجملها من دعوة رفعت رأس البشرية إلى السماء .

وبعد جهاد رائع حافل بآيات البطولة والتضحية كتب الظفر والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فألقى حماة الوثنية والطغيان في جزيرة العرب سلاحهم بين يدي محمد صلوات الله عليه ، كما ألقى حملتها في فارس والشام ومصر السلاح في عهد أبي بكر والفاروق عمر بن الخطاب ، وذهبت العقيدة الإسلامية ، وحياة الديمقراطية البشرية الجديدة ، في أرجاء المشرق والمغرب ، بشيرا بخير العالم ومساعدة الشعوب ، ورفاهية الناس والجماعات .

لقد أدى الشرق رسالته ثم استعاد التاريخ دورته ، فإذا الجهاد هو الجهاد والكفاح هو الكفاح ، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والمجد والسلام والرفاهية للبشرية أولاً وأخيراً ، وما أصدق ما يقول شاعرنا المعاصر .

من هؤلاء الصامتون ؟ تسكلموا من هؤلاء المحجمون ؟ تقدموا

الحكم في الإسلام

الحكم في الإسلام شوري ، لأن الحكومة فيه مقيدة بكتاب إلهي ، ودستور خالد ، منزل من السماء ، هو القرآن الكريم ، الذي نزل هدي ونورا ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

يقول دافيد بورت : « القرآن دستور اجتماعي تجاري مدني حربي قضائي ، وهو فوق ذلك كله قانون سماوي عظيم » . . . والقرآن الكريم يحقق كل أغراض الحكومة الدستورية الصالحة ، فقد فرض على الحاكم أن يستشير المسلمين ، ويرجع إلي رأيهم « وشاورهم في الأمر » ، « وأمرهم شورى بينهم » ، وألزم الحاكم بالعدل في رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، ولم يجعل أي امتياز لطبقة الحاكمين على طبقة المحكومين ، فهذا رسول الله صلوات الله عليه يقول في مرض موته « أيها الناس . من كنت جللت له ظهرا فهذا ظهري ، فليستقدمه ، ومن شتمت له عرضا فهذا عرضي ، فليستقدمه ؛ ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه . ولا يخشى الشحنة عرضي ، فليستقدمه ؛ ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه . ولا يخشى الشحنة فمى ليست من شأني » . وكان عمر يسلك سبيل الرسول وصاحبه أبي بكر ، فيطلق لولائه الحرية في الشؤون الموضعية ، ويقيدهم في المسائل العامة ، ويراقبهم ، ويقول لهم . « إنني لم أستعملكم على أمة محمد على أشعارهم ولا على أبقارهم ، وإنما استعملتكم عليهم لتنفضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل . وقال عمر من ظله عامله بظلمة ، فلا إذن له على ، إلا أن يرفعها إلى حتى أقصه منه ، فقبل له : أرأيت إن أدب أمير رجلا من رعيته أنقصه منه ، فقال : ومالي لا أقصه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ؟ وبلغ عمر أن أبا عبيدة ، واليه على الشام ، يسبغ على عياله ، وقد ظهرت النعمة عليه ، فنقص من عطائه الذي كان يجري عليه ؛ ثم سأل عنه ، فقبل له : قد شحب لونه . وتغيرت ثيابه ، وسامت حاله ، فقال يرحم الله أبا عبيدة ، ما أعف وأصبر ! ! ورد عليه ما كان يقص منه ، وأجراه عليه . وكان عمر الخليفة لا يبر نفسه عن جمهور المسلمين بشيء في لباسه ومركبه وحركته . وقد صادر أموال عمرو بن العاص واليه على مصر لأنه ظهرت عليه النعمة والترف ، وصادر أموال أبي هريرة واليه على البحرين لأنه ادخر له عشرة آلاف درهم ، وكان يأخذ دطامه من بيت المال مثل أي فرد من المسلمين .

إن الإسلام يحذف الامتيازات الفردية والطائفية ، ويحو ما بين الطبقات من الفوق في الحقوق والواجبات ، لافرق بين حاكم ومحكوم ولا يعترف بالنبل والسادة والأمراء ، إنما هم مثل غيرهم من باقي طبقات الشعب وفلاحيه وجمهوره ، نظام الحكم مقرون بالحرية والمساواة والعدل واحترام كرامة الفرد .

الخليفة ينتخب من قبل عظام الأمة ، ولا يصدر في خلافته أمر خطر إلا برأى أكابر الأمة وشوراهم ، جاء عبيدة بن حصن والأفرع بن حابس إلى أبي بكر نقلا : يا خليفة رسول الله ، إن عندنا أرضا سبخة ليس فيها كلب ولا منفعة فإن رأيت أن تعطيناها لعلمنا نحرثها أو نزرعها ، ولعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ؟ فقال أبو بكر لمن حوله : ما ترون فيها قالا ؟ قالوا إن كانت أرضا سبخة لا ينتفع بها فترى أن تقطعها ، لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ، فأقطعهمها إياها وكتب لهما بذلك كتابا ، وأشهد عمر وأبي بكر في اليوم ، فانطلقا إلى عمر يشهدانه فوجده قائما يداوى بعير له فقالا : إن أبا بكر يشهدك على ما في الكتاب وقرأه له ، فلما سمع ما في الكتاب تناوله منهما ففعل عليه فحاه ، وقال : إن رسول الله كان يتألم بكاء الإسلام يومئذ ذليل ، وإن الله عز وجل قد أعز الإسلام اذهبوا فاجهدا جهدا فذهبا إلى أبي بكر وقلنا : والله ما ندرى من الخليفة أنت أم عمر ؟ قال بل هو لو كان شاء ، لجاء عمر وهو مغضب فقال لأبي بكر : أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعها هذين ، أرض هي لك خاصة أم بين المسلمين عامة ؟ قال : بل هي للمسلمين عامة ، قال فما حملك أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين ؟ قال ، استشرت هؤلاء الذين حولي فأشاروا على بذلك ، قال : فإذا أشرت هؤلاء الذين حولك أفكل المسلمين أو سعة بهم مشورة ورضى ؟ قال أبو بكر قد كنت قلت لك إنك أقوى على هذا مني ، لكنتك غلبتني .

ومع ذلك فالشريعة الإسلامية تبحث على وضع القوانين والنظم الملائمة لحاجات الأمة ومطالب الحياة وضرورات البيئة ، وتفرض على المشرعين والمجتهدين أن ينظروا على ضوء الإسلام وتشريعه إلى كل ما يجد في الحياة لوضع أحكامها .

وأما أن نحمل الشريعة مسؤولية المظالم والاضطرابات التي أحدثها الملوك من ذري السياسة والأطماع القصيرة بعد عصر الخلفاء الراشدين ، فأمر لا يتفق والحق والإنصاف . إن الحكومة أساس تكوينها في الإسلام شورى ، ومشية الشعب هي التي توجهها وتسير بها إلى جادة الحق والخير العام والإصلاح . ومهمتها هي

خدمة الشعب والتفاني في حفظ الأمن والنظام، وضمان العدالة والحق والمسارعة للجميع... جاء في وثيقة الاستقلال التي أعلنها نواب الولايات المتحدة عام ١٧٧٦ .
 إننا نعتقد أن هذه الحقائق بديهية ، إن الأفراد أجمعهم خلقوا متساوين ، وقد منحهم الخالق حقوقا معينة غير قابلة الانزعاع . ومن هذه الحقوق : الحياة ، والحرية ، والسعى نحو السعادة . ولضمان هذه الحقوق تنشأ الحكومات بين الناس ، فتستمد هذه الحكومات سلطتها العادلة من رضا المحكومين . وإن أية حكومة - مهما كان شكلها - إذا أصبحت هدامة لهذه الغايات ، فمن حق الشعب أن يغيرها أو يلغيها ويفتيء مكانها حكومة جديدة ، يصنع أساسها ، على ما يبدو له من مبادئ ، وينظم سلطتها على ما يترأى له من أشكال تضمن له السعادة والسلامة .

لقد عني ملوك المسلمين بنشر العلم والثقافة والحضارة في كل مكان ، في بغداد وقرطبة ومصر ودمشق وحلب ونونس ، وسواها من عواصم البلاد الإسلامية ، وهذه العواصم هي المنايع التي استمد منها الغرب الثقافة والعلم والحضارة في القرون الوسطى . يتولى الأستاذ بر يفولت الانجليزى في كتيبه " تكوين الإنسانية " : تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الإسلام . ويقول : إن رئيس دير كلوني تأسف على أن رأى أثناء إقامته بالاندلس الطلبة من فرنسا وألمانيا وانجلترا يردون أفواجا أفواجا إلى المراكز العلمية العربية ، وقال : العلم به الشان جادت بها الحضارة العربية على العالم الحاضر ، فلم تكن إيطاليا مهدا لحياة أوربا الجديدة بل الاندلس ، لأن أوربا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة ، بينما العالم العربي : بغداد والقاهرة وقرطبة وجليطة ، كانت مراكز الحضارة والنشاط العقلى ، ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التي تمت في شكل ارتفاع إنسانى جديد .

ويلخص شوقي النظام الحكومى فى الإسلام فيقول :

فرسنت بعدك للعباد حكومة	لا سوق فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده	والناس تحت لوئها أكفء
والدين يسر والخلافة بيعة	والأمر شورى والحقوق فضاء
الاشتراكيون أنت إمامهم	لولا دعاوى القوم والعلواء

العمال

حقوقهم وواجباتهم في الشريعة الإسلامية

للعامل مكانة كبيرة في الأمة ، فهو دعامة الانتاج ، وعنصر من عناصر النشاط الاقتصادي ، واليد المحركة لمراقف الدولة .

وقديماً نشأ كثير من الأنبياء في بيئة الأعمال ، وتدرج الله بهم من حياة العمال إلى حياة النبوة والرسالة ، فرسى عليه السلام قضى ثمانى حجج أو عشر أعاملاً في مال شعيب وداود كان يعمل وياً كل من عمل يده ، فكان يقوم بصناعة الدروع ويعيش على ما يكسبه من هذه الصناعة ، ومحمد رسول الله سلوات الله عليه قضى صدر شبابه وطرفاً من أيام رجولته عاملاً في مال خديجة سيدة قريش ثروة وجاعاً . وقد عنيت الأديان القديمة والقوانين الحديثة بتشريعات العمل وقوانين العمال .

وفي الشريعة الإسلامية عناية بالعمال وحقوقه ، وتتجلى هذه العناية بوضوح في كثير من مسائل التشريع الإسلامى ، والأصول العامة التى تهدف إليها الشريعة الإسلامية في هذا الباب يمكننا أن نلخصها فيما يلى :

أولاً : حفظ كرامة العامل وإنسانيته وشخصيته في الحياة ، فالعمل ليس ذلاً وهو انا . بل هو وسيلة الحياة الشريفة لكثير من أفراد الأمة . وهو ركن الحياة الاقتصادية ، لذلك كان من الختم أن يقدر أصحاب الأموال شخصية العامل وكرامته وأرادته ويحافظوا عليها لا أن يضعوه موضع الذليل المسخر أو العبد الممان ، وفي مبادئ الإسلام نصوص كثيرة تؤيد هذا ، وكل كثير من العمال يشترطون على صاحب العمل ذلك ، كما يروى أن قوماً ضلوا الطريق فاستأجروا أعرابياً ليدلهم عليه ، فقال : إني والله لا أخرج معكم حتى أشترط لنفسى قالوا : فإذا تشرط لنفسك قال « يدى مع أيديكم في كل ما تنتارلون وتعملون ، وذكر والذى عليكم محرم » .

ثانياً : تقدير مجهود العامل وتقديره قائماً على الإنصاف وعلى الحذب عليه ، فلا يجوز في نظر الشريعة الإسلامية أنى توجب معونة العامل أن ينتهز أصحاب الأعمال فرصة حاجته الشديدة إلى العمل فيبخسوه حقه ويفبنوه في تقدير أجره الذى يستحقه

نظير عمله ، ولا بد أن يكون ضامنا لنتيجة مجهوده وكده ، ولذلك منعت كثيرا من المعاملات التي لا يتحقق فيها عتق العامل لأجره عند عقد العمل ، وهذا هو علة منع جواز إعطاء الأرض للعامل بزرعها على أن يكون أجره مما يخرج منها ، لجواز أن لا يخرج الأرض محصولا ، وإن كان كثير من الشرعيين الإسلاميين أجازوه لما فيه من تبادل المنفعة بين الناس ، وللمنفعة العالقة بإعطاء الأرض ثمراتها كما لا يجوز أن تكون أجره العامل في عقد العمل بمجهرلة القدر ، بل لابد أن تكون معلومة معينة ليعمل العامل على أساس واضح ، ويرفع عنه الحيف ، وفي الحديث : « من استأجر أجيرا فليعمله أجره » .

وتبحث الشريعة الإسلامية دائما أصحاب الأموال على ترك الطمع في أجره العمال وعلى أدائها لهم كاملة ، وتعدهم بذلك خير الدنيا والآخرة . وفي الحديث عن رسول الله صلوات الله عليه « أن ثلاثة أتوا إلى غار فدخلوه فأنحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فدعوا الله بصالح أعمالهم فأنفجرت الصخرة . فكان مما دعا الله به أحدهم أن قال : اللهم إني استأجرت عمالا فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فشمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاء بعد حين فقال : يا عبد الله أد إلى أجرى ، فقلت له : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم ، فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بي ، فقلت : إني لا استهزئ بك ، فأخذه كله فلم يترك منه شيئا » . وتلزم الأجرة بتمام العمل ، أو بشرط العامل دفعها قبل العمل بشرط التمكن من الحصول على المنفعة ، أى العمل المقصود .

ثالثا : عدم إرهاق العامل وإعنتاته في العمل . وفي الحديث الشريف : « ولا تكفرهم مالا يطبقون فإن كلفتموهم فأعينوهم » ، وقال شعيب لموسى عليهما السلام حين اتفقا على أن يعمل له موسى في ماله : « وما أريد أن أشق عليك » .

إذا أدى تصرف أصحاب الأموال إلى إرهاق العامل إرهاقا يضر بصحته فلهما ملحق حق فسخ العقد ، وله أن يرفع الأمر إلى المستولين لدفع هذا العنت ، . . ورفع الأمر إلى أولى الأمر والتحكيم حين الخلاف . وإنصاف من هو بحاجة ماسة إلى الانصاف ، قاعدة مقررة في شريعة الإسلام .

رابعا : حرية العامل في الأعمال المالية أحيانا ، فلا يجوز أن يحجر رب المال في حرية العمل على من وكل إليه استثمار ماله ، فلا يصح أن يشترط عليه أن لا يتعامل إلا مع أناس معينين أو في مكان خاص . وذلك لأن المستثمر مادام مأنوسا فيه الكفاية والمقدرة على الاستثمار فلا يصح أن تقيد موانه به ، لأن هذا التقييد

يكون أحيانا عائقا دون غاية ما يريد من الحرية في الاستثمار أو معطلا لمواجهه
الاقتصادية في سبيل الربح .

خامسا : دعوة الأغنياء الذين لا يقدرّون على استثمار أموالهم ، إلى إعطائهم
للقادرين على ذلك من ليس لهم مال ، بشرط أن يؤنس فيهم الأمانة وحسن التصرف
والصدق والإخلاص ، قضاء على مشاكل البطالة ، ولذلك شرعت الشريعة الإسلامية
تشريعات كثيرة من هذا القبيل كالمزادة والمساواة وسواهما .

سادسا : العامل ليس ضامنا للمال إذا ملك في يده بدون تعمد منه أو تقصير في حفظه ،
أما إذا ملك بتعديده فعليه الضمان وهو مسئول ، فإذا شرط رب المال على العامل
أن يكون ضامنا لرأس المال إذا ملك في يده بدون تعمد أو تقصير فسد عقد العمل .
سابعاً : حق العامل في فسخ العقد :

للعامل الحق في فسخ عقد العمل في أحوال كثيرة ، منها : أن يصيبه مرض يحول
بينه وبين المضي في العمل ، أو أن يكون وقت العقد صيفاً ممزاً ثم أدركه البلوغ ، أو
أن يشترط رب المال عليه ضمانه رأس المال إذا ملك في يده ، أو أن يخل رب المال
بشروط من شروط عقد العمل ، إلى غير ذلك من المبررات .

ثامناً : العامل وحق التعويض :

وللعامل الحق في أخذ تعويض من رب المال في بعض أحوال ، منها :

(أ) أن يتعدي عليه رب المال فيتلف مضمونا من أعضائه مثلاً .

(ب) أو أن يكون العامل لم يبلغ سن البلوغ بعد ، إذا أصابه ضرر أو ملك
أثناء عمله الذي استؤجر له فإن المستأجر يكون مسؤولاً عنه ، فإذا قُتل الصبي خطأ
كان وقعت عليه جدران المصنع الذي يعمل فيه فدينته على عاقلة رب المال وعلى رب
المال الأجر الذي كان يستحقه المقتول . وإذا أصيب بشيء من الضرر كان عليه التعويض ،
أما إذا كان العامل رجلاً عند عقد العمل فليس له حق التعويض لأنه بمنزلة مسئول عن
نفسه ، وقد قبل العمل بعد أن رآه وعرف تبعاته ، وإن كان من الإحسان في المعاملة
مساعدة رب المال له بأداء تعويض مناسب لما أصابه ، ولولى الأمر أن يحكم بما يراه من
ذلك التعويض . وللإحسان في المعاملة في الإسلام نصيب كبير .

تاسعاً : لا يصح لرب المال أن يعقد عملاً مع صبي غير مميز ولا مع مجنون .
لأنهما لا يعرفان التبعات ولا يلزمهما مسؤولية ، حيث لم يدركا حد التمييز ؟
عاشراً : ليس لرب المال أن يقصّي العامل عن عمله إذا نقصت قدرته على الإنتاج

بمرض لحقه من جراء العمل أو بسبب هرم أو شيخوخة لحقته بعد ان قضى شبابه وأوقات نشاطه الحيوى فى العمل لرب المال .

والقاعدة العامة فى ذلك أن الغرم على قدر الغنم ، فإذا اتفق رب المال مع شاب على العمل فقضى مدة نشاطه معه ثم أثرت صحته أو شيخوخته على مقدرته فى الإنتاج ، فليس لرب المال طرده من العمل ، بل عليه أن يرضى بإنتاجه فى الشيخوخة كما كان يرضى عن إنتاجه فى الشباب .

ويرمز إلى هذه القاعدة حديث عن رسول الله صلوات الله عليه معناه ، أن رجلاً أرمق جلاله فى العمل فهرم فأراد أن يذبحه ليستريح من عبء مؤنته فقال صلوات الله عليه : أكلت شبابه حتى إذا هرم أردت أن تنجره . فتركه الرجل .
الحادى عشر : حق العامل فى الراحة الأسبوعية .

فقى الفقه الإسلامى لو استأجر رجل يهودياً شهراً كاملاً كانت أيام السبوت مستثناة من العمل .

هذا هو الحكم والعامل يهودى ، وكذلك إذا كان نصرانياً فله أجازته الأسبوعية (الأحد) . . . فما بالك به لو كان مسلماً ؟ .

هذه هى بعض حقوق العامل التى يقرها التشريع الإسلامى وينفذها ، ولكن الواجب على العامل بعد ذلك كثير ، فعليه الإخلاص فى أداء العمل ، وعدم الطمع فى رب المال ، والأمانة ، والمحافظة على المال الذى يعمل فيه بمحافظته على ماله نفسه ، وهو مطالب بأن يتعاون مع رب المال تعاوناً فعالاً مشمراً إلى غير ذلك من الواجبات التى يلزمه بها التشريع الإسلامى

الضمان الاجتماعي

في شريعة الإسلام

الإسلام يحث على العمل ، ويحارب البطالة ، ويفرض ألوانا من المعاملات التي يشترك فيها الأغنياء والفقراء في ميدان العمل ، ويتاح فيها للفقراء فرصة استغلال مواهبهم استغلالا واسعا ، كالمزارعة والمساقاة والمضاربة ، وكالشركة ، وكالعمل ، والإجارة ، والوكالة ، وسواها .

فإذا عجز الإنسان عن العمل فهناك ألوان من المساعدات الاجتماعية التي تؤمنه على حياته ، كالزكاة ، والصدقة والاحسان ، وكالملاجئ العامة التي تفتح الدولة أبوابها للمعجزة والمساكين واليتامى والأرامل ، وكأوال الأوقاف العامة للمسلمين التي تصرف في وجوه الخير والبر والاحسان ورعاية شؤون الفقراء .

وقرر القرآن الكريم حق الفقراء في أموال الأغنياء : « وفي أموالهم حق معلوم ، للأسائل والمحروم » . والمال في يد الأغنياء إنما هو مال الله استخلفهم عليه ، وأوجب رده على عياله من الفقراء .

ويحث الرسول الأعظم على وجوه الخير والبر والاحسان والتضامن الاجتماعي : « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » ، « الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه » ، « من مشى في حاجة أخيه كان خيرا له من اعتكاف سنين » ، « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، « من لا يرحم لا يرحم » ، « المؤمن للؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » . كما أوصى بالجار أشد وصية وآكدها .

ولقد آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، المهاجرين الفقراء الذين جردوا من أموالهم وأخرجوا من أوطانهم ، والأنصار الذين كانوا يقيمون في أموالهم وأهليهم وأولادهم : وكان الإيثار أغلب شيء على المسلمين ، أرأيت عبادة ابن الصامت وقد أهديت له هدية ، ومعه في الدار اثنا عشر من أهل بيته ، فقال : أذهبوا بهذه الهدية إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا ، فذهب بها الوليد ابن عبادة ،

فكان كلما جاء أهل بيت قالوا له : اذهب بها إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها . حتى رجعت الهدية إلى عبادة ؟

وقرب الاسلام مع ذلك بين الفقراء والأغنياء ، بالزكاة والارث والوصية ونظام الوقف وسوى ذلك من التشريعات التي تتجه إلى إنقاذ الفقير وتمكينه من الحياة ورفع مستواه في المجتمع .

وهناك بعد ذلك كله لمعالج الفقر ، والقضاء على الحاجة ، بيت مال المسلمين الذي يلزم بالقيام على شئون الناس ، وخاصة الفقراء لسد حاجاتهم . وكان للفقراء والمساكين والأرامل واليتامى وأبناء السبيل نصيب معلوم يجرى عليهم من بيت المال . كما كان لهم نصيب في الغنائم ونصيب في الزكاة

وكان عمر يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ويقول : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب ، إلا عبداً مملوكاً . ولكننا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وغناؤه في الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله إن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه . » وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقسم كل ما يرد إليه من مال على المسلمين بالسوية ، وكذلك عمر . ويروي أن علياً كان يقسم ما في بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئاً .

وعمر بن الخطاب يقرر في بعض عهوده رفع الجزية عن كل من يضعف عن العمل من أهل الذمة ، وبأن يعطى من مال المسلمين ما يكفيه هو وعياله مادام بدار الاسلام ، ولقد رأى ذات يوم يهودياً يستجدي ، وعلم أنه ألعى . إلى هذا بسبب الجزية والسن والحاجة ، فأمر برفع الجزية عنه وعن أمثله وترتيب نفقة جارية له مدة حياته ، وقال : ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته وضيعناه في هرمه . وفي سفره إلى دمشق أمر بمثل هذا لقوم من النصارى ابنلوا بالجذام فلم يجدوا إلى العمل سبيلاً . وكان من هذه السياسة العادلة التي شملت المسلمين واليهود والمسيحيين أنه لم يكن في عهد عمر الفاروق من يشكو الحاجة ، ما دامت الدولة كانت تسارع لعون العاجز والمحتاج ، وكان الأطفال يعتبرون عاجزين عن العمل ، ولهذا كان عمر يفرض لهم

أيضا من بيت المال ما يكفونهم، كما يفرض لولي كل طفل رزقا يعينه على تنشئته
وتربيته (١)

فهل بعد ذلك نظام أكمل ، للضمان الاجتماعي ، والتأمين الاجتماعي ، من
هذا النظام ؟

إن الغرب في القرن العشرين لم يأت بجديد ، إن أصول حضارة الغرب ، أخوذة
من مبادئ الإسلام وشريعته الخالدة ، وأعمال خلفائه الأولين وما آزرهم في
العدل وسياسة الملك ومعاملة الرعية .

(١) مجلة الأزهر — المجلد الثاني والعشرون — عدد شعبان سنة ١٣٧٠هـ — من
مقال للدكتور محمد يوسف موسى بعنوان : ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

الإسلام

ونظام الطبقات

ونظام الطبقات الذائع الآن في كل مكان لا يقره الإسلام ، وتحاربه مبادئه بكل ما نستطيع .

طبقة النبلاء ، وطبقة المترفين والأغنياء ، وطبقة الحسكام ، يجب أن تهبط إلى مستوى طبقات الشعب .

يجب أن تلغى جميع مظاهر الترف من إحياتها ، وإن تنفذ الضريبة التصاعدية لتستنفد هذه الأموال التي تضيع في اللهو والملاذات والشهوات والمجون الآثم الضار . ويجب أن يلغى نظام الألقاب إلغاء تاما من الوجود وأن تقوم رقابة دقيقة على أموال الدولة .

ألغوا نظام الطبقات ، وقربوا بين الناس في حياتهم ، وخذوا الناس جميعا بقوة القانون وأضربوا على أيدي العابثين في كل مكان .

فلا جدوى في حياة تقوم على رفع أناس لمستوى النبلاء ، وخفض آخرين لمستوى الحيوانات .

إن بعض مترفيننا ينفق على كلب له في الشهر مالا ينفقه على الفقراء في عام وينفق في الحفلات الساهرة وميادين السباق وموائد الخمر أو القمار ، ما يسكن في المعيشة آلاف الأسر والعائلات .. إننا في حاجة إلى أي حازمة ، تعمل للشعب وفي سبيل رفاهيته ما يجب أن يعمل ، وتمتدى بمبادئ الإسلام وأهدافه في الإصلاح . لكن متى يجود الزمان لنا بنظير لعمر بن الخطاب ، يقود الناس إلى السبيل المستقيم؟ إن كبراءنا وسادتنا ، على اختلاف طبقاتهم ، يجهلون أبسط المبادئ في العدالة الاجتماعية ، ولا يعرفون ما عليهم من تبعات ومسؤوليات ، باعتبارهم مسيطرين على شؤون الناس ، ويفرطون في حق الدين والأخلاق تفريطا شديدا حتى ليحولوا ما حرم الله .

وكبرائونا وسادتنا ، من كل لون ، يحملون جهلاً تاماً بمبادئ الإسلام الخالدة في الحرية والاخاء والمساواة ، وفي توزيع العدل بين الناس .

لأنهم لم يقرءوا تاريخ أعلام لإسلام وحماته وخلفائه ، ولم يسمعوا عن جهاد الرسول الأعظم محمد صلوات الله عليه . لازالة الامتيازات بين الناس والطبقات ولالغاء الفوارق الاجتماعية ، ولجمل السيادة العليا للحق والداون والعدالة .

لأنهم يقرون (فلانا) على السرقة ، والخيانة ، والغش ، وبيع الوطن ، مادام (فلان) هذا يتمتع بالألقاب والرتب والنفوذ والجاه ، ولا يقرون (عمرا) على ذلك مادام عمرو من رعايا الناس ، ودهائمهم ، فأين عملهم من عمل الرسول الأكرم وقولهم من قوائمه الخالدة : « والله لو أن فاطمة بذت محمد سرقت لقطعت يدها » . وأين هذا من عدالة عمر ، وسطوته على سادة المسلمين ، وأخذه للفقيه حقه من الغنى ، وقوله : « ألا إن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه » .

إن شعار الإسلام العدل التام ، وأن الحاكم راع ومسئول عن رعيته أمام الله . رحمك الله يا عمر ! ، قولك المأثور : « من رأى منكم في اعوجاجاً فليقمه ، لا يزال يرن في أذني » .

وزعوا العدالة بين الناس بالقسطاس المستقيم ، حتى بطعن كل ذي حق على حقه ويشعر كل إنسان بأن من حقه على الدولة أن ينعم بالحياة والحرية والأمن وبرد العدالة : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعماً يعظكم به ، إن الله كان سمياً بصيراً » .

لقد أصبحت السياسة للشهوة والديون والإباحية والخلاعة ، والاحاد وتحطيم ميلاج الشرف والعفة والكرامة ، واستبيحت الاعراض علناً ، وعلى مرأى ومسمع من الناس ؛ وفقدت الرجولة والمروءة والشهامة والأمانة .

لا ، ثم لا ، أيها السادة ، لا تستنم الأمور ، ولا تنتظم شؤون المجتمع بمثل هذا الاعوجاج الشديد ، أين نحن مما نقرؤه عن انجلترا ، وعن قصة ولية العهد ، التي لم تستطع أن تجد المنسوجات اللازمة لملايس زفافها ؛ لأن الأربعة الأمتار التي لها في بطقتها لا تغني شيئاً ، فتبرع أفراد الشعب لها بنصيبهم المقرر في البطاقات من المنسوجات ، وبذلك تم لها صنع ملايس الزفاف .

حرية وكرامة

كان الحاكمان في العصور القديمة يصفون على أنفسهم صفات الألوهية، ويعتقدون أن دمهم المملوك الموروث نفحة من السماء، وأنهم فوق كل مسئولية وإرادة، وكانت الشعوب لا حول لها ولا قوة، وكانت عقيدة العامة أن الحاكم ظل الله في أرضه، وأن إرادته من إرادة الله، وكان الاستبداد والاضطهاد وتقل مقومات الشعوب وواد الحريات عملاً مشروعاً، وشيئاً مباحاً. مادام ذلك كله بأمر الحاكم ومشيشة. وجاء محمد برسالة الكريمة يبشر بها بين الناس كافة، ويهدم بها هذه العقائد الفاسدة، والآوهام الضالة، فأعلن حرية الشعوب، وأذاع حقوق لإنسان، وأبطل الرق في شتى صورته، وحارب الظلم والاضطهاد والاعتداء والخياف على حقوق الناس وكرامتهم وحريتهم، ونادى بأن للحكومين ما للحاكمين. وأن إرادة الشعب من إرادة الله، وأن الأمة مصدر السلطات، وأن الحاكم مسئول عن أعماله، وأنه مثل كل إنسان يجب أن يخضع للقانون والدين، بل ضائع من مسئوليته أمام الله، وحمله كل ظلم وفساد وجور وخطأ واضطهاد يقع على الناس، وألزمه أن يسير على الجادة، وأن يحكم باسم الشعب لخير الشعب، وأن يعود إلى الحق إذا تبين الخطأ في عمله، وأن يحترم حقوق رعيته ويحافظ على حرمانها وكرامتها وحرمانها وأموالها وأعراضها، وأن يحافظ على الأمانة التي استودعه الله إياها، ويسيسأله الله عما صنع فيها، وألا يبرم أمراً دون أرى الرأي والمشورة والصدق والخير والمعرفة الصحيحة بالأمور، وفي ذلك يقول محمد صلوات الله عليه: كلهم راع ومسئول عن رعيته.. الخ ويقول أبو بكر خليفة رسول الله: «أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتموني على حق فاعينوني، وإن رأيتموني على باطل فقوموني».

نادى محمد بالمساواة والائاخاء والحرية، وشرع شرائع الديمقراطية الصحيحة ورفع منزلة الشعب فجعله هو المهيمن على الحكام، وأوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يجعل على مخلوق طاعة في معصية الله، وحرم على الرؤساء أعمال النهب والسلب وقتل الناس والاستبداد بهم، وألزم الرؤساء والمسؤولين باحترام القانون السماوي الذي ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبين المحكومين بعضهم مع بعض، وبين كل إنسان ونفسه.

شريعة واضحة ، ونظام محكم ، ومذهب واضح في الحكم ، فرضه الإسلام ودعا إليه وحث عليه ، والزم به .

وفي العصور المتأخرة تنكب الناس الطريق ، وحادوا عن الدين ، وانصرفوا عن مبادئ الإسلام ، وعاد الحكم سيرتهم الأولى ، فأصبح الحكم استبداديا بعد أن كان شوريا ، وصار الحاكم هو المهيمن على كل شيء دون الشعب ، وأصبحت إرادة الشعب لا تساوى شيئا بجانب إرادة الحاكمين ، وأباح الملوك والأمراء والمسترلون عن الشعوب لأنفسهم قتل الحرمات ، ووأد الحريات وسفك الدماء ونهب الأموال والعبيث بكل شيء واطراح أوامر الدين ، والتفريط في الإمامة المقدسة الملقاة على كواهلهم والنظر إلى كل شيء للرعية على أنه ملك خاص للحاكمين يتصرفون فيه كما يريدون رغما عن إرادة مالكيه ، واعتبار أموال الدولة مالا خاصا للحاكم يبعثه كما يشاء ، وينفقه على أهوائه وملذاته بغير حساب فأقاموا صرحا شامخا للاقطاع أخذ الأغنياء في ظله كل شيء وحرّم الفقراء من كل شيء .

إن الإسلام يأبى أن ينصب الحاكم نفسه طاغية ، وأن يخضع على نفسه صفات التقديس ، وأن يزعم أنه فوق المسؤوليات والقرانين . . . والإسلام دين العدالة والحرية والمساواة ، فهو يحرم الظلم والظفیان واصطاع الفوارق بين الناس ، ومن ثم كره الإسلام الحاكم الظالم ، والوالى المستبد ، وحذر الرؤساء من الحكم بين الناس بالاهواء والشهوات والمحسوبة .

والحاكم في رأى الإسلام له رسالة عالية . فهو حاكم دستورى ، وحكمه يجب أن يكون مبنيا على الشورى وتبادل الآراء ولإيمان بالحق في كل شيء . فالحكم شورى أساسه مصلحة الجماعة والدولة ولوطن . . . ولا تجوز طاعة الحاكم إذا جار أو ظم ، فطاعته مقيدة بقيود كريمة فاضلة . . . ومن ثم يجب أن يكون الحاكم من أمثل المسلمين خلقا ودينا وعفة وأمانة ونزاهة وإثرا للمصلحة العامة ، وأن تكون ولايته للحكم بمد اختيار صحيح حر من الشعب ، فهو حكم فيه خصائص الحكم الجمهورى وهزاياه الدفعة . . . ومن ثم كان الحكم المملكى الموروث أبعد شيء عن روح الدين وأهدافه العالية ومراميه السكينة ، ولقد اختير أبو بكر خليفة لرسول الله باختيار الصحابة له بعد وفاة الرسول الأكرم ، واختير عمر باختيار أبى بكر له كما اختير عثمان من جماعة رشحهم عمر قبل وفاته لتولى منصب الخلافة العظمى ، لظروف تتعاق بالمصلحة العامة للأمة لاسلامية إذ ذك ،

على أن جمهور المسلمين رشحوه لهذا المنصب الخطير . . فلم يرشح أحد للخلافة إثر
عهد الرسول وفي عهود خلفائه الراشدين ، لأنه ابن أمير أو وال أو خليفة . ولكن
رشح لأنه أصاح الأمة ليعتلى فيها منصب الإمامة الكبرى ، ويكون خليفة لرسول
الله صلوات الله عليه .

أن الحكم الملكي الموروث لا يعرفه الاسلام ، ولا يؤمن به ، لأنه حكم يقوم غالبا
على الطغيان والظلم والاستبداد والمحسوبية ، وعلى الفروق المصطنعة بين الناس التي
هدمها الاسلام ورسوله الكريم ، وكثيرا ما يؤول الحكم الموروث إلى تسخير الدولة
كلها لمصالح فرد شامت له الأقدار أن يكون ابن ملك وأمير . وهذا الحكم الموروث
مختص أسرة من الأسر بسيادة الناس ، وهذا التخصيص ليس له دعامة من العقل
أو المنطق ولا من الدين نفسه ، لاسيما وأن الاسلام دين الديمقراطية والمساواة
والإخاء .

إننا نجاهر بأن الحكم الوراثي يمشي دائما في ركاب الاستعمار ، وكثيرا ما يفرض
المستعمرون على الشعوب أسرا غريبة عنها ، ووضع في يد هذه الأسر مقاليد السطان
والولاية على الناس دون كفاية أو موهبة . . ونجاهر بأن الملكية نظام ليس له
سند من الدين ، وأن الحكم الجمهوري هو أقرب شيء إلى مبادئ الاسلام وأصوله
وغاياته الشريفة وأهدافه المثلى .

افكار جديدة

منذ قرن ونصف من الزمان ، قامت الثورة الفرنسية ، وأذاعت في أوروبا والعالم كله ، مبادئ الحرية وإخاء والمساواة . . . وقام على أساس هذه المبادئ عهد جديد في تاريخ الإنسانية ، هتم به رجال الفكر ، وأشاد به المصلحون في كل مكان ، ونسبوا كل فضل في فرنسا مهد الحرية والنور . ويعلم الله أنهم كانوا في ذلك أغرارا وأنهم نسوا الإسلام ومبادئه الخالدة التي كانت أول لبنة في صرح الحضارة الإنسانية . ولقد هال الناس ، ولا يزال يهولهم ، هذا الفرق الشاسع بين هذه المبادئ الحلوة الجميلة ، التي طبقتها الغرب في العالم ، فكانت شرا وبلاء واستعمارا خفيفا ، قتلا للحرريات والشعوب ، وبين مبادئ الإسلام السمحة الكريمة . التي قامت عليها دول ، نشرت العلم والحضارة والنور والحرية والإخاء في العالم كله ، وأنقذت الدنيا من ظلمات العصور الجاهلية ، ورفعت قدر الفكر الإنساني ، ونقلت تراث الأقدمين وحفظته وخلدته وأذاعته ، واقتبس الغرب كل مقومات حضارته وعمرانه وحياته من تاريخها ومبادئها وأفكارها وثقافتها وحضاراتها الزاهية المشرقة .

ومضت السنوات متتابعة ، ووقعت الحرب العالمية الأولى ، وقامت عصبة الأمم تؤكد في مبادئها الحريات العامة ، وحقوق الإنسان . ولكن عصبة الأمم فشلت في رسالتها ، وتنكر أعضاؤها لمبادئها ولحريات الأمم والشعوب والجماعات . وحدثت الحرب العالمية الثانية ، التي كادت تودي بمقومات الحياة والحضارة : والتي عصفت بكل معاني الإنسانية .

وبعد أن هدأت نيران هذه الحرب الضروس ، قام المفكرون في أوروبا وأمريكا ، يدعون إلى مبادئ جديدة ، وينادون بضرورة الدفاع عن الحريات الإنسانية ، وحقوق الإنسان في الحياة . . . ولا ننسى صيحة « روبرت لي همبر » عام ١٩٤٥ في أمريكا ودعوته إلى إمامة اتحاد عالمي ، لتسود الديمقراطية المجتمع الدولي كله ، على أساس من حرية الأمم والأفراد ، ويكون الناس جميعا رعية هذا المجتمع العالمي ، الذي يجب أن تقوم حكومته على القانون لا على المعاهدات ، لأن عصر المعاهدات قد مضى وحل محله عصر القانون .

وقامت هيئة الأمم المتحدة التي نص في صدر ميثاقها على ما يأتي : نحن شعوب الأمم المتحدة ، وقد آتينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي جلبت في خلال جيل واحد مرتين على الإنسانية أحزانا يعجز عنها الوصف . وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره ، وبمبدأ للرجال والنساء ، والأمم كبيرها وصغيرها ، من حقوق متساوية ، وأن ندفع بالرفق الاجتماعي قدما ، وأن نرفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح . . . وفي سبيل هذه الغايات ائتمنا أن نأخذ أنفسنا بالتساح ، وأن نعيش معا في سلام وحسن جوار ، وأن نضم قوانا كي نحفظ بالسلام والأمن الدولي ، وأن نستخدم الآلات الدولية في ترقية الشؤون الاقتصادية والاجتماعية للشعوب جميعها . . . وقد قررنا أن نوحّد جهودنا لتحقيق هذه الأغراض . . .

وقامت على أساس ميثاق هيئة الأمم المتحدة فروع رئيسية لهيئة الأمم ، هي : الجمعية العامة ، ومجلس الأمن ، ومجلس الوصاية ، ومحكمة العدل الدولية ، والمجلس الاقتصادي والاجتماعي .

وفي ديسمبر ١٩٤٩ أقرت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، وأذيع في كل مكان . . . وسنشير إلى مبادئه في الفصول التالية ، ومن العجب العجيب ، أن هذه المبادئ حين يبحثها الباحث ، يجد أنها في نصوصها وأهدافها ، لا تخرج عن مبادئ الإسلام الكريم ، ونصوصه المأثورة التي تروى عن رسوله ودعائه وأعلامه ومفكره .

على أنه ليس الإعلان الحاضر أول وثيقة لحقوق الإنسان فهو لم ينفك عن السعي والصراع في سبيل نوال هذه الحقوق . والتاريخ يسجل محاولات كثيرة قام بها أنبياء وفلاسفة ورجال حكم ومشرعون . فلم يبتخلوا براحتهم ودمائهم لكي يخففوا عن كابل الشعب وطأة الطغيان والفقر والجهل والتعصب . وإننا لا نقيس أعمالهم بمقياس الفشل والنجاح ، بل بمقياس الذين حاولوا إدخاله إلى مجتمعاتهم . وإذا قيس هذا البيان بالبيانات الأخرى في نوعه . فالبيانات السابقة من العهد الأعظم ١٢١٥ ، إلى ١٦٧٩ ، إلى وثيقة الاستقلال الأمريكي ١٧٧٦ ، إلى إعلان حقوق الإنسان والمواطن ١٧٨٩ تلتقي عند نقطة واحدة هي أنها جاءت تعبيراً عن ضمير أمة في مرحلة من مراحل حياتها ، وتتفق في طلب الحرية والمساواة ، ورفض الاستبداد والاستعباد والامتيازات .



اعلام الغرب في الاسلام

قال كاين بيلر في خطاب جامع ألقاه بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٨٨٧ ما نصه :
« إن الإسلام قد سبق النصرانية بمراحل شاسعة، فإن النصرانية في بعض الجهات
أخذت في التقهقر إلى الوراء أمام الدين الإسلامي ، في حين أن الوسائل التي
تستعملها للتصير الأمم الإسلامية يفشل أمرها ، والشبابك التي تنصبها لهم تنقطع
حبالها .. والدين الإسلامي يمتد الآن من مراکش إلى يافا ، ومن زنجبار إلى الصين
ويخطو في داخل إفريقيا خطوات كبيرة ، وتعتنقه أمم كثيرة . وقد خطا بنفسه
وثبت قدمه في إفريقيا وآسيا ، وهو من غير شك ينشر الإخاء والمساواة ،

وقال اللورد استانلي وقد سئل : لم أسلمت وقد كنت مغرباً في نصرانيتك ؟ :
« أو اغتبط الفضل أهله ، أو أجدد الله وعلمه . أنا مسلم ، رأيت أثر الإسلام
وقدرته في نفسى حق قدره . وهو عندى عزيز ، لأنى رأيت الفرق بينه وبين
الاديان المنسوخة ، ولأنى رضيت به بعد بحث واجتهاد ، فلا أقبل به بديلاً . أنا
مسلم ، أهزأ بكل ما يحيط بى من مظاهر المدنية ، فصحيحها الحق من كتاب الله
وقرآنه ، وباطلها المذاع لا يلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه ،

وقال توماس كارليل :

« ما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب ، وجدليات
النصرانية . وكل ما لم يكن بحق ، كأنه حطب جاب أكلته نار الإسلام ذمب ،
والنار لم تذهب .. ولقد أخرج الله العرب ، لإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا
به منها أمة خاملة ، وأرضا هامدة ، لا يسمع لها صوت ولا نحس فيها حركة ،

منذ بدء العالم ، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ، فاذا الخمرل
شهرة ، والغموض قد استحال فبامة ، والضمة رفعة ، والضمة قوة ، والشرارة
حريقا وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوءه الأرجاء ، وعمد شعاعه الشمال بالجنوب ،
والمشرق بالمغرب . وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث ، حتى صار لدولة العرب رجل
في الهند ، ورجل في الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ، ودهورا
مديدة ، بنور الفضل والنبل ، والمروءة والبأس ، والجدوة ورواق الحق والهدى
على نصف المعمورة .

وقال اللورد هدى :

« إن في انجلترا ألوفاً من الأفراد المشتغلين ، وهم مسلمون في قلوبهم ، وإن لم يعلموا
ذلك جهاراً ، وقد شرحت لكثير منهم ماهية الإسلام فكانوا يجيبونني ، إما كان
هذا هو دينك إنا إذن مسلمون لأن هذا ما نعتقد وما نفكر فيه »

وقال فارس الخورى بك أحد وزراء سوريا المسيحيين ، من خطبة له : في إحدى
الحفلات العظيمة ، التي أقيمت بدمشق ، عام ١٩٣٥ ، لإحياء ذكرى مولد محمد
صلوات الله عليه (١) . وذلك في رسول الإسلام ، وفي مبادئه الخالدة .

« إن محمدا أعظم عظماء العالم ، ولم يجد الدهر بعد مثله ، والدين الذي جاء به
أولى الأديان وأتموا وأكملها . وإن محمدا أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة
علمية واجتماعية وتشريعية ، ولم يستطع علماء القانون المنصفون إلا الاعتراف بفضل
الذي دعا الناس إليه باسم الله ، وبأسها متفقة مع العلم ، مطابقة لارقي النظم والحقائق
العلمية . إن محمدا الذي تحفون به وتكرمون ذكره ، أعظم عظماء الأرض كافة ،
فلقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم ، وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم
المعروف يومئذ ، وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول
تعاملهم ، على أسس تعد من أرقى دساتير العالم وأكملها »

إلى غير ذلك ، من آراء المفكرين ، في الغرب والشرق ، مما تركنا الإشارة إليه
وما سيجي . بعضه ، وهي كلها شهادات ناطقة ، بجلال الإسلام ، وعظمة مبادئه ،
وسمو أهدافه ، واعترافه بحقوق الإنسان ، وبحريات الشعوب ، وإنفاذه للإنسانية

(١) نقلا عن جريدة المقطم عد ١٩٣٥/٦/٢٧ تحت عنوان : « وزير مسيحي
يصف الشريعة الإسلامية »

من برائن الجهل والخوف والاضطراب والظلام .

وفي ختام هذا البحث نسجل كلمة لجول لا بوم في تصوير حالة العالم قبل ظهور الإسلام ، في القرن السادس ، قال :

كان جو العالم الأرضي متلبداً بسبب الاضطرابات الوحشية في كل جهة ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير .

« وكان أجمع الرؤسا . للثقة والطاعة أشدهم صيحة في لإصلاء نيران الحروب والمعارك ، ولم يكن يأخذ بعواطف ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً ، وإن كان وقتياً ، إلا شيء واحد ، وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحرب وفقراء الحرائين وبسطاء المتسولين . ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع السكينة ، وبعض الجرائم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب ، وانتقلت من روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الترقى في المستقبل ، لكانت البربرية أسرع في خطرها مقودة بفطرسة زعماء البهيمية ، واستحالت إلى وحشية مخضة .

مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الأرض لم يصبه لفحة من هذه الحركة ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب مرقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الأمم التي كان يقال إنها متمدنة : ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في أوربا إلا عن بعد ، وما كان يصلها ذلك للفظ إلا في غاية الضعف والضعف ، وكانت تجهل وجود الهند والصين ، فإن علاقاتها مع آسيا لم تكن تتعدى حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس إلا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم ، التي كان من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من الفرس إلى تبعية امبراطور القسطنطينية تبعية اسمية ؛ أو رفع نير تلك التبعية الإسمية عنها .

على أن ذلك الوادي الأخير كان يهيم بلاد العرب جداً ، لأن أبناءها كانوا يذهبون إليه للتجارة ، وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطئ الغربي من نهر الفرات ، وصعدوا رويداً رويداً إلى بحر قزوين . وما يشبهه المسابير الدينية أنها بقيت منفصلة عن القطر المصري ، الذي أغار على جنوبه العرب الرعاة ، ولم ينجلوا

عنه تماما إلا بعد أن انجلى عنه بعض إخوانه المتأخرين ، وهم الإسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم . أما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة أو علاقة ، فهي بلاد الحبشة ، أما الجهة الشمالية من أفريقيا التي أثاروا عليها مرتين ، والتي كانت يجاذبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجنيين وبين يونان القسطنطينية والفنداليين ، فكانوا لا يحلمون بوجودها . ويقول كوسان دوبر سوفال في كتاب تاريخ العرب :

« إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة أحرارا لاسطة عليهم ، وكان عرب سوريا دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بني حمير سيادة وقتية ، فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ، ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه . »

ثم قال لا بوم : « ولم يكن العرب أحسن استعدادا من غيرهم لقبول أى دين من الأديان . » يقول دوزى في مؤلفه تاريخ عرب أسبانيا : « كان يوجد على عهد محمد في بلاد العرب ثلاث ديانات : الماسوية . والعيسوية . والوثنية ، فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقا على مخالفي ملتهم . نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الأقدمين ، ولكن ما وجد فنسب إلى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون ، وكان المندوبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية ، وكانت هذه الديانات تحتوى على كثير من الخوارق والأسرار ، حيث يعز أن تسود على شعب حسى كثير الاستهزاء . »

« أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة ، والذين كان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة ، والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعا لديه ، فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم . » وكانت طبائع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لم

يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع ، لو لم تكن الأسرة عندهم بل
القبيلة أيضاً - وهي نقطة تلفت النظر - تهتم اهتماماً عظيماً بحفظ سلسلة نسبها ، ولو لم
يكن - وهو أمر أغرب من سابقه - إدراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى
داعياً إلى الالتفات بنوع أخص ،

ويقول بعض الباحثين : إنا نستخف اليوم بكثير من محتويات هذه الوثائق ،
لسكن في عودة الفكر بضعة قرون إلى الوراء ما يقنعنا أن هذه الحقوق ، والحريات
الأولية البديهية في نظرنا كانت أكثر الآراء تطرفاً وشذوذاً وإغراقاً في الثورة
أيهما أكثر تطرفاً : أن تقول : للإنسان حق الحياة وحق العمل ، وحق العلم ، وأن
تقول : إن الشعب مصدر السلطات وليس الله ، والملك لا يحكم بموجب الحق الإلهي
وليس مطلقاً مستبدأ في أحكامه ، بل إنه مسؤول عن أعماله ؟ أما برادة حقوق
الإنسان ١٩٤٨ فقد اشتركت في وضعها دول كثيرة ، ووافقت عليها ثمان
وأربعون دولة . ومع ذلك فإنها بعيدة عن أن تكون التعبير الصادق عن الضمير
العالمي ، وعن التيارات الفكرية التي لم تساعد الظروف والملابسات على الظهور .
وإن الدول التي منيت بالهزيمة في الحرب الأخيرة لم تشترك في وضع ومناقشة
وإقرار هذه الوثيقة . ومرد ذلك إلى أن هذه الدول تمثل الخطأ لا الصواب ، والباطل
لا الحق . ولو غربلت هذه الأقوال لرأيت أن الهزيمة علة هذا البلاء ، وهي التي
جعلتها مسؤولة عن كافة الشرور والمآثم التي صاحبت هذه الحرب . لهذه الأسباب
أقصدت وجهة نظرها . هل تكون هذه الوثيقة الإعلان الأخير في سلسلة تطور
الحقوق والحريات ؟ وهل القيم التي تتضمنها صحيحة ونهائية في سلم القيم ؟ وهل
تخطئ أمة إذا ارتضت بعضها ورفضت البعض الآخر ؟ من هو المسؤول عن تنفيذ
هذه المبادئ أو مخالفتها ؟ هل تكره الأمم على الأخذ بها أو أنها تظل لها حريتها ؟
من يعاقب الدول القوية التي تخرق حرمة هذه المبادئ ؟ ومن يدين الحكومات التي
تعامل شعوبها معاملة مضادة لنصوص هذه البراءة وروحها ؟ .

وستجد في الفصول التالية ما يقنعك ، ويقوى إيمانك بهذه الفكرة السليمة ،
التي يؤيدها العقل والبحث الصحيح .

الإسلام

صفحة جديد في تاريخ البشرية

فتح الإسلام صفحة جديدة في تاريخ البشرية ، وكتب سفرا خالدا حائلا : بأروع جهاد عرفته الإنسانية وبأعظم دعوة وصلت إلى الأرض من السماء . وأكبر ثورة لم يعرف التاريخ لها مثيلا . ثورة على الجمود البشري واضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان ، واستعباد القوى للضعيف . : ثورة أفتت العالم من حيائه الدليلة البدائية وأحالت ظلام الحياة نورا . وخوفها أمنا وسلاما ، وظلمها عدلا وإصافا وحرية عما شهد به أفذاذ المفكرين المؤرخين ؛ ودعوة لإصلاح .

ومن أولى من محمد بن عبدالله صلوات الله عليه بأن يرفع في العالم منارة السلام ، وراية المدنية ، وأن يصل الأرض بالسماء . ويسمى بالإنسان ليبلغ ما كان ينتظره من حياة زاهرة ، وحرية نادرة ، وحضارة باهرة ، فيها الأمن والامل والاطمئنان والرجاء ؟.

لقد كانت رسالة محمد صلوات الله عليه ، أول إعلان عالمي لحقوق الإنسان وأكبر حركة لتأييد كرامته وشخصيته في الحياة ، وإصلاحا شمل جميع ميادين الإصلاح . صلوات الله عليه ، ورفعته إلى أعلى عليين ، وأكرمه في أمته كما أكرم أمته به . لأنه على ما يشاءقدير .

جاء الإسلام والعرب قبائل موزعة ، وأحياء متخاصمة ، لا يجمعهم دين ولا سلطان ولا شريعة اجتماعية عالية منظمة . فبدلهم من ذلك كله نظاما موحدًا ، وحياة كريمة مهيبة ، في الاجتماع والسياسة ، وفي الدين والدنيا .

واعترف الإسلام للإنسان : بحريته ، واستقلاله الفكري والاجتماعي والمالي وجعله حرا طليقا من كل قيد ؛ إلا من الخضوع لدين الله ؛ وللحاكم الأعلى الذي يحكم بشريعة الله ، ويسهر على حفظ الأمن والنظام بين الناس . فرفع بذلك من كرامة الإنسان ومعنويته ، وجعله خليفة له في الأرض بعمرها ، ويمحو منها الظلام والفوضى والجهل والجمود ، بما وهبه الله من عقل ، وما حث عليه من العلم والعمران والإحسان ، التي هي أسباب وثيقة للدينية والحضارة .

ونظم الأسرة على أسس اجتماعية سليمة ، فشرع الزواج وجعله رباطا مقدسا بين الرجل

والمرأة ، وجعل الأسرة هي الوحدة الصغيرة التي يتكون منها المجتمع والشعب ، وحافظ عليها ، ودعا إلى رعايتها . وحرم العلاقات الاثيمة والبغاء ، فحفظ الأنساب ، ودعم كيان الأسرة . ورفع من شأن المرأة ، وجعلها شريكة لرجل في الحياة وفرض نفقتها ونفقة الاولاد على الزوج ، وحتم عليها حسن التعمد الابناء ، والقيام بتربيتهم وتثقيفهم ، حتى يبلغوا مبلغ الشباب .

ودعا الإسلام إلى أن يكون الناس إخوة متحابين متعاونين في الحياة ، وسأوى بينهم في الحقوق والواجبات ، وحرم دعوة العصبية واستبدل بها دعوة الدين ، والطاعة لحاكم واحد يلزم شريعة الله ، وشرع كثيرا من الشرائع الاجتماعية ، التي يزيد في قوة المجتمع ووحدته ؛ كالجمعة والزكاة وصلاة الجماعة وإحسان . وحارب الرذائل الاجتماعية ، والعادات الفاسدة والتقاليد الجامدة ، وأزال الفوارق الاجتماعية بين الناس والشعوب ، لافضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . وحرم الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم وأرواحهم وحريةاتهم وأباح الطيبات من الرزق . ومكاسب الإنسان الشريفة . وأيقظ الضمير وهذب وجعله رقيبا على أعمال الإنسان ، كما ألقى عبء حفظ النظام ، والسهر على الأمن على كاهل الحاكم الأكبر ، ومن يعاونونه في خدمة الأمة ورعاية مصالح الناس .

وحارب الإسلام الأديان الفاسدة ، والعقائد الزائفة : وجه الناس كافة إلى الله وحده لا شريك له ، ورفع من كرامة الإنسان وشخصيته في الحياة ، ونبه من شأن العقل ، وحكمه في كل شيء ، فحارب التقليد والجود ، ودعا إلى استقلال الإنسان بالتفكير ، وبذلك بعث العقل البشري قويا فتيا يبحث في أسرار الوجود والحياة وطارد الأوهام الفاسدة التي تضعف من شأن الفكر ، وتدعوه إلى السكسل والخرف ، وتحمله على الإيمان الأعمى . والتسليم المطلق .

وبهذا أسس النهضة العالمية الكبرى التي يحيا الغرب والشرق في ظلها

سبب الإسلام

هي السبب في انتشاره

كان المسلمون منذ بدأوا حياتهم الحافلة ، بعد أن انبثق نور الإسلام وبزغ على العرب فجر عهد جديد ، في كفاح ونضال وجهاد مستمر : حاربوا طغيان الأفراد والجماعات والشعوب فظفروا ظفراً مؤزراً ، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ، واكتسحوا الدول والأنهار ناشرين لهداية الله مؤيدين بروحه وأمنه ، حتى انتشر الإسلام في كل مكان ، وعم ضوءه الآفاق .

وكان هذا النصر العظيم معجزة كبرى بهرت الناس ، وحيرت المفكرين ، لأنه نصر خارق ، شمل جميع الميادين : الحربية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والفكرية . ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، والله عابدة الأمور ، فشملت الدولة الإسلامية أكثر أطم العالم المعروف آنذاك ، وكانت العواصم الإسلامية هي محور السياسة العامة ، ومحط أنظار الناس والنظم الانتصارية التي شرعها الإسلام كانت هي النظم السائدة بين جمع هذه الشعوب ، والثقافة الإسلامية كانت هي المنهل العذب الذي تروى إليه العقول والعيرين ، ويستمد منه الناس ثقاتهم وعلومهم وقنونهم وآدابهم ، والنظام الاجتماعي الذي وضعه الإسلام وكفله به التضامن الاجتماعي بين الأفراد والجماعات والطبقات ، وجعل الغنى والفقير والكبير والصغير والأمير والعامل إخوة متحابين في الله ، هذا النظام الرائع هو الذي كانت تحلم بأن تحيا في ظلاله امبراطوريات كسرى وقيصر وشارلمان ، والذي ارتمت في أحضانه كثير من البلاد والأمم ، وكذلك متاهج التفكير العامة وألوان الحضارة المشرقة عند المسلمين كانتاهما السائدتين في البلاد الخاضعة لنفوذ الإسلام . فوق أيهما من الآمال العزيزة التي كان يحلم بها وبالعيش في ظلالها الملوك والأمراء والعلماء والعامة في جميع الأنظار .

هذا التقدم العظيم والروح الوثاب ، والنهضة الجبارة كان منشؤها الدين نفسه ، وشريعة الإسلام بما اشتملت عليه من آداب ونظم وأخلاق ومثل وعادات ونواميس وأهداف . . . فبدأ الإسلام هي السبب الأول في نشره وارتقائه الأمم في أحضانه .

لقد حارب الإسلام الضعف بجميع صورته وألوانه .

حاربه في الفرد . فدعا إلى أن يكون المسلم قويا عزيزا كريما كما يقول الرسول الكريم : « المؤمن القوى خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف ، ويقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى ، أى المعطى خير من السائل ، ودعا إلى العمل والجهاد في سبيل العيش : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وقدم جرمه الأموال والأعراض : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله . »

وحاربه في المجتمع ، ليقضى على الرذائل والشور ، وعاقب عليها عقابا صارما ، وأمر بشق الفضائل الاجتماعية ، التى تكسب المجتمع قوة وأمنا وطمرا وخيرا ، وشرع قاعدة اجتماعية مثلى ، تصور لك آداب الإسلام وأصول دعوته ، وتبين لك إلى أى مدى كان التضامن الاجتماعى يسود الطبقات والجماعات فى ظلال الإسلام ، وهى كما يقول الرسول الكريم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وكما جاء فى الأثر : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » ، وهذا نظام اجتماعى أساسه حب مصلحة الغير ، والمحافظة على حقوق الناس وتعود الأيثار والبر والخير والرحمة والتعاون ، ومقت الأثرة ، وبهذا وثق الصلات بين الأغنياء والفقراء ، كما قضى على العصابات ، ونشر الإنصاف والعدالة والحق والمساواة بين الناس جميعا ودعا الرأى العام الذى ربه على أصول دعوة الإسلام إلى أن يكون قويا جريئا ، لا يخشى فى الله لومة لائم ؛ بل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقف فى وجه الظلم والظلمين .

وحارب الضعف فى الأمة ، فجعل راعيها هو القوام على حقوقها ، والأمين على مصالحها ، والذائد الحامى الذمار عن أحسابها وشرفها وكرامتها ، والحاكم العادل الذى ينشر الأمن ، ويبعث الرحمة ، ويسوى بين الناس ، ويعطى كل ذى حق حقه . ودعا الناس - مع دعوته إلى تكوين الأخوة الإسلامية القوية - إلى إخوة إنسانية عامة شاملة ، لا فرق بين الأمم والعناصر والعقائد والمذاهب ، ديا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . »

وهذا كله هو السبب فى مجد المسلمين الأولين وسيادتهم ؛ إذ آمنوا بهذه المبادئ . ونهجوا على طريقها فى حياتهم وآدابهم وسلوكهم ، وهو السبب فى إنتشار الإسلام بسرعة خارقة للعادة فى جميع الأقطار والأمصار .

دفاع عن الإسلام

لا يزال الإسلام كما كان حارس المدينة الآمين ، والمنقذ الأكبر للناس من الفوضى والانحلال ، والداعي للنهضة والتقدم والرفق ، والباعث على الخير والبر والإحسان والرحمة ، والمقوم لأفكار المسلمين من الزيف والضلال والهوى والشر ، والحائل بينهم وبين المبادئ الهدامة ، والأفكار الباطلة .

هو الساعد القوي للحكومات على نشر الأمن والسلام والحب والتعاون في قلوب المسلمين كافة ، فهو الذي يشق العقول ويهذب النفوس ويحيي الضمائر ويردف الإحساس ويحفز إلى الخير ، ويقم من المجتمع الإسلامي وحدة تامة يسودها الإخاء والمساواة والحب والتعاون .

الإسلام حقائق واضحة ، وروح مسمحة ، وتجديد مستمر في بناء النهضة ، ودفاع عن العدالة والحق والسلام . ولا يسطعنا وعدوانا ، وإزهاقا للأرواح وسلبا للأموال ، وحبا للجريمة ورغبة في لإسعاد .

وإذا كانت العامة لا تفهم الدين في الزمن الماضي ، فما أجدرهم بالوقوف على حقائقه وفهمه - حق الفهم في عصرنا الراهن ، بعد أن يسرت أسباب الشفافة لإسلامية وفهمها . ولقد كان انحراف العامة من المسلمين عن الدين سببا في هذه التهمة الباطلة التي رددتها المتعصبون من الأوروبيين ، وهي أن الإسلام يقف في طريق النهضة والحضارة لأنه دين الجمود والخنول .

ألا كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ، قل لي بربك : متى وقف لإسلام في طريق النهضة ؟ ، وهو الذي نشر الحضارة والثقافة في العالم ، ورعى العلوم والآداب في عصور الظلام والفوضى ، ومهد لعصر الإحياء ، وساعد على حفظ وتجديد تراث الإنسانية الروحي والأدبي ، وقل لي بربك : متى كان الإسلام دين الجمود ؟ وهو الذي دعا إلى أروع المبادئ الروحية والاجتماعية والسياسية وإنسانية منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، ونشر مبادئ الحق والعدالة وإخاء والمساواة والديمقراطية الصحيحة قبل الثورة الفرنسية بأجيال مديدة .

لا يزال الإسلام كما كان وكما صوره أبو سفيان بن حرب عدوه اللدود حين سأله
هرقل عن دعوته محمد فقال : « يقول عبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، ويا أمرنا
بالصلاة والصدق والعفاف وصلة الرحم » . ولم يكن رسوله إلا كبرز عباد دينهم متعصباً ،
بل كان ملكاً رحيماً بالناس والحياة ، فأخذ البشرية ودعا إلى تحررها وتجديدها ،
وكان كما يقول حتى خصومه في وصفه : « يصل الرحم ، ويحمل السكلى ، ويكسب
المعدوم ، ويعين على نوائب الدهر » .

ومع ذلك كله فلا بد من أن فهم ديننا فهمنا صحيحاً ، وأن يكون سنوكنا في الحياة
وفق نوايسته ، حتى لا يرمى للإسلام بسببنا بتهمة باطلية .
ما أجددنا أن نؤمن بالدين إيماناً صحيحاً ، وأن نفيء إلى الله وإلى الحق والإسلام .

الإسلام

دين الحق والقوة

ضربت لنا الأمم العظيمة في الأرض أروع مثل . وأظهرت أجد آيات القوة والبطولة والعزة والإباء ، فضحت بكل شيء . وبكل عزيز في سبيل مجد الحياة وعزة الآباء ، وفضلت نضل الأبطال لنفوز بتقدير الاجيال .

كل هذا والمسلمون صامتون لا ينطقون ولا يعملون ، يضحكون ولا يبكون . ويلهون ولا يجدون ، ويتناصرون لا على مجد بلادهم ولكن على مجد أشخاصهم ، قويل لقولا . المسلمين الذين لم يبلغ لإيمان قلوبهم ، فرددوه أقوالا ، ولم يؤدوه شرائع وعبادات وأعمالا .

الإسلام دين القوة ، فما بال المسلمين اليوم أهون الأمم على الناس ؟ وهو دين الجهاد والكفاح والعزيمة الطامحة ، فأين هؤلاء المسلمون وأين أولئك المؤننون وأين أبطال الأمم ، الذين ألفوا حول محمد ينشرون دعوته ويلفون رسالته ويمجدون شريعته . ويضعون بدعاتهم وأرواحهم في سبيل كلمة الله ودعوة الحق والسلام .

محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار . وهو الذي كافح كفاح الأبطال وجهاد جهادا خالدا لم تعرفه الدنيا ، لا ماذ البشرية من ضلالاتها وأرهاقها ، وهو الذي سخر بقومه وبكل ما حشدوه لمقاومته من ألوان الاصطهاد وقال لهم كلمته الخالدة « والله لو وضهوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . وشرع أصحابه ومن آمن به يؤيدون شريعة السماء بالسيوف وبالدماء الطاهرة ، والارواح المؤمنة الغالية ، التي اقسمت أن تقيم على أشلائها المتناثرة صروح المجد الخالد للإسلام والمسلمين .

الإسلام دين القوة ، وهو دين الحق ، فإذا كانت بعض الحضارات القديمة أو الحديثة تؤمن بالقوة وحدها ، وإذا كانت بعض الأمم تؤمن بالحق وحده . فإن للإسلام يدعو إلى القوة وإلى الحق جميعا ويريدهما معا ويبنى على أساسهما صروح الخير للناس كافة .

الحق والقوة هما الإسلام ، والإسلام هو القوة والحق . فهو دين الحق لأنه الدين الطاهر المنزل من السماء ليدعو الناس كافة إلى الحق وإلى العدالة وإيمان وانفضائل الإنسانية العليا . وإلى تقديس الحقوق وحماية الحرمات وأداء الواجبات ، والإخلاص في الطاعات والمعاملات لله رب العالمين ، ولیدعوهم إلى الاعتزاز بالشرف ، والوفاء بالعهد وأداء الأمانات . ثم هو دين القوة لأنه يحارب الضعف الإنساني في جميع مظاهره - يحارب الضعف في الأفراد ، فلا يريد لهم مرضى ولا كسالى ولا عرجة ولا جاهلین ولا منافقين ولا ترثارين ولا كذابين ولا خائنين ، وإنما يريد لهم أصحاء في أبدانهم أقوياء بأخلاقهم نفوسهم وعلمهم ، يريد لهم آمينين بالمعروف ناهين عن المنكر وحافظين لحدود الله ، ويريد لهم مثلاً علياً في صراحة القول وصدق الحديث وقوة الخلق ، والعطف على الفقير ومواساة البائس والمسكين ، ويأمرهم بالسعى في سبيل الرزق ، وإليك ما جاء في هذا المعنى من الكتاب والسنة ، فمن الكتاب قوله تعالى : « فاشوا في مناكبهم وكلوا من رزقه » وقوله : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » . ومن السنة قوله صلوات الله عليه : « اليد العليا خير من اليد السفلى » و« شتان عند الله بين المؤمن القوى والمؤمن الضعيف » . « وضرب الله مثلاً رجلين : أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟ » ، وكذلك حارب الإسلام الضعف في المجتمع ، فنظم شؤون الأسرة وساوى بين الطبقات ، وجعل أساس مجد الإنسان عمله « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وأساس العلاقة الاجتماعية بين الناس أن يحب المسلم لأخيه ما يحب لنفسه ، فلا قتل ولا زنا ولا ربا ولا غش ولا خداع ولا شقاق ولا رياء ولا غرور ولا خيلاء ولا فساد في الأرض ، ولكن إصلاح وخير وتعاون بين الناس - المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . وكذلك حارب الإسلام الضعف في الأمة فوحدتها وحفظ لها كياناتها وحرمتها وإرادتها ، وساوى بين الشعوب فلا سيد ولا مسود ، وأمر المسلمين بأن يعدوا لأعداء الله ما استطاعوا من قوة . . . وكذلك حارب الضعف في الإنسانية كافة ، فوجه جميع الأمم والشعوب إلى التعارن وحب الخير ، وإيثار الحق ، والقضاء على أسباب الشقاق والنزاع ، وأن تولى وجهها شطر الخالق العظيم مالك الأرض والسماء .

فالإسلام دين الحق والقوة جميعاً ، لأنه لا يعتمد على الحق وحده ، وإن كان

الحق في ذاته قوة ، ولا يريد القوة وحدها ، القوة الطاغية المدمرة التي تسعى في
الأرض لتفسد فيها ونهلك الحرث والنسل ، واسكن يريد القوة التي تأتمر بأمر الحق .
نعم : لا سلام حق وقوة ، وبهما ساد المسلمون وكانت لهم العزة في الأرض والسيادة
بين الناس ، ولكننا اليوم جملنا أمور الدين وأصوله ، فذهب مجدنا التليد ، وتنكر
لنا الماضي المجيد ، وتجهم في وجهنا الدهر والناس ، وعاد الدين غريبا ، وإن اليوم
الذي نكون فيه على الحق وتكون فيه معنا القوة ، هو اليوم الذي يصالحنا فيه المجد ،
وتبتسم لنا فيه الحياة . ونبوأ فيه من جديد مكان السيادة والعزة بين الناس ، إن
الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم
من دونه من وال .

الإسلام

وأساس الحضارة

الحضارة في مذاهب المفكرين يقصد بها هذه المنزلة العالية ، التي تبلغها بعض الأمم من الرقي العام ، والنشاط الفكري الخصب ، والحرية الكاملة بأوسع معانيها .
وبقدر منزلة الأمة من الحضارة تكون مكانتها بين الدول والشعوب ، فالحضارة هي غاية ما يبلغه الإنسان . وهي المثل الأعلى للجماعات ونهاية المطاف في تاريخ الإنسانية .

وفي وسع الإنسان أن يخلق لنفسه ولمجتمعه ألواف من الحضارة يتمتع بها ويعيش في ظلها . ولذلك وجدت الحضارات القديمة من غابر الأجيال ، ولكن لا يمكن أن توجد شق ألواف الحضارة في عصر واحد . لأن الحضارة متجددة بتجدد العصور وتطور الإنسانية في مدارج الكشف والابتكار . والذين يعيشون الآن يخالون من سبقوهم من أهل القرن الماضي بدائيين أو شبه بدائيين .

كانت الحضارات القديمة تقوم على المادة والاستعباد والفوارق الكبيرة بين الطبقات ، فلم يظهر أثر الشخصية الإنسانية أو الطابع الشخصي والفكرة الذاتية وحرية الخلق والابتكار .

أما الحضارة الإسلامية فقامت على أسس رفيعة من المثل العليا ، والآداب والمبادئ القويمة ، فجمعت بين المادة والروح ، والدنيا والآخرة .

وفي عهد الثورة الفرنسية كانت الحرية والإخاء والمساواة ، أنشودة الأمم الساعية في مواكب التقدم إلى المجد والحضارة .

ونحن الآن نسمع الآراء المتباينة عن الأسس الأولى التي تقوم عليها الحضارة الإنسانية ، أتقوم على المال أم على العلم أم على الحرية ، أم على البواعث الرفيعة التي تدفع الإنسان إلى الخلق والابتكار؟ ، ولكن الإسلام يجعل أساس الحضارة هو الشعور بالمسؤولية . شعور الفرد بواجبه والمجتمع بمهمته في الحياة ، والأمة برسالتها في خدمة البشرية كافة .

فشعور الفرد بمسؤوليته يحفز به إلى العمل لخير نفسه وأسرته والمجتمع الذي يعيش فيه والأمة التي هو مدين لها .

وشعور المجتمع بمسؤوليته يدعو إلى الإصلاح والتجديد والنشاط المستمر ، والعمل على رفاهية الشعب وخير الوطن ومستقبله ، فيحارب الجهل والفقر والمرض والخوف والاستعباد ، ويعمل على نشر الطمأنينة والأمن والسلام والحرية والكرامة .
وشعور الزعماء بمسؤوليتهم يدعوهم إلى الجهاد في سبيل تقدم الشعب وحرية ، ورفع منزلته بين الجماعات الإنسانية العاملة في ميدان الحياة .

وشعور الأمة بمسؤوليتها يدعو إلى المحافظة على حريتها والذود عن كرامتها ، والحرص على أمنها وسلامتها ، والعمل الجاد في سبيل رفاهيتها وعزتها ومجدها ، لتسير إلى الحياة الكريمة مع السائرين في مواكب الإنسانية والحضارة ، ولتدعم مكانتها بين الشعوب الحية العظيمة ، ولتؤدي رسالتها الكاملة في الحياة .

الشعور بالمسؤولية هو الفارق بين الشعوب المتأخرة والشعوب الحية المتحضرة ، وهو أهم عنصر في الديانات والأشرايع والقوانين ، وأول عامل على حفظ نظام الحياة وعلى بلوغ الإنسانية والحضارة أهدافهما الصحيحة ، وبحق هو أساس الحضارة ويشتهد شعور الرجل بالمسؤولية كلما عظمت رسالته في الحياة ، فالأنبياء والمفكرون والزعماء والمصلحون ، هم أكثر الناس جهاداً ونضالاً في سبيل أداء ما حملوه من مسؤوليات جسام وتبعات كبيرة .

وكما عظم إيمان الإنسان بدين أو مبدأ أو فكرة كان أكثر شعوراً بمسؤوليته ، وأسرع عملاً من أجلها وأكبر نشاطاً في سبيل أداء الأمانة التي حملها .

فلنستمد الشعور بالإنسانية من حرارة الإيمان وقوة العقيدة ، ومن مبادئنا القوية التي تؤمن بها ، ونعمل لها ، ونضحي في سبيلها بكل شيء .

ولنرب الشعور بالمسؤولية في التليذ والشباب والرجل والمرأة ، والعامل والتاجر والصانع والزارع ، والموظف الكبير والصغير والغني والفقير والرئيس والمروءوس ، فذلك هو السبيل إلى المجد وعظمة الحياة وخلودها .

لنمض في طريقنا ، تدفعنا قوة العزيمة وحرارة العقيدة وسمو الهدف وجلال الغاية

والشعور الكامل بالمسؤولية ، كل على قدر طاقته وحسب مستواه .
وصدق محمد رسول الله فيما قال : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام راع
في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن
رعيته ، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في مال
أبيه وهو مسؤول عن رعيته . فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

حرية واخاء ومساواة

٢ — حرية العقل والفكر والرأى ، وحرية التصرف والعمل ، والحريات العامة ، والحرية الشخصية ، كل هذه الحريات قد كفلها ووعاها الإسلام وكتابه الكريم ، ولعلك قرأت كلمة عمر الخالدة لواليه عمر بن عبد العاص : كيف تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ . لا يقيد الإنسان أى شئ من قيود السياسة والحكام والطفة ، ولا يحجر عليه رجال الدين ، ولا يحول بينه وبين التصرف أب أو جد ما دام قد بلغ سن الرشد ، ولا يمنعه من التصرف فى ماله أحد إلا بأسباب شرعية وفى ظروف خاصة لكل فرد أن يبدى رأيه فى سياسة الحاكم ويناقشه الحساب ، ولعلك أيها القارىء تذكر كلمات عمر المأثورة : « إن رأيتمنى على حق فأعينونى وإن رأيتمنى على باطل فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم . » وإنى وليت عليكم ولست بخيركم ، بل لعلك تعرف مناقشة المرأة له فى فكرة تحديد المهور ، ورددها عليه ، وقبله لها وقد ذكرته بالحق : « أصابت المرأة وأخطأ عمر » ، الصلة بين الرؤساء والمرءوسين صلة الأب بابنائيه والراعى برعيته : « الإمام راع ومستول عن رعيته » ، وأمور الناس تحكم بالشورى : « وشاورهم فى الأمر » ، وأمهم شورى بينهم ، حتى حرية الدين نص عليها القرآن الكريم بقوله تعالى : « لا إكراه فى الدين » ، مادام هذا الدين الذى يؤمن به الإنسان ديننا سماويا صحيحا . أما الشرك والوثنية فلا يعترف بهما الإسلام لأنهما انتكاس فى الإنسانية ، وطمس للفطرة الإلهية ، وقضاء على كرامة الإنسان وعقله ووجوده الفكرى والروحى والأدبى والاجتماعى .

أين هذه الحرية الآن فى القرن العشرين ، عصر الكهرباء والذرة والعلم ؟ أين حريات الأمم السياسية وحريات الرأى والفكر والحريات الشخصية ؟ إنها أوهام وخيالات لا وجود لها فى كثير من الأحيان رغم أن المفكرين قد سمعوا من الدعوة إليها ، ورغم حماية القوانين العامة للهيئات الدولية والأمم المتمدينة لهذه الحريات . ليست الحرية فى الإسلام حرية فى الهدم ولكن فى البناء ، إما الحرية التى لا يحددها شئ . إلا توجيه الضمير ، ورقابة الروح الدينى فى النفس ، ونزع الفطرة الإنسانية فى الإنسان .

حرية عامة شاملة تعم الحاكم والمحكوم ، وتشمل الشعوب الصغيرة والكبيرة ، ويطلقها الإسلام لكل مسلم ومسلمة ، وتنارل الشعب الفائح والشعوب المغلوبة على السواء ، فأين هذا من الحرية عند الغرب ، التي لا يتمتع بها إلا السادة المستعمرون ، أما الشعوب المستعبدة فتعيش في أشد استعباد ، وأفظع ضغط على حريات الناس الخاصة والعامة فيها .

٢ — وأما الإخاء في الإسلام فهو إخاء عام شامل ، المؤمنون جميعا بل الناس كافة إخوة في الله وإخوة في الإنسانية ، « إنما المؤمنون إخوة » ، حتى الخدم جعلهم رسول الله صلوات الله عليه إخوان المخدمين ، فقال : « إخوانكم خوالكم » . . . ألغى الإسلام نظام الطبقات ، وألغى العنصرية الكاذبة والعصبية الحمقاء ، وألغى نظام الألقاب « المسلم أخو المسلم لا يظله ولا يسلمه » ، والمؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، « ومثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد » . « الناس من آدم وآدم من تراب » . . . الحسب والنسب والمال لا تغني عن الإنسان شيئا . وهل في ذلك أبليغ من قول رسول الله صلوات الله عليه لابنته : « يا فاطمة اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئا » ، وقوله صلوات الله عليه : « إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء » ، « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . فأين هذا مما تعلمه أمريكا الديمقراطية في رعاياها اليوم : البيض لهم كل شيء في الدولة ، والزوج السود لا حق لهم على الإطلاق ، بل ليسوا مثل أولئك في البشرية وفي الكرامة الأدبية في الحياة ؟

٣ — وأما المساواة في الإسلام فهي مساواة كاملة ، بين المرأة والرجل والصغير والكبير ، والمحكوم والحاكم ، بين جميع الطبقات والجماعات بين الأغنياء والفقراء . مساواة لا تعرف فيها ظلما ولا عنتا ولا آثاما ، القانون الإسلامي يشمل الجميع لا فرق بين إنسان وإنسان ، والعدالة تطبق على الجميع بلا محسوبية ولا استثناء ، يقول رسول الله : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . وزعت الحقوق والواجبات على الأفراد على حد سواء ؛ وفتح الإسلام آفاق الوصول إلى أسنى الغايات أمام المتنافسين من كل جنس ولون وأمة ، حتى لقد ولي رسول الله بلالا على المدينة وفيها سادة المسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وبلال عبد حبشي اشتراه أبوبكر وأعتقه ، وأسند إلى مهران الفارسي ولاية اليمن وهو من صميم الفرس ، فلما مات أسندها إلى ابنه . . . ويقول رسول الله في سلمان الفارسي الأعجمي : سلمان منا أهل البيت .

وقد سار خلفاء محمد على نهجه في المساواة التامة بين الناس والمسلمين كافة ، قال الحسن البصري : حضر باب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام ، وأبو سفيان بن حرب في نفر من قريش من تلك الروم ، وصهيب وبلال من أولئك الموالى - أى الذين كانوا عبيدا قبل الإسلام ، وهم من عناصر غير عربية - وقد شهدوا بدرا ، فخرج عمر لأولئك الموالى وآخر السادة ، فقال أبو سفيان : لم أر كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابهم لا يلتفت إلينا !! فقال سهيل وكان رجلا حصيفا : إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم دعى القوم ودعيتم ، فأسرعوا وأبطاتم ، فكيف بكم إذا دعو يوم القيامة وتركتم ؟

ألقى الإسلام الامتيازات الفردية والطائفية ، ومحا ما بين الطبقات من الفروق في الحقوق والواجبات ، ووجد الشريعة ، وأخضع لها السكافة ، لا فرق بين حاكم ومحكوم في عصر كان الناس فيه يؤمنون بأن الحاكم ظل الله في أرضه . . . عدالة تامة بين الجميع . حتى لقد شكاه يهودى على بن أبى طالب في خصومة ، فأحضرهما عمر أمير المؤمنين ، وقال عمر لعلى : قف يا (أبا الحسين) بجانب خصمك فبدأ التأثير على وجه على ، فقال له عمر : أكرهت يا على أن تقف إلى جانب خصمك ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ، ولكنى رأيتك لم تسو بينى وبينه ، إذ عظمتنى بالتيكنيه ولم تكنه ، ورأى عمر رجلا وامرأة على فاحشة فجمع الناس وخطبهم وقال : ما رأيكم إذا رأى أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة ؟ فنهض إليه على قائلا : يأتى على صحة قوله بأربعة شهداء وإلا فيقام عليه حد القذف .

إن المساواة تامة في كل شىء بين الناس عامة في الإسلام مساواة في الحقوق والواجبات وفي الكرامة وأمام القانون ، لأن الناس خلقوا متساوين في حكم الله ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح ، « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، ويقول عمر : أما والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا بأشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفسى بيده إذن لافضنه منه ، وقد رأيت رسول الله صلوات الله عليه يقص من نفسه ، ، ويقول الأستاذ الكبير محمد عرفة :

المساواة في الإسلام مساواة بين البشر لا فرق عنده بين أبيضهم وأسودهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وخاصتهم وعامتهم ، فكلهم لآدم وآدم من تراب . حتى العرب الذين هم حاملوه وناشرون له ، والذين كانت لهم ولاية الحكم لا امتياز لهم على غيرهم

من الأمم « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » . وقد قرر الإسلام مبدأ المساواة في غير ما آية .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فهو يقول إنه جعلكم شعوبا وقبائل للتعارف فكيف تجعلونه سببا للتناكر والعصبية الممقوتة الذميمة ١٢ .

وقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تسمون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » . فهو يذكركم بأنهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، فهم همما بعدت ديارهم واختلفت أجناسهم وتباينت ألوانهم إخوة وذوو رحم ، ولعل وصايته بالأرحام بعد ذلك وصاية ببنى الإنسان جميعا ، إذ قد أثبت لهم قبل ذلك قرابة ورحما .

جاء الإسلام المساواة مبدأ . وأخذ يصدر عنها في كثير من الوقائع والأحكام ، قال قتادة : كان أهل الجاهلية فيهم بغى وطاعة للشيطان . فكان الحى إذا كان فيهم عزة ومنعة فقتل عبد قوم آخرين عبدا لهم قالوا لا تقتل به إلا حرا ، تعززا لفضلهم على غيرهم في أنفسهم ؛ وإذا قتلت لهم امرأة قوم آخرين قالوا لا تقتل بها إلا رجلا .

فأنزل الله : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى » . نهام عن البغى والمدران وألا يقتلوا غير القاتل ، وألا يعمدوا على غيرهم فيقتلوا بعبدهم حرا وبالمراة منهم رجلا ، وبالحر الواحد منهم أحرارا كثيرا ، وأنزل لتقرير هذا المبدأ : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » . وفي هذه الآية تقرير للمساواة في النفوس والأعضاء والجوارح .

لقد سوى الإسلام بين الناس في الحقوق والواجبات ، وجعلهم سواء أمام الشريعة ، فالشريعة ماضية عليهم جميعهم .

روى أن امرأة من بنى مخزوم سرق فقالت قريش : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أى ليضع عنها الحد ؛ ومن يجترى عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فسلم رسول الله ، فقال الرسول : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال « يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم

كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

هذه مساواة بين الشرفاء والضعفاء في الحدود ، فلا توضع عن شريف لشرفه إذا ارتكب موجها ، وبين الرسول أن التفرقة بين الضعفاء والشرفاء في الحدود كانت العلة في ضلال الأمم السالفة .

ويقول عبد الرحمن عزام يصف المساواة في الإسلام من كلمة له :
« أشير إلى معنى أساسي من معاني الإسلام هو من أعظم مبادئه في مقاومة الشرور الاجتماعية ، ذلك هو مبدأ المساواة الذي يسيطر على تصرفات المسلمين في عباداتهم ومعاملاتهم وآدابهم ، فالمسلمون جميعا عباد الله يسمى بدمتهم أديانهم وأفضلهم عند الله أتقاهم .

ذلك المعنى متى رسخ في أذهان الملوك والأمراء والحكام ، والعامّة والفقراء والأغنياء والملوك والعمال كما يريد الإسلام ، استعالت معه الفرة الاجتماعية وما يترتب عليها من حسد وبغض وخلاف وشر ، ثم قتال وفساد للجمتمع بتسلط الأقوياء على المستضعفين واستغلالهم لمن كانوا أقوياء .

إن مبدأ المساواة شائع الآن بشرائع مصطنعة ومظاهر في القول والقانون ، ولكنه لم يستقر في النفوس والضمائر ، ولم يختلط اختلاطا كلياً بجميع مصادر الحياة ومواردها كما هو في الإسلام .

فالمسلم يحس في قرارة نفسه أنه مساو لخادمه ، وأن الخادم قد يكون أفضل منه عند الله ، ويخشى أن يصيبه شك في هذا مخافة غضب الله الذي خلق الناس من نفس واحدة متساوين أحرارا .

فالمساواة بهذا المعنى العظيم هي في نظري أكبر الضمان ضد الشرور والآفات الاجتماعية التي زلزلت الأمم ، والتي قد تكون أساسا لا كثر هذه الحروب المهلكة للبشر .

فالديمقراطية الإسلامية التي هي أساس الحكم الصالح والحياة السعيدة ، هي ديمقراطية لا شبيهة لها ، وليست المظاهرة الخادعة من أشكال الحكم على تنوعها بواجدة مثل تلك الديمقراطية ، فإن أساسها في الضمير ، فلو أنها استقرت في الحياة الحالية

واتخذت سبيلها الذي أراده الإسلام ، لسكات كفيفة بالقضاء على أعظم مصادر الشر
وآفاته الاجتماعية .

والفروق الطبيعية بين الناس من الذكاء والحسب والجاه والمال والعلم ، حاول
الإسلام تخفيف أثرها ، بتقريب الطبقات بعضها إلى بعض ، وباستراتيجية الإسلام
العادلة في الزكاة والضرائب وأموال المسلمين وردما على الفقراء ، وصرفها
للساكنين ، وبما فرضه الإسلام على العالم أن يرشد الجاهل ، وعلى الصحيح أن
يواسى المريض ، وعلى الغنى أن يعطف على الفقير ؛ وعلى الكبير أن يرحم الصغير .
حرية وإخاء ومساواة لم يعرف للإسلام فيها نظير أو شبيه ، لأنه دين الحق
والبيئة والإخلاص ، الدين الذي جاء لانقاذ البشرية والنهوض بها من الذلة إلى
العزة ، ومن الجهل إلى العلم ؛ ومن الفقر إلى الرخاء ، ومن البداوة إلى الحضارة ، حتى
لقد قال برناردشو : لا بد أن تعتق الامبراطورية البريطانية النظم الإسلامية قبل نهاية هذا
القرن ، ولو أن محمدا بعث في هذا العصر ، لفاد العالم إلى السلام والسعادة المنشودة .

وقال توماس كارليل : « لقد أصبح من العار على أى فرد متمدين من أبناء
هذا العصر ؛ أن يصفى إلى ما يقال من أن الدين الاسلامى باطل ، وأن محمدا خداع
ومزور ، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل تلك الأقوال السخيفة المنحجلة ؛ فإن
الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم ؛ مازالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر قرنا
لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا ؛ خلقهم الله الذى خلقنا » : وقال تولستوى
« إن النبي محمدا من عظام الرجال المصلحين ؛ ليكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى
الحق ؛ وجعلها تخرج إلى السكينة والسلام . »

ليست الثورة الفرنسية ، ولا مبادئ عصبة الأمم ، ولا صكوك هيئة الأمم
المتحدة ، ولا قرارات لجنة حقوق الإنسان ، هى التى أذاعت هذه المبادئ .
ولكن الذى سبق فأذاعها ونشرها وطبقها تطبيقا سليما قويا عاما ، هو محمد
وشريعته الإسلام ، الدين الخالد الكريم من نحو أربعة عشر قرنا من الزمان .

الإسلام

يسوى بين الناس بين يدي القانون والعدالة

حق وكرامة وإنصاف ورحمة وحرية

وهل بلغت الديمقراطية والعدالة في أمة من الأمم ، أو شريعة من الشرائع الحد الذي وصلت إليه عند المسلمين ، وفي شريعتهم ودينهم الكريم .

عدل مطلق ، لا يقيد قيدا ، ولا يحده حد ، لا يقف عند طائفة أو بيئة أو عنصر ؛ ليس أمامه شريف ووضيع ، ولا أبيض وأسود ، بل ولا مؤمن ومشرک . عدل كامل ، وحرص شامل على إعطاء الحقوق لأصحابها ؛ فالناس سواء أمام القانون وبين يدي العدالة . يقول عمر من وصيته لأبي موسى الأشعري : « لا يطمع شريف في حيفك . ولا يياس ضعيف من عدلك » . ويقول الله تعالى : « ولا تجرمكم شنان - أي لا يحملنكم عدواة - قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » وقصة عمر وعمر بن العاص مشهورة ؛ فقد حدث أن ضرب ابن لعمر ورجلا من العامة لأمر حدث منه . قائلا له : أنا ابن الأكرمين ؛ فلما جاء موسم الحج ذهب الرجل إلى المدينة ليرفع شكاه إلى عمر أمير المؤمنين . فبلغ عمر مظلته ، وهو في حشد من زعماء المسلمين وفيهم عمرو بن العاص وابنه ، فعلم عمر الحق في الشكوى ، فناول الرجل دُرَّة ، وقال له : اضرب ابن الأكرمين كما ضربك ، ثم قال لعمر ، « متى تستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

وفي المأثور عن رسول الله : أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر ، فضل إلا بالتقوى الأهل بلغت ، اللهم فاشهد ، ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب .

ويقول عمر في وصيته لسعد بن أبي وقاص : « إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء » .

ويقول في وصيته للخليفة من بعده : « اجعل الناس عندك سواء ، ولا تبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والآخرة والمحاسبة فيما ولاك الله » .

وفيما يؤثر عن رسول الله : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب » .

ويروى أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي المشهور لما حج قدم المدينة للزيارة ، وبعث إلى أبي حازم وعنده ابن شهاب الزهري ، فلما دخل عليه قال : تسلم يا أبا حازم ، قال : فم أتكلم يا أمير المؤمنين ، قال : في المخرج من هذا الأمر ، قال : يسير ، إن أنت فعلته ، قال : وماذا ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ، ولا تضعها إلا في أهلها ، قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : بمن قلده الله من أمر الرعية ما قلده ، قال : عظمي يا أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك ، قال يا أبا حازم أشر على ، قال إنما أنت سوق فأنفق عندك حمل إليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت .

ولما أرسل قيصر رسولا إلى عمر ، لينظر أموره ، ويشاهد عدله ، دخل المدينة فسأل عن أهلها ، وقال : أين ملككم ؟ فقالوا قد خرج إلى ظاهر المدينة ، فخرج الرسول في طلبه فرآه نائما فوق الرمل وقد وضع درته كالوسادة ، فلما رآه قال : رجل لا يقر لجميع الملوك قرار من هيئته ، وتكون هذه حالته !! ولكنك يا عمر عدلت فأمنت فمنت .

لقد نهى الإسلام عن تعذيب الناس ، وضرب أبقارهم ، والتمثيل بأحد حتى بالحيوانات ، وذلك حفظا لكرامة نبي الإنسان . ويقول عمر في ولاته : اللهم إني لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا يضربوا أبقارهم .

وجعل الجميع بين يدي القانون سواء ، يتساوون في حقهم من حمايته لهم ، دون تمييز بينهم ، ولهم الحق كلهم في حماية واحدة دون أي تمييز ينقض مبادئه ، ومن أي تحريض على هذا التمييز .

ونهى عن ظلم الناس وتشريدهم واعتقالهم ونفيمهم تعسفا وظلما وبهتاناً . . . وجعل لكل إنسان الحق على قدم المساواة التامة في أن يرفع مظلمته إلى الحاكم أو من يعينه لولاية القضاء ، وفي أن تنظر مظلمته بإنصاف وبعلائية ، وفي أن يقف

خصمه معه أمام القضاء حتى ولو كان أمير المؤمنين نفسه ، وحرص القضاة
على أن يقضوا بالحق ، وبما حكم الله ، بطلاقة رأى ، ونزاهة غرض . فالأروع
الإسلام ومبادئه !!

وأي هذا من التشريعات الحديثة ، التي تحجب الرؤساء والحكام ، والتي تجعل
القاضي خاضعا لسلطان رجال السلطة التنفيذية ، والتي تخضع السلطة التشريعية
لهوى رجال السياسة والأحزاب ، والتي تجعل الأمير والوالي فوق القانون ،
وتلف نواب الأمة وشيوخها بالحصانة البرلمانية ، وتستر على الجرائم الكبرى ،
وتحول دون نشرها على الرأي العام ؟

الإسلام ومبادئ الإسلام ، هي العلاج الأول والآخر أيها الناس لكل
مشكلاتنا الآن .

الإسلام

والعدالة

يقول الإعلان العالمي الأخير لحقوق الإنسان ، الذي وضعه أعلام الفكر
البشرى في القرن العشرين ، ما نصه

« لكل متهم بجرم الحق في أن تفرض براءته ، حتى يثبت جرمه قانونا في
محكمة علنية ، تؤمن له فيها جميع الضمانات الضرورية للدفاع عن نفسه ، وهذا هو
نفس ما أوجبه الإسلام من نحو أربعة عشر قرنا من الزمان ، من أن المتهم يرى
حتى نثبت إدانته ، ومن عدالة القضاء وحق المتهم في الدفاع عن نفسه .

ويقول عمر بن الخطاب من رسالته إلى أبي موسى الأشعري حين ولاء قضاء
البصرة ، أي من نحو ألف وثلاثمائة وخمسين عاما هجريا تقريبا :

« أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، آس — أي سو — بين
الناس في وجهك وعدلك ومجلاسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يياس
ضعيف من عدلك .. الخ ،

ويقول علي من عهده إلى الأشتر النخعي والى مصر من قبله : « أنصف الله
وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك ، فإنك
إلا تفعل تظلم ؛ ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله
أرخص حجه ، وكان لله حربا ، حتى ينزع ويتوب ، وليس شيء أدعى إلى تغيير
نعمة الله ، وتعجيل نقمته ، من إقامة على ظلم .. واختر للحكم بين الناس أفضل
رعيتك في نفسك ، بمن لا تضيق به الأمور ، ولا تمحك الخصوم ، ولا يحصر من
التي . إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكنى بأذى فهم دون
أقصاء .. أوقفهم في الشبهات ، وأخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم ،
وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأسرعهم عند انفضاح الحكم . بمن لا يزدعيه
إطراء ، ولا يستميله إغراء . ثم تعاهد قضاؤه . له في البذل مما يزيل علته ، وتقل

معه حاجته إلى الناس ، وأعطاه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره . من خاصتك .
ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك . فانظر في ذلك نظرا بليغا ، فإن هذا الدين
قد كان أسيرا في أيدي الأشرار ، يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا ،

وعن علي بن أبي رافع ، قال : « كنت على بيت مال علي بن أبي طالب وكاتبه ،
فكان في بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة ، فأرسلت إلى بنت علي ابن
أبي طالب ، فقالت لي : إنه قد بلغني أن في بيت مال أمير المؤمنين عقد لؤلؤ ،
وهو في يدك ، وأنا أحب أن تعيرنيه أتجمل به في يوم الأضحى ، فأرسلت إليها .
عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام يا بنت أمير المؤمنين ، فقالت نعم : ، عارية
مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام ، فدفعته إليها ، وإذا أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه ،
فقال لها : من أين جاء إليك هذا العقد ؟ فقالت استعيرته من أبي رافع خازن بيت
مال أمير المؤمنين لاتزين به في يوم العيد ثم أردته . فبعثت إلى أمير المؤمنين ،
بجئته ، فقال لي : أنتخون المسلمين يا ابن أبي رافع ، فقلت : معاذ الله أن أخون
المسلمين ، فقال : كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذي في بيت مال المسلمين
بغير إذني ورضاهم ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين : إنها ابنتك ، وسألتني أعيره لها
تزين به ، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة على أن تردده سالما إلى موضعه . .
فقال : رده من يومك ، وإياك أن تعود إلى مثله ، فتتالك عقوباتي ، ثم قل : ويل
لابنتي ، لو كانت أخذت العقد على غير عارية مردودة مضمونة ، لكانت إذن هاشمية
قطعت يدها في سرقة ، فبلغت مقاتلة ابنته ، فقالت له : يا أمير المؤمنين . أنا ابنتك
وبضعة منك ، فمن أحق بلبسه مني ؟ فقال لها : يا بنت ابن أبي طالب : لا تذهبي
بنفسك عن الحق ، أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزين في مثل هذا العيد بمثل
هذا . . فقبضته منها ، ورددته إلى موضعه . »

وكتب عمر إلى عامله أبي موسى الأشعري : قد بلغ أمير المؤمنين أنه فشالك
ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها . وإياك يا عبد
الله أن تكون البهيمة التي مرت بواد خصب ، فلم يكن لها همه إلا السمن ، وإنما حثفها
في السمن . واعلم أن للعامل مردا إلى الله ؛ فإذا زاغ العامل زاغت رعيته ، وإن
أشقى الناس من شقيت به رعيته .

ويروى أن أبا يوسف حين حضرته الوفاة قال : « اللهم إنك تعلم أنني لم أمل في

قضائي إلى أحد الخصمين حتى بالغلب ، إلا في خصومة النصراني مع الرشيد ، ولم أسو بينهما ، وقضيت على الرشيد ، ثم بكى .

وهناك أثر مروية كثيرة لفضاة المسلمين وخلفائهم في بحرى العدالة ، وإنصاف المظلوم ، وهى مفاخرة تشهد بعدالة الإسلام ، ونظمة مبادئه ، وسمو أهدافه ، وجلال غاياته .

إن العدالة فى الإسلام لم تقف عند غاية ، ولم تلتفت إلى حد ، ولم يستثن من حكمها فرد أو طائفة أو عنصر أو شعب . ولا اعتبار الفتح والغلبة والسيادة ..

عدالة نحن فى حاجة إليها الآن ، لنقضى على الفوضى ، ويشيع الأمن والسكينة والهدوء والنظام والرضى ، وينبعث الاطمئنان النفسى فى كل إنسان . وما أجل قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ، وقوله : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وقوله : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » . وما أجل قوله تعالى فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا » . ولما قال أعرابى لرسول الله اعدل ، قال له : ويحك فمن يعدل إذا لم اعدل . ولما قال له أعرابى آخر : ومن أحق بالعدل من رسول الله ؟ قال صدقت . ومن أحق بالعدل منى ؟

الحريات العامة للإنسان

وأمر كفالة الاسلام للحريات العامة للفرد مشهور مأثور ، لا نقيض في الحديث عنه في هذا المقام .

لم يضع الإسلام حدوداً تفصل بين بني البشر ، أو تحول دون تفاهم أبناء الإنسان ، فكان الناس يحولون في بلاد العالم الإسلامي ، من كل عنصر وجنس وملة ؛ دون قيد أو حجر أو صعوبة في الانتقال ، أحراراً في تنقلاتهم من مكان إلى مكان .

ونهي عن تنمّع عورات الإنسان ، والتجسس عليه ، ودخول منزله إلا بإذن منه ؛ وفرض حرمة المسكن ، وحرمة العرض ؛ وحرمة الدم ، وحرمة المال ، وحرمة الملكية ، وحرمة التدخل في شئونه الخاصة أو شئون أسرته .

وفرض حماية الجار واللائذ والمستعيز والمضطهد .. وإم يعترف بالعنصرية ولا بالجنسية ، بل جعل الناس إخوة في الإنسانية وفي الله وفي الإسلام .

وجعل لكل إنسان حق التملك ، وحرّم أن يحرمه أحد من ملكه تعسفا وظلماً ، وأوجب حق الفرد في حرية الفكر ، والضمير ، وحرية الرأي والتعبير ، وحرية الاجتماع ، وحرية تكوين الجماعات والنقابات والشركات والهيئات والمساواة . وجعل له الحق المطلق في أن يصل بكفائته إلى أعلى المناصب في الدولة ، دون نظر إلى جنسه ولونه .

ومنحه كافة الحقوق الاجتماعية والثقافية الاقتصادية ، التي لا تستغنى عنها كرامته ولا شخصيته في نموها المطلق .

وأطلق حريته الإنسان المطلقة في كل ناحية ، وكل مرفق . وقرر جميع الحريات العامة له وفرضها ، وألزم الدولة بالدفاع عنها ، وأباح للسلطان أن ينزع من أهل الكتاب ، وسوخ مواكبتهم . وإن أوصى بالرفق في معاملتهم ؛ كما أحد العهد على المسلمين أن يدافعوا عن من يدخل في ذمتهم من غيرهم ، كما يدافعون عن أنفسهم . ونص على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ونهى

عن كل إكراه في الدين ، وطيب قلوب المؤمنين في قوله : يا أيها الذين آمنوا عليكم
أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، ، فعليهم الدعوة إلى الخير ، التي هي أحسن ،
وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أي قوة في الحمل على الإسلام ، فإن نوره جدير
أن ينفذ إلى القلوب والأرواح والنفوس .

إن الإسلام لا يعترف بأي قيد من القيود التي تفرض على الحريات العامة ،
وإن على الدول الإسلامية المعاصرة أن تعود إلى الإسلام ، بإلغاء النظام الأقطاعي
في بلادها ، فتلغى القيود على الحريات ، وتفرض القانون على الجميع . وتحد من
عبث الكبراء بالقانون وبحق الشعب ، وترفع عن الفلاحين والطبقات الصغيرة عبء
الاضطهاد والاستعباد والرق النفسي والاقتصادي .

وبذلك يعود المسلمون سيرتهم الأولى ، في بناء مجد الإسلام . ورفاهية المسلمين
وتجديد عناصر الحضارة ، وهداية الإنسانية ، والسير في موكب الأمم المتقدمة
المهتدة العاملة على خدمة العلم والعمران وبنى الإنسان .

الناس في الإسلام سورة

حق الإنسان في الحياة حق طبيعي ، وهو من أبسط مبادئ العدالة . ولكن بعض الأمم القديمة حرمت من هذا الحق بعض الناس .

كان العرب يثدنون بناتهم في الجاهلية خوف الفقر أو العار ، فنهى الإسلام عن ذلك أشد نهى ، وأوعد عليه أشد وعيد : « ولا تقتلوا أولادكم من إلاق نحن نرزقكم وإياهم ، وقال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إلاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً » ، وقال تعالى : « وإذا الموءودة سئلت ، بأي ذنب قتلت » ، وصور سوء فعلهم ، وشناعة جرمهم فقال : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون » ، وقال : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » . . . وكرر الله تعالى النهي عن ذلك فقال : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » ، وقال تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركوهم ، ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم » . . . إلى غير ذلك من الآيات .

وذكر القرآن الكريم نبأ ابنى آدم الذين قتل أحدهما الآخر « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين » ، وقال الله تعالى بعد ذلك : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس فكأما قتل الناس جميعاً » .

وكان الناس في العصور القديمة لا يبالون بإزهاق الأرواح ، وسفك الدماء ، وكان السادة يحلون لأنفسهم قتل من يشاءون من المحكومين وتسخيرهم في شتى أعمالهم الخاصة ، وإذلالهم إذلالاً شديداً ، فجاء القرآن ينهى عن القتل وسفك الدماء : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » ، وقال تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ » . وشرع شريعة القصاص ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » ، « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص » . وقال صلى الله عليه وسلم من خطبة - حجة الوداع ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم بحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » .

فهل بعد ذلك دليل على أن الإسلام رعى حق الإنسان في الحياة ؟

وأما حق الإنسان في الحرية ، فقد كفله الإسلام وأيده ودعا إليه .

رعى الإسلام الحرية السياسية فجعل لكل فرد عاقل رشيد الحق في أن يشترك في إدارة شئون الدولة ، حتى قال عمر من خطبة له : « إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن استقممت فتابعوني ، وإن زغت فقوموني » . وقال عثمان : « إني أتوب وأنزع ولا أعود لشيء عابه المسلمون ، فإذا نزلت من منبري فليأتني أشرافكم ، فليروني رأيهم » . فوالله نثر رذني الحق عبدا لأذن ذلة العبيد .

ورعى الإسلام حرية الفكر والرأي ، وفي القرآن الكريم نعى شديد على المقلدين والجامدين ودعوة إلى تحرير العقل من شتى القيود .

حتى حرية العقيدة والدين نص عليها القرآن الكريم : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » . وهذه هي نصوص مما جاء في عهد الرسول الأعظم للنصارى في جزيرة العرب ، وهذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله إلى كافة الناس أجمعين ، كتبه لأهل ملة النصارى ، ولمن تنحل دين النصرانية من مشارق الأرض ومغاربها ؛ قريبها وبعيدها ، فصيحها وعجميها ، معروفها وبجهولها . جعل لهم عهدا إن احتسبوا راهبا أو سائح في جبل أو واد أو مغارة أو عمران أو سهل أو رمل أو بيعة ، فأنا أكون من ورائهم ، أذب عنهم من كل غارة عليهم ؛ بنفسى وأعوانى وأهلى وملتى وأتباعى ، لأنهم رعيى وأهل ذمتى . وأنا أعزل عنهم الأذى في المؤن التي يحمل أهل العهد من القيام بالخراج ، إلا ما طابت له نفوسهم ، وليس عليهم جبر ولا إكراه على شيء من ذلك . ولا يغير أسقف من أسقفية ، ولا راهب من رهبانيتها ، ولا حبيس من صومعته ، ولا سائح من سياحته ، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم ويبيعهم ، ولا يدخل شيء من مال كنائسهم في بناء مساجد المسلمين ، ولا في بناء منازلهم ، فمن فعل شيئا من ذلك ، فقد نكث عهد الله وعهد رسوله . ولا يحمل على الرهبان والأساقفة ولا من يتعبد ، جزية ولا غرامة ، وأنا أحفظ ذمتهم أينما كانوا من بر أو بحر ، في المشرق أو في المغرب والجنوب والشمال ؟ وهم في ذمتى وميثاقى وأمانى من كل مكروه . وكذلك من يتفرد بالعبادة في الجبال والمواضع المباركة لا يلزمهم مما يزرعونه خراج ولا عشر ولا يشاطرون لسكونه برسم أفواههم ولا يلزمون بخروج في الحرب ، ويحفظونهم تحت جناح الرحمة ، يكف عنهم أذية المكروه ، حيثما كانوا ، وحيثما

حلوا . . . وإن صارت النصرانية عبيد المسلمين ، فعليهم برضاها ، وتمسكيتها من الصلاة في بيعةها ، ولا يحال بينهم وبين هوى دينها . : ومن خان عهد الله ، واعتمد بالضد من ذلك ، فقد عصى ميثاقه ورسوله ، ويعاونوا على مرمة بيعهم ومواضعهم ولا يلزم أحد منهم بنقل سلاح ، ولا يخالف هذا العهد ابدا إلى حين تقوم الساعة ، وتنقضي الدنيا . . . وكتب عمر إلى أهل بيت المقدس عقب فتحه له أما نا تعهد فيه بالمحافظة على حرياتهم وأموالهم ودمائهم وكراماتهم وحرياتهم الدينية ، وذكر أن النصراني أكثر أهل الأديان قربا ومودة للمسلمين : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصاري » .

ورعى الإسلام الحرية الشخصية ، ونهى عن الاعتداء عليها . بل أوجب على الحاكم الرفق بالمسلمين ، وفي ذلك يقول الرسول الأكرم : اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق عليه .

وكان هدف الإسلام من تعاليمه في ذلك رفع القوة المعنوية للمسلمين ، والمحافظة على كراماتهم وإشعارهم بالعزة والسيادة والقوة والحياة

وأما حق الإنسان في الأمن ، فهو أشد التزاما في الإسلام ، فقد حارب الإسلام الاعتداء على أموال الناس وأعراضهم ودمائهم ، وأوجب القصاص والحدود وألزم المؤمن بأن يعامل أخاه برفق وفرض عليه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه . يقول الرسول الأعظم لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وجعل الحاكم مسئولا عن الأمن والنظام . الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عن رعيته ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، ونهى الإسلام عن استهزاء المرء بأخيه ، والتنازع بالالقباب ، وأخذ الناس بالشبهات ، وعن الغيبة والتميمة والخوض في أعراض المحصنين والمحصنات ، وقال رسول

الله صلوات الله عليه : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وحرم دلي الحاكم
أكل مال رعيته والتطاول عليهم ، كما حرم أكل مال الناس بالباطل وأوجب حق
الفقير والصغير والمرأة والرقيق ، مما يوفر على الناس الأمن ، وأوجب الحدود لمن
تعدى حدود الله ، كل ذلك لحفظ الأمن ، ورعاية حق الفرد في أن يعيش آمناً مطمئناً
في الحياة .

الإسلام

والحروب

حق الإنسان في الحياة ثابت لا ريب فيه ، في الحرب والسلام على السواء ، ولكن أوربا وشرائعها الخاضرة تنكسر لهذا الحق البدهي ، ولا تعترف به إلا بان الحروب . وعبر الحرب العالمية الأولى والثانية لا تزال شاهدة بجرائم أوربا وشعوبها المنحصرة ، وما ارتكبه في حق المدنيين المسلمين من فظائع تقشعر من هولها الأبدان . المدن تدمر بالقنابل ، والأرواح تزهر بلا حساب في البر والبحر والجو . والأطفال والنساء والكهول يقتلون بلا ذنب جنوه ، والحقول الخضراء تحترق ، والقنابل تقذف على المعابد ، إلى ما سوى ذلك من الجرائم الإنسانية التي يعجز العقل عن تصور مدى فظاعتها .

فأين هذا من الإسلام وشريعته السكرية ، التي فرضت على المسلمين احترام حقوق الإنسان حتى في الحروب ، وأوصت بالمدينين المسلمين خيرا ، ونهت عن الاعتداء والسفك والنهب والحرق والتخريب والتدمير .

يقول الله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » . فانظر كيف نهى القرآن الكريم عن الاعتداء وحذر منه ، لأن الاعتداء ليس سبيل الإسلام ، إنما سبيله الحق والرحمة والإنسانية والعدالة .

وانظر إلى قول الرسول صلوات الله عليه لقواد جيوشه في غزوة مؤتة ، ووصيته لهم بترك كل ما ينافس مبادئ الإسلام والإنسانية في الحرب ، قال :

« أوصيكم بتقوى الله وبن معكم من المسلمين خيرا ، اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا فانيا ولا منعزلا بصومعته ، ولا تحرقوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء . . .

فستجد شريعة السلام والوفاء والعدالة حتى في معاملة الخصوم والأعداء .
واقرا كلمة أبي بكر ووصيته إلى أمراء جيشه التي يتجلى فيها روح الإسلام

ومبادئ الرسول العظيم وحق الإنسانية على المتحاربين بوضوح لا لبس فيه . قال
أبو بكر الصديق خليفة رسول الله :

« لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً
كبيراً ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا
شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كله . وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في
الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . »

فأي روح إنساني أعظم من ذلك الروح ، وأية مبادئ أجل من تلك المبادئ .
وأية شريعة تحمل هذا السمو وذلك النبل وتلك العدالة ؟

إن هو إلا الإسلام الذي رعى حق الإنسان في الحياة وفي الحرب ، كما رعاه
في السلم . وأكد شريعة الإنسانية ورحم الأخوة البشرية على الناس كافة في
كل وقت ومكان .

وما أجل ما يقول الله تعالى في كتابه المحكم الكريم : « لا ينهاكم الله عن الذين
لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب
المقسطين » . فهذه الآية الكريمة كما توجب حق أهل الأديان الأخرى المسلمين ،
الذين يعيشون في كنف المسلمين من الرعاية والبر والعدل . كذلك توجب حق
المدنيين المسلمين الذين لم يحملوا السلاح ، ولم يحاربوا هدى الله ، فأولئك لهم الأمن
والبر والرعاية ، ومن حقهم أن ينعموا بالعدل الذي أمر به الله .

الإسلام

ونظام الرق

كان الرق ذاتما قبل الرسالة المحمدية في كل مكان، وكانت أسبابه متعددة كثيرة، فهناك أسرى الحرب الأرقاء، والأرقاء بالسبي والخطف واللصوصية، والأرقاء بسبب إجرامهم، والرق بسبب الدين والرقيق بالوراثه. وكان يجوز للإنسان أن يبيع نفسه وأولاده على أنهم أرقاء، وكان بعض الأغنياء يعدون الفلاحين في مزارعهم رقيقا مملوكا لهم، وبعض المجتمعات تعد المرأة في منزلة الرجل المملوك.

وقد ظهر الاسترقاق منذ العصور القديمة، وألفه بكثرة المصريون القدماء والبابليون والبراهمة والفرس واليونان والرومان. وأقره أفلاطون وأرسطو، الذي ذهب إلى أن أرواحهم كأرواح الحيوانات غير مخلدة.

واعتبرته الديانة المسيحية شرعيا، واستمر المسيحيون على تلك الشريعة. وكان الأوروبيون يسترقون سكان أمريكا بعد كشفها ويعاملونهم أسوأ المعاملة.

أما الإسلام فقد حرم شتى أنواع الرق، عدا الرق بسبب الأسر في حرب إسلامية عامة بين المسلمين والمشركين، وما عدا الرق بسبب الوراثه والتناسل.

ومع ذلك فقد قيد الإسلام بعد ذلك كله نظام الرق، بقيود شديدة، فجعل المملوكه بسبب الوراثه يولد ابنها من سيدها حرا إذا ألحقه السيد بنسبه، وتنال هي حريتها بعد وفاة السيد، وجعل الرق في الحرب قاصرا على الحرب في سبيل الدين، الحرب التي تحدث بين المسلمين والمشركين أو المسلمين وأهل الكتاب، الذين يريدون أن يطهروا نور الله. وهي الحرب التي تكون للدفاع عن الدين من اعتداء معتد أثم، أو مكيدة دولة كافرة، أو للحنث بالعهود والالتزامات، والتي ينص القرآن الكريم على مشروعيتها بقوله: **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**، وبقوله تعالى: **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**، وإن نكثوا لإيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون، .. وجعل للإمام الحاكم الحق في أن يمن على الأسرى وفي قبول الفداء.

ثم فتح الإسلام الأبواب للحرية والعق ، وحث على تحرير الأرقاء بكل طريق وسبيل .. وجعله مغنيا عن كثير من الأخطاء وفرض على الدولة أن تقوم بتحرير الأرقاء من أموال الزكاة . وحث السادة على تحرير عبيدهم إذا كتبوهم على مال معلوم .

فالإسلام إذن ضيق حدود الرق إلى أبعد حد ، وفتح أبواب العتق إلى أوسع مدى ، وحث السادة على عتق عبيدهم تقربا لله أو نظير مال يكتنبونهم عليه أو تسكفيرا عن بعض السيئات ، وجعل الدولة قوامة على تحرير الرقاب بهم مما يجبي من أموال الزكاة .

فأى شيء يعمل به الإسلام أكثر من ذلك ، أيحرم الرق جملة ؟ كلا فإن من يصد الناس عن عقيدتك ودينك ، ويؤلب عليك القوى ، ويحاربك بالسلاح ، جزؤه أن تضمه إليك ، لتحول بينه وبين الشر ، ولتؤدبه وترعاه وتوجهه إلى الهدى .

ومع ذلك فقد أوجب الإسلام على المسلمين حسن معاملة الرقيق وتأديبه وتربيته وتهذيبه ، وجعله عضوا صالحا في الحياة ، وأن لا يكلف السيد عبده بما لا يستطيع ، وأن يعطيه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس ، وأن يحفظ كرامته . قال رسول الله : لا يقل أحدكم : عبدى . أمى ، وليقل : نذائى وقتائى وغلामى ، وقال : من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار .

وقد صعد كثير من العبيد في الإسلام إلى منزلة لا يبلغها أحد ، فوصلوا إلى قيادة الجيوش ، وسياسة الدولة ، وتبوءوا أمور الملك والولاية . بل إن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، كان إذا سار هو وعبده ، تعاقبا على ركوب الناقة ، وعندما ذهب عمر إلى بيت المقدس ليبرم الصلح مع أهلها ، ركب عمر مرة ، وركب عبده مرة ، أثناء الطريق ، حتى لقد بلغ عمر المدينة وغلामه على الدابة وعمر الخليفة يسعى بين يديه . ويقول رسول الله : « اتقوا الله فيما ملكت أيما نسكم » ، « لا تقوا الله في الضعيفين : المملوك والمرأة » ، « من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، ويلبسه مما يلبس » ، « من كانت له جارية فعلمها وأحسن إليها وتزوجها ، كان له أجران في الحياة الدنيا والآخرة : أجر بالنسكاح والتمليم . وأجر بالعتق .

وعن أبي مسعود قال : بينما أنا أضرب غلاما لى إذ سمعت صوتا من خلفي : اعلم يا أبا مسعود — مرتين — فالتفت ، فإذا رسول الله ، فألقيت السوط من يدي فقال ، « والله الله أقر عليك منك على هذا » .

إن الإسلام قضى على الرق قضاء إلى حد بعيد ، فما ظنكم بامم الغرب اليوم
التي تعامل بعض الطبقات معاملة أدنى من معاملة العبيد . فأمريكا موقفة من
الزواج المحرم معروف ، وعداؤها لهم بسبب اللون مشهور ، حتى لتحرم عليهم الوظائف
العامة والتعليم ، وتنزلهم إلى درك الحيوانات .. وأسرى الحرب العالمية الثانية
لا يزالون يهيمون على وجوههم في سهول سيبيريا وسواها من شتى بلاد الاتحاد
السوفييتي عمالا أرقاء للدولة . بل وفي الهند طبقات المنبوذين ، الذين لا يعاملون
معاملة الرقيق في الإسلام .

فأين هذا من عدل الإسلام وسماحته ، ودعوته للاخاء الحق ، والمساواة
الصحيحة ، والحرية الكاملة .

بل إن الغرب قد حرم رق فرد ، وأباح استعباد أمة ، وأطلق حرية الإنسان ،
وقتل حريات كثير من الشعوب ، وحرم نهب مال المواطن ، وأباح لنفسه أن
ينهب ثروات المستعمرات الواسعة . وقضى على أسواق الرقيق في إفريقيا ، ولكنه
حجر على رجال الفكر والعلم والاختراع من شباب الألمان ، الذين أسرهم في الحرب
العالمية الثانية ، وجندهم مأسورين مساقين لخدمة المرافق العامة في روسيا وإنجلترا
وأمريكا وفرنسا ، بل ألقى عليهم أشد التبعات والأهوال والأعمال ، خلال
الحرب وبعدها .

البَابُ السَّادِسُ

الإسلام رسالة البشرية عامة

دعوة الإنسانية عالية

مضى على وفاة محمد صلوات الله عليه نحو أربعة عشر قرناً من الزمان ، ولا تزال
ذكره الخالدة ملء القلوب والأسماع ، وحديث الإنسانية الذي لا ينسى . ونشيد
الحياة الطامئة إلى نبع هذا الإلهام الكريم . وإلى فيض هذه البطولة الغضة والعظمة
الكاملة .

إذا ذكر المسلمون هذا العربي الأسمى ، تقديساً للرسالة التي حملها وبلغها عن الله ونشرها
في الخافقين . وإيماناً بسمو ما أتى به من دين . وأداء من عقيدة . فإن الإنسانية كلها
لتذكره لأنه رسولها الفذ الكريم . وأبوها البر الرحيم . والعلم المفرد في تاريخها
الحافل المديد .

إن عظمة محمد بن عبد الله ليست مستمدة من عصبية أو جاه أو مال . ليس
مرجعها عظمة الأمة التي ظهر فيها . . . وليس مردها فحسب إلى جنسه وشرفه
وجلال شخصيته وسمو خلقه وسعة أفقه ، وأنه المثل الأعلى للإنسان الكامل المذهب
في الحياة ، وأنه عاش مع فقره مجاهداً ، ومات مجاهداً في سبيل الله والحق
والهدى والنور .

وإنما ترجع مع ذلك إلى أنه رسول الله الذي اختارته العناية الإلهية من بين
الخلق ، ليباع كلمة الله إلى الأرض على فترة من الرسل ، وانقطاع الوحي عن البشر ،
وبعد أن ضل الناس وجعلوا هداية السماء التي بشر بها من قبل الأنبياء
والمرسلون .

وترجع إلى أنه جاء بآخر الرسالات ، وخاتمة النبوات ، وبشر بدين الله بين
الناس . وإلى أن هذه الرسالة التي أداها عن الله هي دين البشرية عامة ، وعقيدة الإنسانية
قاطبة ، وفطرة الله التي فطر الناس عليها . بما حوته من دعوة إلى التوحيد المطلق ،

وحرية العقيدة ، وتقديس للشرف والكرامة والمروءة والفضيلة ؛ وتقدير لمبادئ
العدالة والحرية والمساواة والإخاء بين الناس كافة . . . وبسمو روحها ؛ وجلال
نزعانها ، ونبل أهدافها ، ورفعها من كرامة الإنسان الأدبية في الحياة .
وباشترائها العادلة ، وديمقراطيتها الحققة ، وما سنته من حب ورحمة وتعاون
وشورى بين الناس .

وبما تدعو إليه من إيقاظ للضمير ، وشعور بالمسؤولية ، وتقدير للمهود
والحرمانات ، وللعلم والعمران والمدنية ، وحرب على الوثنية والشرك والضلال
والفساد والريذائل والمنكرات ، والآهواء الضالة والشهوات الجاحشة ، والأساطير
الساذبة والتقاليد البالية والأوهام الضارة .

وبحسب محمد عظمة ، أنه أول داع إلى الأخوة الإنسانية المطلقة ، والزمانة
البشرية المشتركة ، وأنه حارب العصبيات والقيود الجائرة ، وجمع الناس تحت لواء
واحد من هدى الله ، وفي ظل رسالة كاملة هي شريعة الله .

فكانت هناك أخوة إسلامية كاملة ، لوحدة الأمة وحفظ كيانها . وإنما المؤمنون
إخوة ، وبجانبها أخوة إنسانية عامة ، تجعل الناس جميعا على اختلاف نزعاتهم
وعناصرهم وأديانهم وألوانهم إخوة في الإنسانية . . . يفرض الإسلام أن يكون لغير
المسلمين ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم من حقوق وواجبات . يا أيها الناس إنا
حقناكم من ذكروا نبي وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ،
يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة . وخلق منها زوجها ،
وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله
كان عليكم رقيبا .

هذه الدعوة الجديدة التي دعا إليها الإسلام كانت منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ،
وفي عصر يستحيل فيه التفاهم والتفارب والوحدة ، لسوء المواصلات ، وكثرة الجهل ،
وقلة العمران والمدنية والحضارة ، وانتشار العصبيات ؛ ولم يدع المفكرون إلى

بعض مبادئها إلا في القرن العشرين ، بعد أن هيات الحضارة أسباب التقارب والمودة والإخاء ، وكانت دعوة الإسلام إليها منذ ذلك العهد البعيد ، معجزة لهذا الدين ولرسوله العظيم ، الذي جعل الناس أخوة لا فرق بين أبيضهم وأحمرهم وأسودهم ، وأعجميهم وعربيهم ، حتى لقد غضب رسول الله إذ أهان صحابي من صحابته عبدا أسود زنجيا فعيره بأمه ، وقال له : يا ابن السوداء ، وروى الغضب في وجهه ، وقال : طف الصاع ، طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بقوة الله أو بعمل صالح .

ثم لم تهدأ شعلة هذه الحياة المتقدة ، ولم ينطفئ مصباح حامل تلك الرسالة السماوية العظمى ، إلا وقد جمع محمد العرب عليها ، ودعا الملوك والأرءاء إليها ، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين إلى كسرى ، وملك البحرين والحبشة ، وحاكم مصر وهرقل قائد الدولة الرومانية الشرقية ، وما أروع ما يقول في رسالته إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ؛ وسلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم . يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فانما عليك إثم الأريسيين (عامة الشعب) ، يا أهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

ثم حمل خلفاؤه من بعده عبء هداية الأمم إليها وحمل لإنسانية عليها ، فوصلت عقيدة محمد إلى أطراف الدنيا ، وقامت عليها حضارة مشرقة ، ولم تزل هذه الرسالة عقيدة أكثر من سدس العالم المعروف اليوم ، ولن تزال حية بما فيها من حياة وحرارة وتجدد ونمو .

والقد اعترف أفذاذ مفكرى الغرب بفضل محمد على الحياة ، وبأباده الجليلة على الحضارة ، يقول تولستوى : بما لا ريب فيه أن النبي محمدا من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الحياة خدمة جليلة ، ويكفيه فخرا أنه هدى أمة إلى الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام . ويقول توماس كارليل في كتابه الأبطال : إن الرسالة التي أداها ذلك الرسول الكريم ما زالت السراج المنير مدة ثلاثة عشر قرنا ، لا أكثر

من ماتى مليون من البشر ، وإن رجلا كاذبا لا يستطيع أن يوجد ديننا وينشره ،
وعجيب وأيم الله أمة محمد ، فلم يقتبس من نور أى إنسان آخر ، ولم يعترف من
مناهل غيره ، ولم يك إلا جميع الأنبياء ، أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية
فى ظلمات الدهور .

وصدق الله العظيم حين يقول : يا أيها النبی إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً
ونذيراً ، وداعياً الله بإذنه وسراجاً منيراً . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً
كبيراً .

الاسلام

دعوة إلى السلام العالمي

قال صلى الله عليه وسلم : « مثل ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا نلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .
ويقول الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ، بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لفضى يذهبهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم فى شك منه مريب ، فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

إن لإسلام دعوة إلى الأخوة الإنسانية العامة ، وإلى الزمالة البشرية المشتركة ، وإلى وحدة الأديان والعقائد . . . وهو دعوة إنسانية عالية إلى السلام العالمى المنشود .
أوليس هادى البشر للسعادة الأبدية من دعا إلى الديمقراطية الصحيحة ، وقرر الحكم الشورى وهدى الإنسانية بعد الشرك والوثنية ، والضلال والهمجية والوحشية ، وأنقذها من الاستعباد والظلم والهوان والمذلة .

رفع أبدي الحكم عن الشعب وأمواله ، حتى لقد قال محمد صلوات الله عليه لابن النبية وقد استعمله على صدقات بنى سليم ، فلما جاء إلى النبي وحاسبه فقال : هذا الذى لكم ، وهذه هدية أهديت لى ، هلا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ؟ وفى بقية الحديث : أنه قام فخطب الناس ، ونهى عن مثل هذا وتوعد عليه .

وساوى الفقير بالغنى ، والصغير بالكبير ، والمحكوم بالحاكم ، والمرأة بالرجل

والأعجمي بالعربي ، والوضيع بالشريف ، ولقد قال لفاطمة بنت محمد : يا فاطمة ،
إني والله لا أغنى عنك من الله شيئاً .

إن الخير كل الخير في أن تؤخذ تعاليم محمد بغير تنقيح أو تعديل ، وأن تطبق
تطبيقاً صحيحاً ، كما هي ، لتسعد البشرية ، ويستقر السلام العالمي المنشود ، فالعالم
إن يحيا من موته إلا إذا أخذ بتعاليم الإسلام ، والتي لا بد أن ينتهي إليها في يوم من
الأيام ؛ كما يقول برنارد شو الفيلسوف الإنجليزي العظيم ، « سنريهم آياتنا في الآفاق
وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ .

إن الإسلام أسس امبراطورية ، ولكن أية امبراطورية هي ؟ وشيد حضارة ،
ولكن أية حضارة هذه الحضارة ؟ وهو دين عام ، ولكن أي دين وشريعة هو ؟
« فأقم وجهك للدين القيم ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لحاق الله ،
ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . »

حرية وعدالة ، وإخاء ، وعلم وثقافة ، وشعور بالمسؤولية ، وتربية للوجدان
والمشاعر ، وإرهاق للدراك وللأذواق والفطر الإنسانية السليمة ، ومواخاة
للعقل لأحد لها .

إن الإنسانية لا بد أن تتأدى إلى هذه الشريعة وفق ناموس التدرج والارتقاء ؛
وإن أصولها العامة لا بد أن ترد ، « أفغير دين الله يبغيون ؛ وله أسلم من في
السموات والأرض طوعا وكرها ؛ وإليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا
وما أنزل على إبراهيم ؛ وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى
وعيسى والنبيون من ربهم ؛ لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون . »

إن الغرب تعلم عن الإسلام كيف يرفع بصره إلى السماء ، وكيف يدرك أن
انتصار العقل المادي لافيمة له ، إلا إذا اقترن بانتصار العاطفة والروح ، واتجه وجهة
إنسانية لمصلحة الفرد وخير المجموع البشري . . وأخذ عنه ميراث الحضارة .

ولكنه لم يأخذ عنه النزعات الصوفية ، ولا الجوانب الروحية ؛ التي تنتجه
بالمدينة وجهة الحق والخير والعدل والجمال والكمال الروحي .

لقد بلغ الغرب أوج التقدم العقلي والمادي ، ولكن ما زالت عوطفه متبلدة
وأرواحه هائمة حائرة .

إن السكال الروحي الذي كان بالأمس مثل الشرق الأعلى ، قد أصبح اليوم

قبلة طائفة كبيرة من الغربيين ؛ تحاول أن تدبجه في عقيدة القوة والتقدم المادى ،
لؤلف من المزيج مثلاً إنسانياً أعلى .

ولكن مهمة التوفيق هذه يجب أن تكون رسالة الشرق الجديد . لتحقيق الرسالة
الإنسانية الكبرى . بالجمع بين حضارة الغرب والشرق ، بين العلم والعاطفة ، بين
العقل ونزعة التأمل ، بين الفكر التجريبي والفكر الصوفي ، بين قوى الذهن المادى
المبتكر وقوى الروح النبيل ، الساعى لتحويل جهود الذهن لخير البشرية جمعاء .

إن لإسلام ودعوته هى الباعثة على التقدم العالمى ، والسلام البشرى ، والحضارة
الحقة ، والعلم الصحيح .

فاتجهوا إليه ، وآمنوا به ، وسيروا فى أضوائه ، تصالح الحياة ، وتسعد البشرية .

الإسلام

مفاخره ليس لها نهاية

الإسلام اليوم غريب من جماهير المسلمين ، غريب عن عقولهم لا يفهم ولا يألفونه ، يرتلون اسمه في المحفل ترتيلا ، وهم أبعد الناس عن روحه وجوهره ، بل وأبعدهم عن فهم مبادئه وأصوله وأهدافه .

الإسلام الذي أحدث أعظم انقلاب عالمي ، وأكبر ثورة بشرية ، والذي بلغت دعوته من الحيوبة والسمو والظهور ، ومن الموامة لروح الإنسانية ونظريات الاجتماع ومذاهب التفكير الحديث ، ما شهد به الفلاسفة والمفكرون والمشرعون في كل جيل ومكان ، هذا الدين السماوي الخالد هو الذي يذبذبه المؤمنون به اليوم وراهم ظهريا ويحرمون أنفسهم من الإفادة بتماليمه ، بل ويجاهرون بعضهم أحيانا بأنه دين الرجعية والجمود ، كذبوا وأثم الله ؛ فلا إسلام لم يكن في يوم من الأيام إلا دين التقدم والمدنية والتحرير الإنساني والعزة والكرامة والمجد ، وإن أوروبا لم تنهض نهضتها الحديثة إلا بعد أن فهمت أصول الإسلام ، واقتبست من شريعته في الإصلاح ، بل لقد وقب فلاسفة الغرب حياه مدهولين حائرين ، يتأملون نوره كما يتأمل الأعشى نور الشمس المشرقة .

وما بالسقم بدين وضع أصول السياسة والتشريع والأخلاق ، وأصول البحث والتفكير ، وسبق الديكارتيين ، إلى تقديم الشك أمام كل بحث ، وترك التقليد وإلى الإيمان بما يؤدي إليه الدليل . كما سبق « ليكون » إلى المذهب العلمي ، وسبق فلاسفة الاجتماع إلى وضع أصوله ، ولم يجعل للمعرفة الإنسانية حدا من حيث رضع بعض المفكرين الغربيين حدا لما يمكن أن يصل إليه الإنسان من عارف ؛ وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية والإنسانية لحسب ، دون النظر إلى التعليقات الاقتصادية والمادية للأشياء التي هي الآن أساس المدنية الغربية .

يفآخر العالم الغربي بمجانية التعليم التي سبق إلى تعميمها منذ عهد بعيد ؛ وأتمتعون أن المدارس والجامعات الإسلامية كانت تطبق نظام مجانية التعاليم بها ،

بل وتزيد على ذلك ، فنصرف لطلابها الغذاء والكساء ونهيهم لهم السكنى في مساكن
مدرسية خاصة .

ويفخرنا بمجانية العلاج وهو نظام سبق اليه المسلمون في العصور القديمة .
ويفخرنا بنظام الضمان الاجتماعى الذى عمموه في بلادهم مع أن المسلمين هم أول
من طبقوه ونفذوه ، فقد كان يصرف من بيت المال نصيب معلوم للفقراء والمساكين ،
واليتامى والأرامل وأبناء السبيل ؛ كما كان لهم نصيب في الغنائم ونصيب في الزكاة ،
وكان عمر يفرض لجميع المسلمين طعام من بيت المال ، ويقول : « والله ما أحد أحق بهذا
المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد » . هذا كله غير تشريع الإسلام للزكاة والهبة
والوصية والوقف والإرث ، ودعوته الى الإحسان ؛ وفرضه حقا معلوما للفقراء في
أموال الأغنياء .

ويفخرنا بنظامه الديمقراطي . مع أن الغرب يعلم أن الإسلام هو أول من
وضع نظام الحكومة الشورية ، التى كان دستورها القرآن . والتى اختلفت فيها الفروق
والامتيازات ووزعت الحقوق والواجبات على الأفراد على السواء . وجعل فيها
الحاكم والمحكوم جميعا على قدم المساواة في المسئوليات والالتزامات ؛ بعد أن كان الناس
يؤمنون بأن الحاكم ظل الله في الأرض ، وبأنه فوق القانون والمسئوليات . ولعلكم
على ذكر من قول محمد صلوات الله عليه : « الإسلام راع ومسئول عن رعيته » . ولعلكم
قرأتم يامعان قول عمر : « إن رأيتموني على حق فأطيعوني وأن رأيتموني على باطل
فقوموني » . وقوله لعمر بن العاص : « متى تستعبدون الناس وقد ولدتمهم أمهاتهم
أحراراء » . وقوله : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » . وغير ذلك مما يعد دستوراً خالداً في
تقرير مسئولية الحاكم .

ولقد بدأ المفكرون في القرن العشرين يدعون إلى حكومة عالمية ، فأين هم من الإسلام
ورسوله الكريم ، الذى دعا إلى أخوة المسلمين في الدين ، وأخوة الناس جميعا في الإنسانية
ولم يجعل لعربي على أعجمي فضلا إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وألغى الفروق بين
الطبقات والعناصر والألوان والأجناس والشعوب ، وجعل أساس الحكم الإسلامى
المحافظة على الكرامة الإنسانية ونشر كلمة الله والهدى والنور ، والحق والخير والمعرفة .
الدين واحد والناس جميعا إخوة ، يحكمهم حاكم واحد بما أنزل الله .

ولا يزال الغرب يدعى بأنه أول من أعلن حق الإنسان في الحرية والإخاء
والمساواة منذ بدء الثورة الفرنسية حتى اليوم .

وما أشد جرأة هؤلاء على الحقائق ، فلقد سبقهم الإسلام بأجيال وقرون إلى إعلان حقوق الإنسان وتأييدها وحمايتها .

وما بالسكم بدين حرر المرأة من جور الرجل وحرر العامل من ظلم صاحب العمل ، وحرر الرقيق والخدم من العبودية والهوان ، وحافظ على حق الإنسان في الحياة والأمن ، وحقه في الملكية وفي الكرامة الإنسانية ، وفي تكوين الأسرة وفي الاشتراك في إدارة شئون الدولة ، ودعا إلى العدالة بأجلى معانيها وإلى الإخاء بأصدق مدلولاته ، وإلى الحرية الكاملة والمساواة الشاملة والاشتراكية العادلة ، وحمى أتباع الأديان الأخرى ، وجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من واجبات وحقوق .

لقد كان أفلاطون وأرسطو من فلاسفة اليونان يقرران حرمان العمال والصناع والموالي من الحقوق المدنية ، لانحطاط ما يمارسونه من المهن .. فأين هذا من سماحة الإسلام وجلاله وسمو مبادئه ، الذى ساوى بين العامل والأمير والغنى والفقر والكبير والصغير .

وأوربا المتمدينة اليوم لا ترى بأسا من فرض الرق البشرى على الشعوب عن طريق الاستعمار ، وتسوغ لنفسها إزهاق الأرواح وانتهاك الحرمات والحجر على الحريات ، فى سبيل بسط نفوذها وسلطانها على الأرض .. فأين هذا من عدالة الإسلام التى حرمت الاستعباد والطغيان والاستغلال فى شتى صورته ، وجعلت للشعوب المتأخرة المحكومة مثل ما للمسلمين الحاكمين .

والشعوب التى تتزعم مدنية اليوم ، لا ترى أيضا ضيرا فى تدمير المدن وقتل النساء والأطفال والبهكمول ، وإزهاق أرواح المدنيين بلا حساب ، فى حروب منظمة ، يعجز العقل عن تصور هولها وقظاعتها . فأين هذا من شريعة الإسلام التى فرضت على المسلمين احترام حق الإنسان حتى فى الحروب ، وأوصت بالمدينين المسلمين خيرا ، ونهت عن الاعتداء والسفك والنهب والحرق والتشيل والتدمير والتخريب ، حتى لقد أوصى رسول الله صلوات الله عليه جنده فقال لهم : **دأوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا ، أغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا قانيا ولا منعزلا بصومعته ، ولا تحرقوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا ابنا .**

لقد بلغت المساواة فى الإسلام المدى الذى يصوره الرسول الكريم بقوله : **دأيا**

الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى الأهل بلغت اللهم فاشهد . واقد ولي رسول الله بلالا على المدينة وفيها سادة العرب والمسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وأسند إلى مهران الفارسي ولاية اليمن ، وهو من صميم الفرس ، وأذن عمر وهو خليفة لصهيب وبلال وسواهما من عامة الموالى بالدخول عليه قبل أشراف قريش وسادة العرب . وبلغت العدالة فيه المدى الذي يصوره قول محمد بن عبدالله : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، وأن يغضب د علي ، لأن الخليفة عمر كناه بأبي الحسن في خصومة بينه وبين يهودي ، وأن يقول عمر في وصيته للخليفة من بعده : « لجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والآخرة والمحابة فيما ولاك الله .

فضلا عن تحريم الإسلام للنظم الاقتصادية الجائرة : من ربا واحتكار وأكل لأموال الناس بالباطل ، وقاعدة الاقتصاد فيه : فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » ، كما أن قاعدة الإسلام في أصول الاجتماع قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . هو بحق دين اشتراكي عادل ، بما شرعه من زكاة وإحسان ووصية ووقف ، وبجعله بيت المال في خدمة المسلمين عامة ، ومساعدتهم على الحياة .

إن مفاخر الإسلام في احترامه لحقوق الإنسان ، وتأنيده وحمايته لها ، وفي وضعه لأصول التقدم الأدبي والروحي والاجتماعي ، وفي إيقاظ الروح الإنساني العام ، لم يفتقر مفاخر جديدة بالإشادة والتقدير ، حرية بأن نفهمها وتندبر معانيها ونقتبس من أصولها ما يحيي الروح ويوظف العزيمة ، وينبه راقد الفكر في شق أرجاء العالم الإسلامي .

إن الخير كل الخير في أن يتنبه الشرق الراقد إلى أصول دعوة الإسلام ، التي جعلها وتناساها وتركها ، وإنه لحرى بالمسلمين جميعا أن يأخذوا بتعاليم محمد بغير تنقيح أو تعديل ، وأن تطبق تطبيقا صحيحا ، ليسعد الناس وتستقر الجماعات ، وتهدأ الفتن ،

وتصحح الأوضاع ، فالعالم لن يحيا من سوته إلا إذا أخذ بتعاليم الإسلام ، التي لا بد
أن ينتهي إليها في يوم من الأيام وسنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم
أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد .

وصدق الله العظيم حين يقول : «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت
تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا
ولأنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ،
ألا إلى الله تصير الأمور .

الإسلام

يحرر المرأة من الرق البشري

إن موقف الإسلام من المرأة موقف خالد ، فقد كفل لها جميع الحقوق المدنية ، وأطلق لها الحرية في التعلم والتعليم وخدمة المجتمع ، وأعطاه حقوقها المالية والاجتماعية التي حرمتها الشرائع الأخرى منها ، واحتفظ لها بحريتها الشخصية وكيانها المعنوي ، وساوها بالرجل في الحقوق والواجبات ، وأعطاه حقها في الميراث : للأنثى نصف ما للذكر بقدر أعبائها المادية في الأسرة . وقد حرم الإسلام ألوانا كثيرة من رق المرأة ، فحرم البغاء والزنا ، وجعل صلتها بالرجل مبنية على أساس رباط مقدس أباحه الإسلام وأكده ورعاه ، وهو رباط الزواج الذي لا يتم إلا برضاها ، وجعلها راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتهما ، وأطلق لها حرية الرأي والتعبير ، حتى قال عمر : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » ، وأباح لها الإرشاد والفتيا والقضاء والقيام بشتى الخدمات الاجتماعية الملائمة لأنوثتها ، وأوجب معاشرتها بالمعروف ، وجعل مهمتها الأساسية هي القيام بشئون البيت وتربية الأبناء ، والتعاون مع الرجل في الحياة لخدمة الأمة . . ويفرض الإسلام نفقة المرأة على أبيها أو ولي أمرها قبل الزواج ، وعلى زوجها بعده ، غنية كانت أم فقيرة ، فإن لم يكن لها عائل فنفقتها ونفقة أولادها من بيت المال .

والأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى في الأمة ، وقد أحاطها الإسلام بشتى ضروب الرعاية ، وجعلها تعاونا تاما بين المرأة والرجل في ظل الزواج ، وتربية وتهذيبا للأبناء حتى يبلغوا سن الشباب ، وقيد تعدد الزوجات والطلاق بقيود شديدة ، لأغراض اجتماعية سامية .

والإسلام يعترف للمرأة بحق اشتراكها في الشؤون العامة ، وإن كان لا يخصصها لهذا العمل ولا يوقف حياة امرأة عليه ، لأن ذلك محاربة الأنوثة وواجباتها ، إن الله عز وجل خلق الجنسين ليتعاونوا في الحياة لا ليتنافسا ، ومقتضى التسكين الطبيعي اختصاص المرأة بالحمل والرضاع وحضانة الأطفال وتربيتهم وتدبير شئون المنزل ، فكيف تحمل مع هذه الواجبات الثقيلة واجبا آخر ، هو كسب العيش والكساح في

الأرض ، إن الناموس الطبيعي الذي يخص المرأة للحياة المنزلية لم يتغير ، كما يقول أوجست كونت ، وإن المرأة تهدم مملكتها حين تحاول القبض على زمامنا كما يقول كانا بليس ، وإن منح المرأة الفرنسية الحقوق السياسية لم ينشأ عنه أى خير ، بل ازدادت متاعب فرنسا على أثره ، كما تقول مدام بول هيرفور .

وموقف الإسلام من المرأة هو موقف المصاحح المدبر الحكيم ، الذي ينظم الحياة على الأسس الاجتماعية السليمة ، وأصول الفكر الرشيدة ، ولقد اهتمت كثير من المدينيات الحديثة بأرائه في الإصلاح فكسبت الخير الكثير .

إن بعض المبادئ والمدنيات الحديثة التي تلقى عبء الحياة العامة على المرأة تظلمها كثيرا ، فما بالك إذا عدت المرأة مسئولة عن حياتها ونفسها ونفقاتها ومعيشتها . ولو كانت متزوجة ، كما نفعل الشيوعية ، التي تجبر المرأة على العمل أيضا كما تجبر الرجل ، وإلا نفذ عليها وعليه حكم القانون ، الذي يوجب أن « من لا يعمل لا يأكل » ، وتجعل لكل من الرجل والمرأة حرية التصرف خارج الدار وداخلها ، وحرية الانفصال كل عن الآخر متى شاء بدون إبداء الأسباب ، أليس ذلك وما شابهه منطقا مقلوبا مضطربا يخالف سنة الله والحياة والاجتماع ؟ يقول أوجست كونت الفرنسى : « ينبغي أن تكون حياة المرأة بيتية ، وأن لا تكلف بأعمال الرجال ، لأن ذلك يقطعها عن وظيفتها الطبيعية ويفسد مواهبها الفطرية » ، ويقول جون سيمون : « إن الحكومة قد استخدمت عددا كبيرا من النساء فاكسبن بهذا دراهم قليلة ، ولكنهن في مقابل ذلك قد قوضن دعائم الأسرة من أساسها » ، وتقول مدام بول هيرفور من زعيمات الحركة النسائية في أوروبا : « إن مهمة المرأة الأساسية هي المحافظة على النوع ، وأما ما عدا ذلك مما يزعمه لنا المغالون من المفتونين بها ، فهو كلام أدباء وشعراء ، والماضى برهان على ذلك ، فإنه لم ينبغ من بين النساء مثل شكسبير ، إذ ليس فيهن محامية عظيمة ولا طبيبة ذات صيت » ، ويقول شوبنهاور : « أتركوا للمرأة حريتها ، ولا تجعلوا عليها رقبا » ، ثم قالونى بعد سنة فأخبرونى بالنتيجة .

إن عمل المرأة خارج البيت ظلم للمرأة لا حد له ، وقيام دور الحضانة على حضانة الأطفال وتربيتهم مفسد للطفولة وحياة الأبناء ، وكل المناهج الحديثة والقديمة ظلمت المرأة وجارت عليها ، ما عدا الإسلام وشريعته الحكيمة ورسوله الكريم .

الصوم

مدرسة الاحرار

ليس الصوم في معناه الا كبر إلا انطلاق الروح من أغلال الجسم الإنساني وقيوده ، وإلا حرية الفكر وتحرير العقل من العادة المستمرة المسيطرة على حياة الإنسان ، ومقى انطاق لإنسان من إسار الشهوة واللذة ، ومتع العيش وترف الحياة ، استعادكرامته الإنسانية ، وصار أقرب إلى فهم واجبه ، وإدراك مسؤولياته ، وصارت الحياة عنده لها غاية ورسالة وهدف ، وأصبح لا يؤمن بمبادئ الحياة التي لا تتحكم إلا في العبيد ، وعاد إنسانا أشبه بالملائكة وبشرا لا يعيش في الأرض ، ولكن يحوم بفكره في كل أفق ، ويسابق بنزعتيه المتحررة الزمن ، ولم يعد يحيا في نطاق محدود من الجمود والخنول والسكسل العقلي والروحي ، ولكن ارتد إلى الإيمان بالعمل والتجديد ، وإلى متابعة الحياة في توثيقها وتقديمها المستمر ، وهكذا يصير الصوم لذة روحية صادقة ، وصفاء ذهنيا متجددا ، وقدرة على التفكير والكيفاح والعمل من أجل رسالة الحياة ، وعادت حياة الإنسان — التي تبدو هادئة أو كالهادئة — ثورة وحربا على رجعية الضمير والعقل والعادة والفساد .

ومن أجل ذلك كان الصوم مدرسة الاحرار ، ومظهرا لعقيدة الإيمان بالحرية والابتكار والخلق والإبداع ، وتقديس الواجب والحرص على إرضاء الضمير ، وكانت هذه الشريعة الحسكيمة ركنا من أركان الإسلام وشعيرة من شعائره النبيلة ، وعبادة من أسمى عباداته ، فليست الصلاة في الإسلام وحدها هي العبادة ، ولكن شريعة الصوم كذلك عبادة كبرى ، يتعلم المسلمون فيها معنى الحرية والكرامة الإنسانية والإيمان بالعمل من أجل رسالة الله التي استخلف الإنسان عليها في الأرض .

والصوم معروف في جميع الشرائع القديمة ، والأديان السماوية المنزلة ، ولكن الإسلام يدعو إلى الصوم لا على أنه تكليف وتعذيب ، ولكن يدعو إليه على أنه مظهر من مظاهر الحرية التي يجب أن يؤمن بها المسلم ويحرص عليها ، ويدعو الإسلام كذلك إلى الصوم على أنه صورة من صور الخير والجمال في الحياة ، الخير الذي يدع

المسلم يؤمن بأن له إخوانا في المجتمع يجب أن يشاركونهم آلام الحياة ومسراتها ، والجمال الذي تراه في صورته ومثله أمام الصائم : في إشراق الشمس ، وضوء القمر ، وابتسام الزهر ، وحفيف الأشجار ، وخرير الأنهار ، وتعاقب الليل والنهار ، وفي كل لون من ألوان الحياة التي دبر الله أمرها ، وأحكم بالنظام والقانون الإلهي الحكيم سيرها ، والأنبياء والفلاسفة والمفسرون وأصحاب الدعوات والرسالات ، كلهم كانوا في حاجة إلى الصوم ، ومن أجل ذلك نجد في حياتهم فترات مستمرة محرصون فيها على الصوم ليجددوا للعقل الإنساني حكمته وعزته وكرامته ، ومن أجل ذلك كان اعتكاف محمد بن عبد الله صلوات الله عليه في غار حراء ، قبل أن تنزل عليه الرسالة وبعد ذلك ، والمفسرون الذين يحاولون كشف أسرار الحياة يعيشون مع نظرياتهم ومذاهبهم صائمين أو كالصائمين ، لأنهم في شغل شاغل عن كل متع الحياة وزينتها ومادياتها .

أيها المسلم المؤمن بشريعة الإسلام ، ليسكن شهر الصوم مدرسة روحية كبرى لك ، تتعلم فيها مذاهب الحياة النبيلة وعقائدها المثلى ونزعات الخير والإيثار التي يجب أن تتأصل في نفس كل مسلم ومسلمة ، وليسكن شهر الصوم مجالاً لتحررك الكامل من الأوهام والكاذب والأضاليل ، ولتورتك المشتعلة على عبدة المتع المادية وطلاب الشهوات الجسمية ، ودعاة الجمود وأعداء التقدم ، ولتجارب بكل قواك في شهر الصوم نفسك الأمانة بالسوء ، وحياتك التي تحياها وأنت أسير لها وعبد لا يقدر على مخالفتها ، ولتجارب مع ذلك أعداء الحرية من المستعمرين ، الذين يهدمون السلام ويعوقون ركب الإنسانية المنطلق إلى غاياته .

الإسلام

وأثر الصوم في حياتنا الروحية

الحياة الروحية الأهم هي دعامة كيانها الذاتي ، ومبعث حياتها ووجودها القومي والإنساني ، فهي التي تغذي العواطف ، وتثير الشعور ، وتهذب الوجدان ، وترقى بالملكات الإنسانية في الفرد والجماعة ، وتبعث على العمل والطموح والعزيمة والإقدام .

وناهيك بالإسلام ديناً ، له أثره البعيد في الحياة الروحية في الشرق والإنسانية كافة ، فهو الذي وجه الحضارة البشرية نحو المثل العليا ، التي كانت تحسب في العصور القديمة ضلالات وأوهاما ، وهو الذي سما بالشعور الإنساني في الفرد والجماعة إلى آفاق كريمة زاخرة بمعاني الحق والخير والإيثار والمساواة ، وتضامن الناس جميعاً في العمل على تقدم الإنسانية والحضارة ، وسعادة جماعات العالم وشعوبه .

وأول ما يهرك من شرائع الإسلام وشعائره التي لها الحظ الأكبر في حياة المسلمين الروحية ، هو فريضة الصيام السامية الحكيم والأهداف .

فالصوم رياضة روحية كريمة تمتد شهراً من الزمن ، فتصل الإنسان بربه وبالملكوت الأسمى والنور الأقدس ، فتتملأ النفس طهراً ، والقلب نورا ، وتلاشى ظلمات الحياة أمام نور المعرفة الخالد . وتفتى أشباح المادة المسيطرة على الناس ، ويستعيد الصائم إيمانه العميق بالله والدين والخير ، وبكل ما هو حق وجميل في الحياة .

والصوم مظهر من مظاهر حب الفرد للجماعة ، والصائم ينسى نفسه وينسى شهواته ، فيتحول تفكيره من الشعور بالذات إلى الشعور بالجماعة ، ومن الإمعان في الترف إلى حب البساطة ، والسير مع نوااميس الحياة الأبدية الصحيحة ، ومن ثم يتعود الإيثار . ويكره الغرور والكبرياء والكذب والنفاق والرياء ، لأنها من مظاهر الذاتية

المنكبة في الإنسان، ويعشق البطولة والتضحية والتفاني في خدمة المجتمع وحب الخير والبر والإحسان، لأنها كلها شعور بالواجب المقدس المفروض على الفرد للمجتمع .
وفي رمضان ولياليه المطهرة يتجه المسلمون بشعورهم بالواجب المقدس المفروض على الفرد للمجتمع .

وفي رمضان ولياليه المطهرة يتجه المسلمون بشعورهم ووجداناتهم نحو القرآن ، يتلونه ويتدبرون آياته ، فيزيدهم ذلك حرصاً على السمو بالنفس والروح، ونكران المادية الجاحدة القاتلة لجمال الحياة ، ويؤثر العابدون التمجيد والصلاة وذكر الله ، والاعتكاف في بيوته الكريمة ، فيزيد ذلك في ازدهار الحياة الروحية الرفيعة وراقيها وليلات رمضان المحبوبة هي مواسم معروفة للبر ولذكر الله ، واسماع كتابه الحكيم وآثار الثقافة الدينية التي يظماً إليها الناس ، وازوار الناس وتضافحهم، وللتضامن الاجتماعي بين الغنى والفقير . ولا نزال نحب أن تكون كما كانت أوقاتاً مبرأة من الإثم والفجور والعدوان .

لقد كان آباؤنا يحفلون بهذا الشهر الكريم ، ويوثقونه حظاً كبيراً من العناية والاهتمام ، ويسعون فيه إلى الصالح بين الناس ، وإلى الترفيه عن الفقراء ، ومواساة البائسين والمنكوبين ، وإطعام الجائعين والمحتاجين ، وقبلما كان الرجل يخاصم فيه أخاه ، أريسه إلى اقتراف ذنب أو ارتكاب معصية ، فكان الشهر كله طهرًا وخيراً وبركة ورحمة ومحبة بين الناس ، وإيقاظاً لضمائرهم ، وكانت أيامه كالربيع الباسم والزهر الناضر والواحة الخضراء في صحراء الحياة .

وبعد : فحسب رمضان نصيبه الأول في حياتنا الروحية ، وأثره البعيد في ماضي العالم الإسلامي وحاضره ، بما فرض فيه من شريعة الصيام . وبما تبعها من آثار بعيدة في حياتنا الخاصة والعامة . وفي مستقبل الجماعة الإسلامية منذ نشأ الإسلام .

فلنتدبر هذه المعاني العظيمة ، والتقاليد الطاهرة الكريمة . التي غرسها ونماها فينا الصيام ، ولنستمد منها القوة التي تعيننا على شدائد الحياة ، والإيمان الذي يوقدنا إلى مجال الحق الكريم ، والثقة بالروح التي تدفعنا إلى البطولة الدائمة وحب الجماعة وكل ما يساعد على رفاهيتها ، وغير ذلك مما يجعل الحياة أمناً وسلاماً وسعادة .

مفرد

من الإعلان العالمي الجديد لحقوق الإنسان

الذي أقرته هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٨

وهي لا تخرج عن أصول الإسلام الكريم

أما وأن الاعتراف بكرامة الإنسان المتأصلة في كيان الأسرة البشرية جميعا ،
وبمحققهم المتساوية ، التي لا انتزاع لها عنهم ؛ إنما هو أساس الحرية والعدل والسلم
في العالم .

وأن تجاهل حقوق الإنسانية واحتقارها قد أفضيا إلى أعمال همجية استثارت
ضمير الإنسانية ، وأن انبثاق عالم ، يتمتع فيه المرء بحرية القول والمعتقد ، ويتحرر
من الخوف والعوز ، قد أعلن أرفع ما يصبو إليه الناس .

وأن سيادة القانون لا بد منها لصيانة حقوق الإنسان ، حتى لا ياجأ المرء مضطرا
في آخر أمره بالظلم والطغيان ، إلى دفعهما عنه بالثورة ، وأن من الجوهرى تعزيز
نمو العلاقات الودية بين الأمم .

وأن شعوب الأمم المتحدة قد جاهرت في الميثاق ، كرة أخرى بإيمانها بحقوق
الإنسان الأساسية ، وبكرامة شخص لإنسان وقدره ، وبالتساوى بين حقوق الرجل
والمرأة ، وأعلنت عن عزمها على تعزيز الرقى الاجتماعى وعلى رفع مستوى الحياة تحت
ظل من الحرية أوسع مدى .

وأن الدول الأعضاء قد قطعت على نفسها عهدا بأن تؤمن — بالتعاون مع الأمم
المتحدة — الاحترام العالمى الفعلى لحقوق الإنسان وللحريات الأساسية .

وأن الفهم المشترك لهذه الحقوق والحريات ذو أهمية عظمى للإيفاء بهذا العهد
إيفاء تاما . فالجمعية العامة تنادى بهذا الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، على أنه
للشعوب والأمم قاطبة . مثل للتحقيق مشترك — كما يسمى جميع الأفراد وجميع
هيئات المجتمع . وهذا الإعلان درما نصب العيون لأن يعززوا بالتعليم والتربية
احترام هذه الحقوق والحريات ، ويؤمنوا ابتداء بترجيية في النطاقين : الوطنى والدولى .

للاعتراف بها وتطبيقها على نحو عالمي فعال . سواء في ذلك شعوب الدول الأعضاء
نفسها وشعوب الأقاليم الداخلة في عهدها .

المادة الأولى : يولد البشر كلهم أحرارا ، متساوين في الكرامة وفي الحقوق
وقد وهبوا عقلا وضميرا ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الإخاء .
المادة الثانية : لكل إنسان جميع الحقوق والحريات المثبتة في هذا الإعلان ،
دون أي تمييز . لا سيما في العرق ، واللون ، والجنس ، واللغة ، والدين ، وفي
الآراء السياسية أو غيرها من الآراء وفي الأصل القومي أو الاجتماعي ، وفي الثروة
والنسب أو ما إليهما .

وفوق ذلك ، لن يكون هنالك أي تمييز يستند إلى الوضع السياسي أو القانوني
أو الدولي للبلد أو الإقليم الذي ينتمي إليه المرء ، سواء أكان ذلك البلد أو الإقليم
مستقلا ، أم تحت الوصاية ، أم غير متمتع بالحكم الذاتي ، أم مقيدا في سيادته
بأي قيد آخر .

المادة الثالثة : لكل إنسان الحق في الحياة ، وفي الحرية . وفي الأمانة على نفسه ،
المادة الرابعة : لا يسترق ولا يستعبد أحد ، فالرق والانجار بالرقيق ممنوعان
على مختلف أشكالهما .

المادة الخامسة : لا ينزل التعذيب بأحد ، ولا يعامل أحدا أو يعاقب بشكل شرس
أو وحشي أو محط بالكرامة .

المادة السادسة : لكل إنسان الحق في أن يعترف له ، في كل مكان ، بشخصيته
القانونية .

المادة السابعة : لكل واحد بين يدي القانون . متساوون في حقهم من حمايته
لهم ، دون تمييز بينهم .

ثم تحدث « الإعلان » عن حق الإنسان في إنصاف القضاء له ، وحقه في التنقل
بين البلاد ، وفي الزواج وتكوين أسرة له ، وفي الملكية ، وحرية الدين والرأي
وانتقل إلى حرية الاجتماعات فقال :

المادة العشرون : (١) لكل إنسان الحق في حرية الاجتماعات والجمعيات
المسالمة .

المادة الحادية والعشرون : (١) لكل إنسان الحق في أن يشارك في تدبير الشؤون العامة في بلده ، سواء أ كان ذلك على يده أم على أيدي ، مثلين يختارون اختياراً حراً .
(٢) لكل إنسان الحق في أن يتوصل على قدم المساواة إلى المناصب العامة في بلده .

(٣) قوام الحكم مشيئة الشعب ، ويجب لهذه المشيئة أن تتبين بانتخاب نزيه يأتي في مواعيد دورية ، ويكون على طريق الاقتراع العام السري المساوي فيه بين المقترعين ، أو على أسلوب آخر معادل له ، يكفل حرية الاقتراع .

المادة الثانية والعشرون : لكل إنسان . من كونه عضواً في الهيئة الاجتماعية الحق في الأمانة الاجتماعية ، وله الحق في أن ينال بفضل المجهود القومي والتعاون الدولي ، ووفقاً لحال الدولة بنظمها ومرافقها ، الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، التي لا تستغنى عنها كرامته ولا شخصيته في نموها المطلق .

المادة الثالثة والعشرون : (١) لكل إنسان الحق في العمل وفي الحرية على اختيار نوع العمل ، وفي أن تكون شروط العمل عادة مواتية ، وفي الحماية من البطالة ،

المادة الخامسة والعشرون : (١) لكل إنسان الحق في مستوى من العيش كاف لضمان الصحة والهناء له ولعائلته ، بما في ذلك الغذاء ، والكسوة ، والسكن والعناية الطبية . والخدمات الاجتماعية اللازمة ، وله الحق في أن يؤمن أمره عند البطالة ، والمرض ، والعجز ، والترمل ، والشيخوخة ، وفي كل حالة أخرى يفقد معها أسباب معاشه بعلة لا يد له فيها .

المادة السادسة والعشرون : (١) لكل إنسان الحق في التربية

(٢) يجب في التربية أن تعمل على نمو الشخصية الإنسانية نمو تاماً ، وعلى تقوية الاحترام لحقوق الإنسان والحريات الأساسية ، وعلى تعزيز التفاهم والتسامح والصداقة فيما بين الأمم جمعاء ، وفيما بين كل الجماعات ، وعلى دعم مجود الأمم المتحدة لتوطيد السلم .

المادة السابعة والعشرون : (١) لكل إنسان الحق في أن يشترك بحرية في حياة المجتمع الثقافية . وأن يتمتع بالفنون ، وأن يكون له نصيب في الرقي العلمي وفي الخيرات الناجمة عنه .

(٢) لكل إنسان الحق في أن تحمي المصالح الأدبية والمادية الناجمة عن كل نتاج له في العلوم والآداب والفنون .

المادة الثامنة والعشرون : لكل إنسان الحق في أن يسود نظام اجتماعي ودولي يتأق مع تحقيق تام للحقوق والحريات المثبتة في هذا الإعلان .

المادة التاسعة والعشرون : (١) على الفرد واجبات نحو المجتمع الذي فيه بحيث يتاح لشخصيته أن تنمو نموا حرا تاما .

(٣) لا يخضع أحد في ممارسة حقوقه وحرياته إلا لما يفرضه القانون من قيود ، غرضها الأوحاد إنما هو تأمين الاعتراف بحقوق الآخرين وحرياتهم واحترامها . وتحقيق ما تقتضيه عدلا الأخلاق والنظام العام والخير العام . في هيئة اجتماعية ديمقراطية .

(٣) لا يجوز - في حال من الأحوال - ممارسة هذه الحقوق والحريات على ما يناق أغراض الأمم المتحدة ومبادئها .

هذا هو وربك بعض نصوص من هذا الإعلان العالمي الجديد والآخر لحقوق الإنسان .. الذي لا يخرج في مبادئه عن أهداف الإسلام وغاياته ونصوصه .

الكلمة الأخيرة

بسم الله ، والحمد لله ، والتوفيق من الله ، وبه نستعين ، وعليه نتوكل ، وإليه
ننيب . .

هذا الكتاب « الإسلام دين الإنسانية الخالد » ، قد جمعنا فيه كثيراً من أصول
الإسلام ومثله وأفكاره ونزعاته في الإصلاح ، ودعواته للنهضة والتقدم ، مما فتح
المسلمون الأولون به صفحة جديدة في تاريخ البشرية كافة .

وكنت أريد أن أتحدث فيه بإفاضة أكثر مما أفضت ، لولا الشعور بأن هذا
الكتاب يجب أن يخرج كما خرج : كما وكيفاً ومنهجاً ، حرصاً على الفكرة العامة ،
التي ألف من أجلها هذا الكتاب ، وحرصاً كذلك على وقت القارئ والباحث .
والله المأمول أن ينفع به ، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم . .

المؤلف

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
تصدير	٧
تصدير ثان	٩
مقدمة ثانية — العزة لله	١٣
الباب الأول	١٤
بين الإسلام والشيوعية	
الحضارة بين المادية والروحية	١٧
الحرية الدينية في ظل الإسلام والشيوعية	٢١
السلام الاجتماعى بين الإسلام والشيوعية	٢٤
السلام العالمى فى الإسلام والشيوعية	٢٦
السرى فى قيام الإسلام	٢٨
الديمقراطية بين الإسلام والشيوعية	٣٠
حقوق الإنسان فى الإسلام والشيوعية	٣٥
الاشتراكية فى الإسلام والشيوعية	٣٧
الملكية فى الإسلام والشيوعية	٤٠
الأسرة فى ظل الإسلام والشيوعية	٤٦
الباب الثانى	٤٨
محمد رسول الله إلى الناس كافة	
أبو الأنبياء وبشارته بمحمد	٤٩
ميلاد بطل الإنسانية	٥٤
هذا النور مازال يهذى الإنسانية	٥٩
ميلاد النور الأعظم	٦٢
حديث الهجرة	٦٧
معجزة الهجرة	٧٤

رسول البشرية	٧٧
عيد السلام والحرية	٧٩
رسول الإخاء الإنساني	٨٤
نبي السلام والحرية	٨٨
يوم خالد	٩١
الباب الثالث - كتاب الإنسانية الكريم	٩٤
كتاب البشرية	٩٥
دستور الإسلام	٩٧
هادى الإنسانية	١٠٠
نزول القرآن	١٠٢
سور	١٠٤
جمع	١٠٦
حروف	١٠٩
آثار	١١١
إعجاز القرآن	١١٣
فوائح سور القرآن	١١٩
آراء فى الإعجاز	١٢١
بلاغة القرآن	١٢٧
محمد يتحدى بالقرآن	١٣٠
العرب ورأىهم فى إعجاز القرآن	١٣٥
مناهج المعرفة فى القرآن	١٤٣
الباب الرابع من أصول الإسلام الخالدة	١٤٧
الإسلام شريعة التقدم	١٤٨
من مفاخر ديننا الخالد	١٥٢
الإسلام وحرية البحث	١٨٨
وتعدد الزوجات	١٩٠
المرأة والدين والامومة	١٩٢
ميلاد الحضارة الإسلامية	١٩٩

ص	الموضوع
٢٠٢	أهداف الإسلام
٢٠٥	اشتراكية عادلة
٢١٠	الإسلام يوجه العقل
٢١٢	الإسلام والمذاهب السياسية
٢١٦	الإسلام والزكاة
٢٢٠	الإسلام يحارب الفقر
٢٢٤	الإحسان في شريعة الإسلام
٢٢٧	الإسلام يدعو إلى العلم
٢٢٩	الباب الخامس
	الإسلام وحقوق الإنسان
٢٣٠	تمهيد
٢٣٤	الحكم في الإسلام
٢٣٧	العمال وحقوقهم في الإسلام
٢٤١	الضمان الاجتماعي والإسلام
٢٤٤	الإسلام ونظام الطبقات
٢٤٦	حرية وكرامة
٢٤٩	أفكار جديدة
٢٥١	آراء أعلام الغرب في الإسلام
٢٥٦	الإسلام صفحة جديدة في تاريخ البشرية
٢٥٨	مبادئ الإسلام هي السبب في انتشاره
٢٦٠	دفاع عن الإسلام
٢٦٢	الإسلام دين الحق والقوة
٢٦٥	الإسلام والحضارة
٢٦٨	حرية وإخاء ومساواة
٢٧٤	الإسلام يسوى بين الناس

ص الموضوع

- ٢٧٧ الإسلام والعدالة
٢٨٠ الحريات العامة للإنسان
٢٨٢ الناس في الإسلام سواء
٢٨٩ الإسلام والحروب
٢٩١ الباب السادس : رسالة البشرية
٢٩٢ دعوة إنسانية عالمية
٢٩٦ الإسلام دعوة إلى السلام العالمي
٢٩٩ الإسلام مفاخره ليست لها نهاية
٣٠٤ الإسلام يحرر المرأة
٣٠٦ الصوم مدرسة الأحرار
٣٠٨ الصوم في حياتنا الروحية
٣١٠ نصوص
٣١٥ الكلمة الأخيرة
٣١٦ الفهرست

كتب جديدة للمؤلف

- ١ - مأنورات نبوية .
- ٢ - من تاريخ الأدب العربي بعد ظهور الإسلام .
- ٣ - تطهير الاعتقاد - للصنعاني اليمني - شرح المؤلف .
- ٤ - رائد الشعر الحديث - طبعة ثانية ١٩٥٥ .
- ٥ - الإسلام دين الإنسانية الخالد
- ٦ - المحسن الإسلامي الأكبر

- JUN 1986



كتاب جديده الزايف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل العلم نوراً

ومنه نرى طريق الحق والهدى

والعلم هو نور القلب والروح

والعلم هو نور الدنيا والآخرة

والعلم هو نور الجنة والنار

THE AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

The American University in Cairo
Library
December 18, 1995
00000335480

- JUN 1986

BP
165
K5
1955

